

**BIOGRAPHICAL SKETCHES OF EMINENT
PERSONALITIES IN ARABIC WRITINGS OF SYED ABUL
HASAN ALI NADWI – WITH SPECIAL FOCUS ON HIS
BOOK *AL MURTHADHA*: AN ANALYTICAL STUDY**

**Thesis submitted to the University of Calicut for the Degree of
Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature**

By

ABDUL MUNEEB POONTHALA

Under the supervision of

DR. K. SHAIK MOHAMMED

Research Guide

**Madeenathul Uloom Arabic College, Pulikkal, Malappuram
Kerala, India**



UNIVERSITY OF CALICUT
KERALA - INDIA
2023

CERTIFICATE

This is to certify that the thesis entitled “**Biographical Sketches of Eminent Personalities in Arabic Writings of Syed Abul Hasan Ali Nadwi - with Special Focus on His Book *Al Murthadha: An Analytical Study***” is a bonafide record of research work carried out by **Mr. Abdul Muneer Poonthala**, under my guidance and supervision in the research department of Arabic, Madeenathul Uloom Arabic College, Pulikkal, Kondotty, in partial fulfillment of the requirements for the Award of the Degree of Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature and no part of this thesis has formed the basis for the award of any degree earlier.

Pulikkal
Date: 08/03/2023

Dr. K. Shaik Mohammed
(Supervising Teacher)

DECLARATION

I, **Abdul Muneer Poonthala**, hereby declare that the thesis entitled **“Biographical Sketches of Eminent Personalities in Arabic Writings of Syed Abul Hasan Ali Nadwi - with Special Focus on His Book *Al Murthadha: An Analytical Study*”** submitted to the University of Calicut, Calicut, in partial fulfillment of the requirements for the Award of the Degree of Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature is an authentic record of the original research work carried out by me, in the research department of Arabic, Madeenathul Uloom Arabic College, Pulikkal, Kondotty, under the guidance and supervision of **Dr. K. Shaik Mohammed**, and no part of the thesis has formed the basis for the award of any degree, diploma or any other similar titles of any university or institution earlier.

Pulikkal
Date: 08/03/2023

Abdul Muneer Poonthala
(Research Scholar)

المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	٧
الباب الأول: فن السيرة في الأدب العربي	٢٣-٨٨
الفصل الأول: التعريف بفن السيرة.....	٢٥
الفصل الثاني: نشأة فن السيرة وتطوره في الأدب العربي	٣٨
الفصل الثالث: أنواع السيرة	٥٦
الفصل الرابع: وظائف السيرة ودوافع كتابتها	٨٠
الباب الثاني: السيد أبو الحسن علي الندوي – حياته ورسالته ...	٨٩-١٨٢
الفصل الأول: مولد الندوي وحياته	٩١
الفصل الثاني: الندوي ككاتب وأديب	١٢٦
الفصل الثالث: الندوي الرحالة	١٤١
الفصل الرابع: رسالات حاول الندوي إنجازها	١٧٢
الباب الثالث: أعمال أبي الحسن علي الندوي في السيرة	١٨٣-٢٥٩
الفصل الأول: فن السيرة والترجمة عند الندوي	١٨٥
الفصل الثاني: السيرة النبوية	١٩٢
الفصل الثالث: رجال الفكر والدعوة في الإسلام	٢٠٤

٢١٥.....	الفصل الرابع: إذا هبت ريح الإيمان
٢٢٤.....	الفصل الخامس: الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله
٢٣٤	الفصل السادس: الإمام المحدّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمي.....
٢٤٤.....	الفصل السابع: في مسيرة الحياة
٣٠٦-٢٦١	الباب الرابع: المرتضى - دراسة تحليلية
٢٦٣.....	الفصل الأول: معلومات أساسية عن كتاب "المرتضى"
٢٧٤.....	الفصل الثاني: ملخص الكتاب
٢٨٤.....	الفصل الثالث: تقييم الكتاب
٢٩٨.....	الفصل الرابع: تقييم الوسائل التي حقق بها المؤلف غرضه
٣٠٧.....	الخاتمة.....
٣١٦.....	المصادر والمراجع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسوله النبي الكريم، المبعوث إلى كافة الأمم، من العرب والعجم، وعلى آله وصحبه الفائزين برضا السلام، أما بعد:

فهذه الرسالة المعنونة بـ"سِير الأعلام في المؤلفات العربية للسيد أبي الحسن علي الندوي - مع تركيز خاص على كتابه المرتضى: دراسة تحليلية" يقدمها الباحث عبد المنير بونتالا إلى جامعة كاليفورنيا لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها.

إن فن السيرة والترجمة نوع أدبي قديم، له تأثير قوي في المجتمع عامة وفي المجتمع العربي والإسلامي خاصة، والسيرة خزانة الأحداث السالفة، وتواريخ حيوات الشخصيات الماضية، وقد اهتم المسلمون بسيرة النبي ﷺ منذ القدم، فهي الصورة الأولى للسير عند العرب وأهل الإسلام. وتتنوع السيرة حسب اعتبارات شتى، يعالج الباحث في بداية هذه الدراسة التعاريف المختلفة للسيرة في الأدب العربي، وتاريخ نشأتها، وتطورها، وأنواعها المختلفة، والوظائف التي تؤديها، والدوافع التي تدفع الكاتب إلى كتابتها.

وإن أبا الحسن علي الندوي (١٩١٤ - ١٩٩٩ م) عالم هندي وكاتب عبقرى ورحال ألمعي، تولدت من يراعه الغريب كتب عديدة في مختلف الفنون والمواضيع، منها ما في علوم الدين، وعلوم القرآن الكريم، وعلوم السنة المطهرة، ومنها ما في أدب الأطفال وما في

التعليم والتربية وغيرها من الفنون، إلا أن الكتابة في سير الأعلام وتصوير حيواتهم كانت أحب الموضوعات إليه وأهم المعالجات بيده.

يناقش الباحث في هذه الأطروحة مراحل حياة الندوي المختلفة ونشاطاته الأدبية ككاتب مكثّر ورحال أديب، وبعض الرسائل التي أراد إنجازها في حياته المديدة العلمية. وحاول الباحث عرض تفاصيل كتاباته ومميزات مؤلفاته على وجه العموم، والكتب التي ألفها في تصوير حيوات بعض الأعلام الذين عاشوا في شتى الأزمنة وفي مختلف الأمكنة على وجه الخصوص. والنقاش المهم الآخر في هذا البحث هو الدراسة التحليلية لكتاب "المرتضى" الذي ألفه الندوي في رسم حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

تحليل العنوان

عنوان هذا البحث هو "سِير الأعلام في المؤلفات العربية للسيد أبي الحسن علي الندوي - مع تركيز خاص على كتابه المرتضى: دراسة تحليلية".

السير: جمع السيرة، معناها اللغوي هو الطريقة والسنة والهيئة، أما معناها الاصطلاحي فهو بحث يصور فيه المؤلف أحداث حياة شخصية من الشخصيات البارزة.

الأعلام: جمع العَلَم، بمعنى رجل مشهور أو شخصية بارزة، وقال الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر في "معجم اللغة العربية المعاصرة": "علم [مفرد]: ج أعلام: ... ٢ سيد القوم، رجل مشهور، "فلانٌ علمٌ من أعلام الفكر/ الأدب..."^(١). وورد معنى هذه الكلمة

^١ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م، ج ١، ص: ١٥٤٣

في معجم ج. ملتان كوفان (J Milton Cowan):

"... A distinguished, outstanding man; An eminent personality;..."⁽¹⁾

المؤلفات العربية: تعني الكتب العربية، ووصف الباحث المؤلفات ب"العربية" لأن للسيد أبي الحسن علي الندوي مؤلفات كثيرة وكتابات عديدة في اللغة الأردية، ولكنه ركّز بحثه على كتبه العربية، غير أنه ضم إليها الكتب المنقولة والمترجمة إلى اللغة العربية في فن السيرة.

السيد أبو الحسن علي الندوي: هو أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، العالم الهندي والكاتب المشهور والداعية الكبير، صاحب كتب عديدة في فنون متنوعة، ولد في نوفمبر سنة ١٩١٤م، في قرية "تكية كلان" في رائي بريلي الواقعة في ولاية "أترابرديش" الهندية، وتوفي في ديسمبر سنة ١٩٩٩م.

تركيز: مصدر ركّز، يقال ركّز فلان على شيء أي أكّده واهتم به، وركّز فلان شيئاً أي ثبّته وعرّزه، وركّز انتباهه في القراءة أي حصره فيها، وورد في "معجم اللغة العربية المعاصرة": "ركّز/ ركّز على يركّز، تركيزاً، فهو مركّز، والمفعول مركّز.

• ركّز الشيء: ركّزه، وثبّته، وعرّزه، "ركّز ضوء المصباح إلى أسفل - ركّز الأضواء على منظر معين".

• ركّز المحلول: (كم) زاد فيه نسبة الذائب إلى المذيب دون أن يصل إلى حد الشبع، "شراب مركّز: غليظ مكثّف".

¹ Cowan, J. Milton, ARABIC ENGLISH DICTIONARY, Edited by Third Edition, Spoken Language Services, Inc. Ithaca, New York, 1976, p: 636

• ركّز الفكر أو نحوه في الشيء: حصره فيه، "ركّز انتباهه في المحاضرة - ركّز فكره في إيجاد حل للمشكلة".

• ركّز على الشيء: اهتم به وأكّده، "ركّزت الدولة على أهمية التنمية البشرية"^(١).

خاص: بمعنى معين أو مفضل.

كتابه المرتضى: أي كتاب أبي الحسن علي الندوي بعنوان "المرتضى" المؤلّف في تصوير حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الصحابي الجليل، رابع الخلفاء الراشدين، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

دراسة تحليلية: تعني الدراسة التي تتم بناء على دراسة عديدة من المشكلات العلمية بالتقويم وتفكيك المواد وغيرهما من الوسائل.

أهمية البحث

يكتسب هذا البحث أهميته من أهمية موضوع معالجته، لأن فنّ السيرة له تأثير قوي في نفوس القراء، سواء أكان فنّ السيرة الذاتية أو الغيرية، وإن أبا الحسن علي الندوي كان عالما مشهورا وكاتباً ماهراً وخطيباً أسرا، ولمس يراعه اللافت مجالات عديدة من العلم، وفنونا كثيرة من الأدب، ومن أبرزها ما كتب في سير أعلام نابغين وترجمة شخصيات بارزة، والدراسة حول هذه الكتب في سيرهم ذات أهمية كبرى بلا نزاع، لأنها تنور قلوب الجيل الجديد، وترفعها علما وأدبا وثقافة، وتنميها تنمية حسنة، وتربّيها تربية طيبة.

^١ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج: ١، ص: ٩٣٥

وعلى قدم المساواة يكسب أهميته من معالجته التحليلية لكتاب "المرتضى" الذي ألف في تصوير حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الندوي، ومن أسلوبه وخصوصياته، حيث ألفه الشيخ ليدافع عن هذه الصحابي الجليل وشخصيته، ويردّ على دعاوي الشيعة ضده، ولكن الأسلوب المتبع فيه أسلوب بليغ لا لادغ، وأسلوب واضح لا فاضح، والتعريف بهذا الأسلوب أيضا يجعل أهميته.

دوافع اختيار الموضوع

هناك بعض الدوافع الهامة التي دفعت الباحث إلى اختيار هذا الموضوع لبحثه، وفي الحقيقة كانت بذرة هذا الموضوع توجد في قلبه وتنشأ مع نشأته منذ سنين، كانت وفاة الشيخ الندوي في سنة ١٩٩٩م، إذ كان الباحث طالب الماجستير للسنة الأولى في كلية مدينة العلوم العربية، فأتيحت له فرصة قراءة كثير من المقالات في بعض المجالات في اللغة العربية واللغة المحلية، وأدته هذه القراءة إلى فتح عينيه والتفهم بأن آفاق كتابات الندوي وموادها واسعة، وأن أجواء مؤلفاته وفنونها مديدة، أكثر مما فهمه من بعض الكتب في المناهج الدراسية.

ولكن هذه البذرة كانت تتبقى في قلبه وهي لا تنبت لأسباب، وبعد سنين سنحت له فرصة قراءة كتاب الشيخ "السيرة النبوية" الذي أسر عقل الباحث ولفت انتباهه بأسلوبه السهل وكلماته المألوفة ومضامينها العميقة، كما سنحت له فرصة مطالعة كتاب "المرتضى" الذي صور فيه الندوي حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه مدافعا عنه ومهدبا سيرته من الأباطيل والأكاذيب، وهذا أيضا جذب قلب الباحث، وشرعت البذرة تحاول أن تنبت، ولكن لم يخرج نباتها.

ولم يلبث أن قرأ الباحث كتاب "إذا هبت ريح الإيمان" الذي رسم فيه الندوي حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ - ١٢٦١م)، ونشاطاته الدعوية وأعماله الخيرية، ولما فرغ من مطالعته رسخت في قلبه جسامة ملكة الندوي وقدرته على تصوير حيوات الأعلام في الكلمات الجميلة والتراكيب الجذابة والسطور الخلاقة، وكان ذلك الوقت هو وقت فكرة الباحث في جعل موضوع بحثه الندوي وأعماله الأدبية، ولكن لم يعزم عليه نهائياً.

وكان قلبه مشغولاً بمؤلفات الندوي في فن السيرة، وخلال هذه الفترة سنحت له الفرصة لقراءة مقدمة كتاب "شخصيات وكتب" التي يبين فيها الندوي الشروط التي يجب توافرها فيمن يكتب في فن السيرة - وسيأتي الكلام عنها في موضعها من هذا البحث إن شاء الله - وفي الواقع هذا الاشتراط وطّد قلب الباحث على هذا المجال من الدراسة، حتى انتهى إلى هذا الموضوع الهام بعد أن دفعته إليه الدوافع المذكورة تدريجياً. وتم تحديد كلمات العنوان بعد مشاورة ومجالسة بعض الأساتذة المبرجلين والعلماء الموقرين والزملاء المتخصصين في هذا المجال.

أهداف البحث

يهدف الباحث بهذه الدراسة المتواضعة إلى عدة أهداف هامة، منها التعريف بفن السيرة والترجمة، والتطلع إلى تاريخ نشأته وتطوره تبعاً لتطور الأزمنة، وبيان أنواعها، وكشف وظائفها المهمة التي تقوم بها في الأدب العربي والمجتمع ومجال العلم والتاريخ، وكشف أبرز الدوافع التي تدفع الكُتّاب إلى كتابتها.

ومنها عرض تاريخ حياة أبي الحسن علي الندوي، والتعريف بأشهر مؤلفاته العربية في شتى المجالات عامة، وفي ترجمة الشخصيات البارزة خاصة، وبيان وجهة نظره إلى فن السيرة على وجه العموم، وإلى سيرة الرسول ﷺ على وجه الخصوص. ومنها توضيح

اهتمام الندوي بتصوير حياة بعض المصلحين والمجددين والعلماء وأسلوبه وملامحه، والأسباب التي أدته إلى كتابتها. ومنها القيام بنقاش تحليلي لكتاب "المرتضى" وتقييم أسلوبه وبيان مميزاته وملامحه، وتفصيل وتقدير الوسائل التي استخدمها الندوي للوصول إلى غايته من الكتابة.

مشكلة البحث

إن الباحث حاول إجابة تساؤلات أو إشكاليات رئيسية من أجل الوصول إلى الهدف المنشود من البحث، هي:

- ما تعريف السيرة؟ ومتى نشأت في الأدب العربي؟ وما هي أنواعها المهمة؟
- ما هي الوظائف التي تؤديها السيرة؟ وما هي دوافع كتابتها؟
- ما هي خصائص البيئة التي نشأ فيها أبو الحسن علي الندوي؟
- ما هي المؤلفات والشخصيات التي أثرت في تكوين شخصية الندوي؟
- ما هي أهم المجالات التي وضع الندوي يده عليها ككاتب أديب؟
- بم يتميز أسلوب الندوي التأليفي؟
- ما هي أهم الرسائل التي حاول الندوي إنجازها كعالم وأديب وكاتب؟
- ما هي الدوافع التي دفعت الندوي إلى الاهتمام بفن السيرة؟
- ما هي ملامح كتاب "السيرة النبوية" للندوي؟
- ما هي المؤلفات العربية للندوي في سير الأعلام؟
- من هم الأعلام الذين كتب الندوي في تصوير حياتهم؟
- هل نجح الندوي ككاتب في سيرة ذاتية؟
- كيف يتميز كتاب "المرتضى" عن غيره من الكتب المؤلفة في ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟

- هل نجح الندوي في تصوير حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كمدافع عنه؟
- ما هي الوسائل التي بلغ باستخدامها الندوي إلى غايته عند تأليف "المرتضى"؟

منهج البحث

اعتمد الباحث في إعداد هذه الرسالة على ثلاثة مناهج هامة حسب مقتضى الحاجة، منهج تحليلي، ومنهج وصفي، ومنهج تاريخي.

فالمنهج التحليلي اعتمد عليه الباحث في مواضع كثيرة من هذه الأطروحة، خاصة عند الدراسة التحليلية في كتاب "المرتضى" في الباب الرابع، لتقديره وتقييم الوسائل التي استخدمت في ذلك الكتاب، وعندما تحدّث عن بعض أهم كتب الندوي في السيرة في الباب الثالث، لاستنتاج خصوصياتها واستخراج مضمونها.

واعتمد على المنهج الوصفي عندما تحدث عن أقسام السيرة بذكر أوصاف كل نوع من أنواعها في الباب الأول، وعندما تكلم عن أهم كتبه في السيرة في الباب الثالث، إذ ذكر أوصافها لاستخراج مميزات وملامحها.

أما المنهج التاريخي فاعتمد عليه الباحث عند النقاش حول نشأة السيرة وتطوره في الباب الأول، وحول حياة الندوي من مولده إلى وفاته في الباب الثاني، كما استعمل هذا المنهج عند ذكر أهم الكتب في السيرة في الباب الثالث والباب الرابع حيث شرح قصة تأليف كل من هذه المؤلفات.

مصادر البحث

اعتمد الباحث في إعداد هذه الأطروحة على مصادر أصلية كثيرة ألفها أبو الحسن علي الندوي، مثل: "المرتضى"، و"في مسيرة الحياة"، و"السيرة النبوية"، و"رجال الفكر

والدعوة في الإسلام" وغيرها الكثيرة من كتبه، وعلى مراجع عديدة ألفها كثير من العلماء والأدباء في داخل القارة الهندية مثل: سيد عبد الماجد الغوري، والدكتور محمد أكرم الندوي، والدكتور محمد اجتباء الندوي وغيرهم، وفي خارجها مثل: الدكتور يوسف القرضاوي وغيره. واعتمد على بعض المجلات والدوريات مثل: "البعث الإسلامي" و"دراسات عربية" و"ثقافة الهند" وغيرها.

ولجأ الباحث لجمع المعلومات إلى كثير من الكتب والدراسات المتعلقة بموضوع السيرة مثل كتب الدكتور شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس، ومحمد عبد الغني حسن، والدكتور حسين فوزي، والدكتور شعبان عبد الحكيم محمد وغيرهم ممن اشتهروا بمساهماتهم الجسيمة في هذا الفن، كما لجأ إلى بعض المواقع الإلكترونية.

الدراسات السابقة

كعالم هندي مشهور في العالم وعبقري قدّم خدمات علمية وأدبية ودعوية كثيرة بخطاباته الساحرة ومؤلفاته المشهورة قد تعرضت كتبه ومؤلفاته للبحوث على وجه العموم، كما تعرضت بعض مجالاتها للدراسات العميقة على وجه الخصوص، ولكن لم يتعرض الندوي وجميع مؤلفاته العربية في مجال السيرة الترجمة مع التركيز على كتابه "المرتضى" فيما يعلمه الباحث من قبل هذا. ومن الدراسات العربية المقدمة إلى الجامعات المختلفة لنيل شهادة الدكتوراه التي جرت في جوانب وأبعاد مختلفة متعلقة بالندوي ومؤلفاته ما يلي:

- "الاتجاهات الدينية في الأدب العربي بالقرن العشرين مع دراسة خاصة لأعمال الشيخ أبي الحسن علي الندوي الأدبية"، للدكتور عبد الوهاب. ك. جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند، ٢٠١٠م.

- "الجوانب التاريخية الاجتماعية في كتابات أبي الحسن علي الندوي بإشارة خاصة إلى مؤلفه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، للدكتور حضرة حسن الزمان، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات الإنجليزية واللغات الأجنبية، جامعة آسام، الهند، ٢٠١١ م.
- "الأفكار الفلسفية والتربوية في مؤلفات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي"، للدكتور محمد نور الأمين و، مركز البحوث للغة العربية وآدابها، جامعة كتنور، كيرالا، الهند، ٢٠١٣ م.
- "دور أبي الحسن علي الندوي في تطور الأدب الإسلامي في اللغة العربية - دراسة تحليلية"، للدكتور آصف لثيق، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات وطقه اللغة والدراسات الهندية، جامعة مولانا آزاد الأردية الوطنية، حيدر آباد، الهند، ٢٠١٨ م.
- "إسهامات عباس محمود العقاد وأبي الحسن علي الندوي في أدب السيرة النبوية الشريفة - دراسة مقارنة"، للدكتور محمد أرشد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نودلبي، الهند، ٢٠٢١ م.
- "السيرة الذاتية لعلي الطنطاوي وأبي الحسن علي الندوي - دراسة تحليلية"، للدكتور نثار أحمد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية واللغات، الجامعة الملية الإسلامية، بيودلبي، الهند، ٢٠٢١ م.
- "أدب الرحلة عند الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي: دراسة تحليلية وصفية"، للدكتور نشاد علي. قسم البحوث والدراسات العربية العليا، الكلية الجديدة (حكم ذاتي)، جامعة مدراس، تشيناي، ولاية تامينادو، الهند، ٢٠٢١ م.

- "أدب السيرة في القرن العشرين: دراسة مقارنة بين علي الطنطاوي وأبي الحسن علي الندوي"، للدكتور خليك الرحمن، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الفنون واللغات والآداب، جامعة كشمير سرينغر، ٢٠٢٢ م.

ويتبين مما مضى أن هذه الرسالة فريدة في مجالها ومتميزة بمضامينها، ولا يغفل الباحث عما جرى نقاش نقدي وتحليلي عن كتابي "في مسيرة الحياة" و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام" للندوي في رسالة الدكتور خليك الرحمن المذكورة.

صعوبات البحث

كانت هذه الرحلة العلمية رحلة ممتعة، وكان معظم المصادر والمراجع متاحة في شكل PDF، حتى يتيسر للباحث الوصول إلى غرضه المقصود من هذا العمل المتواضع، إلا أنه كانت هناك بعض الصعوبات التي واجهها في هذا المسير، ومن أهمها عدم توافر الكتب أو المقالات المنشورة أو الدراسات الأخرى حول كتاب "المرتضى" إلا النزر القليل.

خطة البحث

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، فالباب الأول الذي يحمل عنوان "فن السيرة في الأدب العربي" يسلط الضوء على التعاريف المتنوعة للسيرة، وتاريخ نشأتها في الأدب العربي، وأنواعها الهامة باعتباريات شتى، والوظائف المهمة التي تقوم بها السيرة، والدوافع التي تدفع الكُتّاب إلى كتابتها. فإدًا يشتمل هذا الباب على أربعة فصول، الفصل الأول: "التعريف بفن السيرة"، والفصل الثاني: "نشأة فن السيرة وتطوره في الأدب العربي"، والفصل الثالث: "أنواع السيرة"، والفصل الرابع: "وظائف السيرة ودوافع كتابتها".

والباب الثاني المعنون ب"السيد أبو الحسن علي الندوي - حياته ورسالاته" يعرض تاريخ حياة الندوي من ميلاده إلى وفاته، وبين الفنون التي طار على آفاقها ككاتب وأديب، ويقص قصص رحلاته التي قام بها في مختلف الأحيان إلى مختلف البلاد، وتوضح الرسائل القيمة التي حاول إنجازها وتحقيقها خلال كتاباته وخطاباته. وتندرج تحت هذا الباب أربعة فصول، الفصل الأول: "مولد الندوي وحياته"، والفصل الثاني: "الندوي ككاتب وأديب"، والفصل الثالث: "الندوي الرحالة"، والفصل الرابع: "رسالات حاول الندوي إنجازها".

والباب الثالث هو "أعمال أبي الحسن علي الندوي في السيرة"، يتناول مواقف الندوي من فن السيرة، واهتمامه به، والشروط التي يجب توافرها على من يتقدم إلى هذا الفن في وجهة نظره، كما يتناول خمسة كتب ألفها الندوي في السيرة الغيرية، وكتابا في سيرته النفسية، فاشتمل على سبعة فصول، الفصل الأول: "فن السيرة والترجمة عند الندوي"، والفصل الثاني: "السيرة النبوية"، والفصل الثالث: "رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، والفصل الرابع: "إذا هبت ريح الإيمان"، والفصل الخامس: "الداعية الكبير محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله"، والفصل السادس: "الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، والفصل السابع: "في مسيرة الحياة"، وهذا الأخير هو كتابه في سيرته الذاتية.

أما الباب الرابع الذي يحمل عنوان "المرتضى - دراسة تحليلية" فباب خاص بنقاش تحليلي لكتاب "المرتضى" للندوي الذي ألفه في تصوير حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويحتوي على أربعة فصول، الفصل الأول: "معلومات أساسية عن كتاب المرتضى"، والفصل الثاني: "ملخص الكتاب"، والفصل الثالث: "تقييم الكتاب"، والفصل الرابع: "تقييم الوسائل التي حقق بها المؤلف غرضه".

الشكر والتقدير

بادئ ذي بدء يشكر الباحث ربه الودود على جميع نعمه عليه التي لا تعد ولا تحصى عامة، وعلى توفيقه لإتمام هذا البحث المهم خاصة، ويحمده حمدا طيبا مباركا فيه. وبعد حمد الله تعالى وشكره يقوم بتسجيل بالغ الشكر والتقدير لمشرفه الموقر وأستاذه المجل الدكتور ك. الشيخ محمد حفظه الله ورعاه على إرشاداته القيمة وإشرافاته الجيدة وتوجيهاته العظيمة منذ وضع الباحث خطوته الأولى في ميدان هذه الدراسة حتى نهاية مطافه، وعلى بذل أئمن أوقاته وأجزل خدماته وأغلى جهوده لمساعدته ومساندته في أعماله البحثية. ويدعو الله أن يجزل جزاءه ويعظم مكانه ويكرمه في الدارين.

وهناك شخصيات بارزة كثيرة قامت مقام الدعم والتأييد للباحث بتقديم إسهاماتها الثمينة وخدماتها الفذة ونصائحها المثمرة، ومن أبرزها الأستاذ عبد الله الندوي الذي قدم له توجيهات مفيدة متعلقة بموضوع البحث بتجاربه المديدة في دار العلوم لندوة العلماء بلكنؤ، والأستاذ محي الدين الندوي الذي شرف الباحث بإرشادات مهمة ومعلومات غزيرة بكتب السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي، والدكتور محمد الصلاحي الذي قام بالبحث المستمر على هذا السير البحثي، وتصفح هذه الرسالة من ألفها إلى يائها، وقام بتفتيشها وتصحيح أخطائها، والدكتور محمد فرمان الندوي مدير التحرير لمجلة "البعث الإسلامي" الذي زوده بمعلومات زائدة حول بعض مؤلفات السيد الندوي خاصة بكتاب "في مسيرة الحياة".

والباحث سعيد جدا بتسجيل الشكر لزمرة من رجال العلم والتعليم وأساتذته في كلية مدينة العلوم العربية، الذين شرفوه بتوفير الإمكانيات العلمية، ومنهم الدكتور سيد محمد شاكر عميد الكلية، والدكتور يوسف ت. ك. أستاذ مشارك سابقا، والدكتور محمد علي، والدكتور بشير يم.

ثم يقدم الباحث الشكر والعرفان إلى الدكتور عبد المجيد أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت، والدكتور علي نوفل أستاذ مشارك في نفس الجامعة،

والدكتور سابق أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بكلية م. إ. س. على إرشاداتهم القيمة وتوجيهاتهم النافعة حسب الحاجة.

ولا يستطيع الباحث أن ينسى زميله الحميم الدكتور محمد بشير س. ك. ومساعداته الخالصة ومعاوناته الصادقة بمطالعة هذه الرسالة من أولها إلى آخرها، وتنقيحها وتهذيبها، على الرغم من انشغالاته الأكاديمية وتعدد شؤونه الأسرية، ويزجي إليه أجزل الشكر على تلك المساعدات الجبارة والمساندات الباهرة.

وتشرف الباحث بتوجيهات بعض زملائه المخلصين، ويوصل إليهم جزيل الشكر، منهم الدكتور صابر نواس أستاذ مساعد بكلية مدينة العلوم العربية، والدكتور محمد نور الأمين أستاذ مساعد بكلية ب. ت. م. الحكومية ببارينتالما في ملابرام كيرالا، وأنور كوزميراوان أستاذ مساعد بكلية الجامعة الحكومية بترفاندرام، كما يوصله إلى سهل ك وبشير توتاتيل، وإلى رحيب توتاتيل أمين مكتبة مدينة العلوم على إعداد التسهيلات العلمية والمرافق اللازمة من طرف المكتبة.

ثم يتذكر الباحث والديه المحترمين جابر المولوي وخديجة س. ك. بامتنان وشكر. كان كلاهما يرفعان الباحث منذ طفولته خلال كل لحظات الحياة الحلوة والمريرة مع المحبة والحضانة بدعمهما الكامل، ويوفران له جميع التسهيلات للحصول على تعليم جيد، وهو أمر يستحق الامتنان بالتأكيد. فيوجه إليهما شكرا جزيلا ويدعو لهما بكل الخيرات في الحياة العاجلة والحياة الآجلة.

كما يشكر ويدعو لزوجته الحبيبة ساجدة التي عانت الكثير من الأشياء بصبر من أجل استكمال هذا العمل البحثي بشكل ممتاز، وقضت وقتا طويلا في تجهيز المرافق المنزلية للباحث أيام بحثه الكثيفة.

ويقدم الباحث جزيل الشكر والامتنان لكلية مدينة العلوم العربية، وجامعة كاليكوت على مساعداتهما المرموقة ودعمهما القوي، لا سيما في أصعب أوقات دراسته البحثية.

ويسر الباحث أيضا تقديم الشكر والامتنان لكل من نصره في مختلف مراحل عمليات هذه الدراسة من الأساتذة والزملاء، ومسؤولي مركز مدينة العلوم للبحوث، ويرفع خالص الدعاء لهم جميعا إلى الله أن يتغمدهم بالخيرات المتتاليات ويغمرهم بالبركات المتسلسلات في الدنيا، وأن يجزيهم أجزل الجزاء في الدار الآخرة.

عبد المنير بونتالا

الباحث

الباب الأول

فن السيرة في الأدب العربي

الفصل الأول: التعريف بفن السيرة

الفصل الثاني: نشأة فن السيرة وتطوره في الأدب العربي

الفصل الثالث: أنواع السيرة

الفصل الرابع: وظائف السيرة ودوافع كتابتها

الفصل الأول

التعريف بفن السيرة

السيرة هي فن معروف منذ القدم، ولون أدبي مألوف لدى أكثر الأمم، وهو على اختلاف أنواعه وتلون أبعاده أحرز مكانا مرموقا عند محبي الأدب وعشاقه، ويقدم هذا النوع المتميز من الأدب للناس تاريخ حياة الشخص المترجم له، حتى يحصل القارئ على معرفة أحداث حياته ووقائعها، وأحواله الأسرية والاجتماعية، وبيئاته التي قضى أيامه فيها، وإسهاماته الملحوظة وخدماته البارزة، ورحلاته التي قام بها في مختلف المناسبات، وما إلى ذلك من أهم الأخبار والمعلومات المتعلقة به وبحياته.

والذي أكسب هذا الفن القبولية هو جمعه لتلك الحوادث التاريخية واشتماله على تلك التصاوير اللامعة، وقد تعرضت السيرة لتقدمات جلية مع تقدمات البلاد، ولتطورات كثيرة بمرّ الزمان، ولتغيرات كبيرة مع تغيرات الثقافات. وإن لهذا النوع من الفنون منزلة رفيعة في قلوب المسلمين، لأن أحداث حياة النبي ﷺ محفوظة في كتب الأحاديث، وتجب عليهم إطاعته ﷺ لقول الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"^(١)، و"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"^(٢)، وغيرهما من الآيات.

^١ سورة الأحزاب: ٢١

^٢ سورة النساء: ٥٩

فحاول كثير من علماء المسلمين ومؤرخيهم تأليف كتب قيمة تصور أحداث حياته ﷺ،
وقدموا أمامهم أحسن الضيافة العلمية والتاريخية، ولم يقتصروا على تأليف سيرة
وترجمة الرسول ﷺ، بل شرفوا المكاتب العربية ودُور الكتب الإسلامية بتأليف كتب
تراجم وسيّر لكثير من أعلام المسلمين ومشاهيرهم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم
من صناع التاريخ.

يعالج هذا الفصل بيان تعريفات "السيرة" المختلفة كما رآها العلماء، والتي توجد في
مختلف الكتب المعتمد عليها من المعاجم وكتب الأدب وغيرها، كما يناقش مدلولات
تلك الكلمة في اللغة والاصطلاح.

السيرة لغة

معنى كلمة "السيرة" كما في المعاجم والقواميس: الطريقة والمذهب والسُنَّة والهيئة،
ووردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى الحال أو الصورة أو الهيئة خلال سرد قصة
موسى عليه السلام، حيث قال تعالى: "قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى"^(١).
لقد عرّف العلماء قديما وحديثا هذه الكلمة، وقال أصحاب المعاجم والقواميس عدة
أقوال وسجلوا آراء كثيرة حول هذه الكلمة، منها على سبيل المثال:

ومن المعاني التي ذكرها ابن منظور في لسان العرب لكلمة "السيرة" السُنَّة والطريقة
والهيئة والميرة، وقال: "السَّيْرُ: الذهاب، سار يسير سيرا ومَسِيرًا وتَسِيرًا ومَسِيرَةً
وسيرورة، الأخيرة عن اللحياني، وتَسِيرًا يذهب بهذه الأخيرة إلى الكثرة..."^(٢). وقال أيضا:
"والسَّيْرَةُ: الضرب من السَّيْرِ. والسَّيْرَةُ: الكثير السَّيْرِ، هذه عن ابن جني. والسَّيْرَةُ:

^١ سورة طه: ٢١

^٢ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ببلن، الطبعة الجديدة المصححة والملونة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩ م، ج:

٦، ص: ٤٥٣

السُّنَّة، وقد سارتُ وسرَّتها ... والسَّيِّرة: الطريقة. يقال سار بهم سيرة حسنة. والسَّيِّرة: الهيئة. وفي التنزيل العزيز: "سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى... والسَّيِّرة: الميرة..."^(١).

وقال الجرجاني في "التعريفات": "(السَّيِّر): جمع سيرة، وهي الطريقة، سواء كانت خيرا أو شرا، يقال: فلان محمود السَّيِّرة، وفلان مذموم السَّيِّرة"^(٢).

وقال الفيروزآبادي في "القاموس المحيط": "والسَّيِّرة بالكسر: السُّنَّة والطريقة الهيئة والميرة، والسَّيِّر بالفتح: الذي يُقَدُّ من الجلد ج: سُيُور..."^(٣).

وقال السيد محمد مرتضى الزبيدي في "تاج العروس": "(والسَّيِّرة)، بالفتح: (الضرب من السير)... (و) من المجاز: (السَّيِّرة بالكسر: السُّنَّة)،... (و) السَّيِّرة: (الطريقة)، يقال: سار الوالي في رعيته سيرة حسنة، وأحسن السَّيِّرَ، وهذا في سَيْرِ الأولين. (و) السَّيِّرة: (الهيئة) وبه فسَّر قوله تعالى (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى). (و) السَّيِّرة: (الميرة)..."^(٤).

وقال الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر في "معجم اللغة العربية المعاصرة": "سيرة [مفرد]: ج سيرات (لغير المصدر) وسَيْر (لغير المصدر): ١ مصدر سار/ سار إلى/ سار على/ سار في. ٢ طريقة، سنة، سلوك "كان ذا سيرة حسنة". ٣ حالة، هيئة (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)..."^(٥). ويتكلم الكاتب بعده عن معناها الاصطلاحي، وسيأتي في موضعه إن شاء الله.

وورد في "المعجم الوسيط": "(السيرة): السُّنَّة. والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره..."^(٦).

^١ نفس المرجع، ص: ٤٥٤، ٤٥٥

^٢ الجرجاني، علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، دار الريان بمصر، سنة الطبعة غير مذكورة، ص: ١٦٣

^٣ الفيروزآبادي، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٩٨م، ص: ٤١٢

^٤ الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٣م، ج: ١٢، ص: ١١٦، ١١٧

^٥ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج: ١، ص: ١١٤٧

^٦ أنيس، إبراهيم وغيره، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص: ٤٦٧

وورد في المنجد في اللغة: "السيرة ج سير: الهيئة. والسُّنة. والطريقة والمذهب. سيرة الرجل: صحيفة أعماله. وكيفية سلوكه بين الناس. يقال "هو حسن السيرة" أي حسن السلوك بين الناس، ومنه قولهم "من طابت سيرته حُمدت سيرته" أي من طابت نيّته حمد سلوكه. القصة، فيقولون مثلاً "سيرة عنتره" أي قصته (عامية)"^(١).

وورد في كتاب "الموسوعة العربية العالمية": "السيرة لغة: الطريقة والهيئة. وسار فلان سيرة حسنة: إذا سلك في حياته مسلكاً حسناً. وسير سيرة: حدّث أحاديث الأوائل"^(٢).

ويتبين مما مضى من التعاريف أن كلمة "السيرة" تدل لغويا على الطريقة والهيئة والسنة والمذهب، كما تدل على الميرة حسب أقوال أصحاب المعاجم الشهيرة. وجاءت هذه الكلمة في القرآن للدلالة على الهيئة أو الحالة.

السيرة اصطلاحاً

أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فهو دراسة يَصُور فيها صاحبها حياته أو حياة شخص معروف، تحتوي على أحداث ووقائع حياة الشخص المترجم له وإسهاماته وإنجازاته. وقد عرّفها كثير من العلماء والأدباء وأصحاب المعاجم، منها على سبيل المثال:

قال الكاتب اللبناني الدكتور جبور عبد النور: "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها وأدّت إلى ذيوع شهرته وأهّلته لأن يكون موضوع دراسة"^(٣).

^١ معلوف، لويس، المنجد في اللغة، دار المشرق ببيروت، الطبعة الثانية والأربعون، ٢٠٠٧م، ص: ٣٦٨

^٢ مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ج: ١٣، ص:

٣٨١

^٣ عبد النور، جبّور، المعجم الأدبي، دار العلم ببيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص: ١٤٣

ثم أورد جبّور عبد النور قول أنيس المقدسي، وهو: "فن السيرة هو نوع من الأدب يجمع بين التحريّ التاريخي والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"^(١).

وقال الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر في معجم اللغة العربية المعاصرة: "سيرة... تاريخ حياة الإنسان، ... السيرة النبوية: تاريخ حياة الرسول ﷺ، وغزواته وغير ذلك. حَسَن السيرة: الشريف. كتب السيرة: هي كتب دُوّنت فيها السيرة النبوية"^(٢).

وقد ورد في الموسوعة العربية العالمية: "... أما في الاصطلاح، فالسيرة نوع أدبي يعرف بحياة علم أو مجموعة من الأعلام"^(٣).

وورد في "المعجم الوسيط": "...والسيرة النبوية وكتب السّير: مأخوذة من السّيرة بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك. ويقال: قرأت سيرة فلان: تاريخ حياته. (ج) سِيرٌ"^(٤).

وقال الدكتور عبد العزيز شرف في "أدب السيرة الذاتية": "هي ذلك النوع الأدبي الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما"^(٥).

وقال عبد المنعم الحنفي في "المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة" كما اقتبسه خالد الخشرمي في كتاب "الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية": "تاريخ الحياة يعرضه كاتب السيرة"^(٦).

^١ المقدسي، أنيس، اقتبسه جبّور عبد النور، المعجم الأدبي، درا العلم ببيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص: ١٤٣

^٢ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج: ١، ص: ١١٤٧، ١١٤٨

^٣ مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ج: ١٣، ص:

٣٨١

^٤ أنيس، إبراهيم وغيره، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص: ٤٦٧

^٥ شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢م، ص: ٢

^٦ الحنفي، عبد المنعم، اقتبسه خالد الخشرمي، الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية، نادي مكة الثقافي بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص:

وقال عبد اللطيف السيد الحديدي في كتاب "فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي" كما اقتبس الدكتور طلال أحمد العوض الحسن في مقالة "السير والتراجم عند ابن خلدون": "... بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحات مراحل حياة السيرة أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها وأدت إلى ذيوع شهرته، وأهّلته لأن يكون موضوع الدراسة..."^(١).

وقال الدكتور عبد المجيد البغدادي في مقال "فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي" المنشورة في مجلة القسم العربي لجامعة بنجاب في لاهور بباكستان: "هي: بحث يقدم فيها [كذا] الكاتب حياته أو حياة أحد الأعلام المشهورين، ويبرز فيها المنجزات التي تحققت في حياته أو حياة المتحدث عنه"^(٢).

وقال داود غطاشة مصطفى محمد الفار في كتابه "دراسات أدبية نقدية في الفنون النثرية" كما اقتبسته قمني هند في مذكرتها المكملة لنيل شهادة الماجستير بعنوان "قراءة نقدية في فن السيرة - كتاب "فن السيرة" لإحسان عباس أنموذجا-": "السيرة هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصرها، ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية، والتي يهتم الآخريين الإطلاع عليها"^(٣).

إذاً، السيرة بالمعنى الاصطلاحي كما عرفها الأدباء والعلماء وأصحاب المعاجم هي دراسة يصور فيها الكاتب أحداث حياته أو أحداث حياة غيره من الأعلام المتميزين، حيث تتضمن إنجازاته الملحوظة وإسهاماته الهامة، ويذكر فيها الكاتب أسباب شهرته،

^١ <http://www.m-a-arabia.com/site/18454.html>

^٢ البغدادي، د. عبد المجيد، مقالة "فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي"، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦م، ص: ١٩١

^٣ الفاز، داود غطاشة مصطفى محمد، اقتبسته قمني هند في "قراءة نقدية في فن السيرة - كتاب "فن السيرة" لإحسان عباس أنموذجا- مذكورة مكملة لنيل شهادة الماجستير مسار: نقد أدبي حديث ومناهجه، قسم الأدب العربي واللغات الأجنبية بكلية الأدب العربي بالجزائر، العام الدراسي: ٢٠١٥- ٢٠١٦م.

ومميزات شخصيته، وقصة طفولته ودراسته، ويقدم فيها تفاصيل أسرته، وبيان بيئته.

وكتب السيرة هي كتب ترسم حياة شخص ما. منها كتب ألفت في أسلوب علمي ينقل مجرد العلم إلى القارئ، ومنها كتب ألفت في أسلوب قصصي يجذب عاطفة القراء ويأسرها. وكتب السيرة النبوية هي الكتب التي ألفت في تصوير حياة النبي الخاتم ﷺ وتوضيح مراحلها المختلفة، مثل كتاب "السيرة النبوية" لابن هشام وغيره من الكتب القديمة، وكتاب "السيرة النبوية" لأبي الحسن علي الحسن الندوي وغيره من الكتب الحديثة.

السيرة والترجمة

وفي الحقيقة كلمة "الترجمة" آرامية الأصل، ثم دخلت إلى اللغة العربية على القول الراجح، وممن صرح بهذه الحقيقة الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم حيث قال: "أما كلمة "الترجمة" فهي كلمة دخلت إلى العربية عن اللغة الآرامية. ولم يكن الاصطلاح قد جرى على استعمالها، فيما يبدو إلا في أوائل القرن السابع الهجري، حين استخدمها "ياقوت" في معجمه بمعنى "حياة الشخص"، ويرجع هذا الظن، أن "أبا الفرج" في "كتاب الأغاني" لم يستعمل لفظة "ترجمة" عند كلامه على حيوات الشعراء وغيرهم، وكان يسبق كلامه بمثل قوله: "خبر أبي قطيفة ونسبه" أو "أخبار بشار بن برد ونسبه"^(١).

^١ عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٩٧٥م، ص: ٣١

ومما اشتهر أن "ترجم الكلام" يدل على معنى "أبانه" و"بيّنه"، كما يدل على معنى "نقله من لغة إلى لغة أخرى" أيضا.

وقد أطلق كثير من الكتاب والأدباء كلمة "الترجمة" على معنى كلمة "السيرة"، حيث تظهران مترادفتين في النظرة السريعة، إلا أن هناك فرقا يسيرا بينهما، إذ تطلق "السيرة" على التاريخ المطول لحياة شخص، كما تطلق "الترجمة" على التاريخ الموجز لحياة شخص. واستعملت هاتان الكلمتان في بعض المعاجم بمعنى واحد، منها:

قال صاحب كتاب "المعجم الأدبي" خلال بيان المعاني المختلفة لكلمة "الترجمة": "ترجمة: ... سيرة (راجع المادة)"^(١). أي طلب المصنف من القارئ هنا أن يراجع مادة "السيرة" لفهم معانيها الزائدة.

وقال الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر: "... ترجم لفلان: ذكر سيرته وتاريخ حياته"^(٢).

وورد في "المعجم الوسيط" (الترجمة): ترجمة فلان: سيرته وحياته، (ج) تراجم"^(٣).

وورد في "المنجد": "ترجم الرجل: ذكر سيرته، الترجمة ج تراجم: ذكر سيرة شخص وأخلاقه ونسبه"^(٤).

هناك بعض الكتاب والأدباء من أصحاب السير والتراجم الذين بينوا الفرق بين هذين المصطلحين، ترجع خلاصة قولهم إلى ما رآه أصحاب المعاجم والقواميس، وهو كلمة "السيرة" تعني التواريخ المطولة لحياة رجل، وكلمة "الترجمة" تعني التواريخ المختصرة لحياة رجل.

^١ عبد النور، جيتور، المعجم الأدبي، دار العلم بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص: ٦٤

^٢ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج: ١، ص: ٢٨٨

^٣ أنيس، إبراهيم وغيره، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص: ٨٣

^٤ معلوف، لويس، المنجد في اللغة، دار المشرق بيروت، الطبعة الثانية والأربعون، ٢٠٠٧م، ص: ٦٠

ومن جملة هؤلاء الأدباء والكتّاب محمد عبد الغني حسن الذي قال في مقدمة كتابه "التراجم والسير": "ولم يغفل الأدب العربي كتابة "السير" وهي بعينها "التراجم" مطولة "مستقلة"، كما في "سيرة الرسول" لابن هشام برواية ابن إسحاق، وكما في سيرة "عمر بن عبد العزيز" لابن الجوزي، وكما في "سيرة ابن طولون" للبلوي، وكما في سيرة "صلاح الدين الأيوبي" لابن شداد. إلا أن السير لم تبلغ في الأدب العربي ما بلغته التراجم كثرة وتنوعاً"^(١).

وقال أيضاً في ذلك الكتاب مبينا الفرق بينهما: "ما الفرق بين الترجمة والسيرة؟ ليس في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد. إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا. فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة"^(٢).

ومنهم خالد الخشرمي الذي أجاد التفريق بينهما إذ قال في كتابه "الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية" معتمداً على كتاب "السيرة تاريخ وفن" لماهر حسن فهمي: "أما لفظة "ترجمة" فالمعاجم القديمة تغفل استعمالها للدلالة على تاريخ الحياة، ولكن المعاجم المعاصرة تستخدمها بهذا المعنى. ولعل الاستعمال وحده، هو الذي فرق بين الكلمتين في المدلول، وتحديدًا حجم المدون، فأصبحت لفظة "سيرة" تطلق على تواريخ الحياة المسهبة، وخصصت لفظة "ترجمة" للتواريخ الموجزة"^(٣).

ومنهم الدكتور طلال أحمد العوض الحسن الذي قال في مقال "السير والتراجم عند ابن خلدون": "أغلب المنظرين لهذا النوع من الأدب لا يرون فرقاً في طبيعة اللغة

^١ حسن، محمد عبد الغني، مقدمة كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير

مذكورة، ص: ٦

^٢ نفس المرجع، ص: ٢٧

^٣ الخشرمي، خالد، الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية، نادي مكة الثقافي بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م، ص: ٤١

والأساليب، إنما يرجعون ذلك للاصطلاح والحجم، فهم يصطلحون على مصطلح (ترجمة) إذا لم يطلُ نَفْسُ الكاتب فيها، وإذا طال النَّفْسُ؛ سميت (سيرة)^(١).

وقال أيضا مبينا هذا الفرق في نفس المقال: "ومن هنا نخلص إلى أن الفرق لا يتعلق بالناحية الفنية، أكثر من كونه يتعلق بالناحية الكمية؛ فطول السّير يستدعي استقلاليتها؛ إذ يصبح لزاما على الكاتب - لكثرة المادة - الاهتمام بدقائق الأمور، والتفصيل في حياة المترجم له، أو أن يخص الشخصية التي يكتب عنها بمؤلف مستقل؛ لأنه في السيرة يتعمق في إبراز تفاعل الشخصية مع بيئتها؛ بينما في الترجمة لا يفعل، إذ يسرد حياة الشخصية ومواقفها وأهم إنجازاتها"^(٢).

وبالجمله كلمة "السيرة" تطلق على التاريخ المطول لحياة شخص، و"الترجمة" تطلق على التاريخ المختصر لحياة شخص، ولكن في هذا العصر الحديث يستعملهما بعض الكتاب مترادفتين، كما قاله الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم: "وعلى مر العصور، نرى كلمة "ترجمة" يجري الاصطلاح على استعمالها لتدل على "تاريخ الحياة الموجز للفرد" وكلمة "سيرة" يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة. وإذا كان السابقون - على ما نرى - يفرقون في الاستعمال بين اللفظتين، فإن الاصطلاح الحديث لا يفرق بينهما كثيرا، بل يستخدم إحداهما مرادفة للأخرى، ومن ثم جاء الاصطلاح المعاصر "الترجمة أو السيرة الذاتية"^(٣).

التاريخ والسيرة

العلاقة بين التاريخ والسيرة وثيقة، حيث تولدت السيرة من التاريخ، وهو الذي رباها وأنشأها. مع وجود فروق كثيرة بينهما تأخذ السيرة موضوعاتها من كتب التاريخ، حيث

^١ <http://www.m-a-arabia.com/site/18454.html>

^٢ نفس المرجع

^٣ عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٩٧٥م، ص: ٣١

تكون مراجع ومصادر لكتاب السير والتراجم. وقال الدكتور إحسان عباس عن هذه العلاقة المتينة بينهما: "غير أن الخلاف بين العلماء في تمثيل الإحساس بالتاريخ عند أمة وأخرى، لن يطمس حقيقة هامة، وهي أن ذلك الحس التاريخي هو الأب المنجب للسير يوم كانت السير جزءا من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانبا هاما من تصور الناس للتاريخ، وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يكيف الأحداث ويرسم الخطط، ويقوم بالتفكير والتنفيذ، وتتضاءل إلى جانبه - أعني جانب الفرد العظيم - كل حقيقة أرضية أخرى"^(١). وقال أيضا: "ففي إحضان التاريخ - إذن - نشأت السيرة وترعرت [كذا]، واتخذت سمنا واضحا، وتأثرت بمفاهيم الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفاهيم، فكانت تسجيلا للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والأشوريين، وكانت تفسيرا لبعض المبادئ السياسية عند فلوطارخس Plutarch في كتابه عن عظماء اليونان والرومان، ربما نجح فلوطارخس في السيرة نجاحا أوفى لو أنه قلل الالتفات إلى تصوير حقبة كاملة وزاد من اهتمامه بحركات الأشخاص أنفسهم"^(٢).

وقالت مباركة بكيري وعائشة بوترة في مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير بعنوان "السيرة الغيرية في رواية "العلامة" ل"بنسالم حميش": "وعليه إن للسيرة الغيرية صلة وعلاقة وطيدة بالتاريخ وهي جزء منه، فهي ألصق بالتاريخ لأن موادها مستمدة من الوثائق التاريخية"^(٣).

وقال حسين فوزي النجار مبينا الفرق بين التاريخ والسيرة: "فإذا كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء وغموضها في أي جانب من جوانب الحياة

^١ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص: ١٠

^٢ نفس المرجع، ص: ١٠، ١١

^٣ بكيري، مباركة وبوترة، عائشة، السيرة الغيرية في رواية "العلامة" ل"بنسالم حميش"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد بوضياف - المسيلة بالجزائر، ٢٠١٧-٢٠١٨م، ص: ٢٥

الإنسانية، فإن السيرة هي البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه في جيله"^(١).

وتشتد هذه العلاقة عندما تُصوّر شخصيّة مع تصوير البيئة والمجتمع، ولكن عندما تصور الشخصية دون تصويرهما تنقص هذه العلاقة. مثلا: إذا قام كاتب بتأليف كتاب يعالج سيرة الرسول ﷺ وصور فيه شخصيته ﷺ العظيمة بدون إطالة كلام عن أحوال مجتمعه وبيئات قومه نقصت العلاقة بينها وبين التاريخ، أما إذا عُرضت شخصيته ﷺ مع بيان مجتمعه وتفصيل قومه وذكر خصوصيات عصره فكانت العلاقة بينهما شديدة متينة، لأن السيرة فن يعرض حياة شخص من الولادة إلى الموت وما بينهما من الأحداث والإنجازات وغيرها، أما التاريخ فهو فن يعالج الأحداث التي وقعت في عصر محدد من العصور ويحتوي على حياة الشخص المترجم له وأحداث عصره وأحوال بيئته ومجتمعه.

وقال الدكتور إحسان عباس في هذا الصدد: "كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة - في هذا الوضع - تحقق غاية تاريخية، وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة"^(٢).

وهناك بعض الأدباء والكتاب الذين يرون أن السيرة ليست جزءا من التاريخ، ومنهم الأستاذ كولنجوود، كما قال الدكتور إحسان عباس عن هذا: "أخذ بعض الباحثين

^١ النجار، د. حسين فوزي، التاريخ والسير، دار القلم بالقاهرة، ١٩٦٤م، ص: ١٤

^٢ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص: ١٢

المحدثين يتساءل: أحقا أن السيرة جزء من التاريخ؟ وقد أنكر الأستاذ كولنجوود Collingwood اعتبار السيرة كذلك، لأنها تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها، فحدود السيرة هي الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته، من طفولة ونضج وأمراض وغيرها، فهي صورة للوجود الحيواني الجسماني، وقد يرتبط بها كثير من العواطف الإنسانية، ولكن هذا كله ليس تاريخاً"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ١١

الفصل الثاني

نشأة فن السيرة وتطوره في الأدب العربي

نشأة هذا الفن

اعتمادا على أرجح أقوال المؤرخين والعلماء يرجع تاريخ نشأة السيرة إلى تاريخ نشأة الكتابة، لأن المجتمع الإنساني الذي اتخذ الكتابة وسيلةً للتعبير بدأت الكتابة في السيرة، ونشأت مع نشأة كتابة التاريخ. ومن الأمم القديمة المعروفة في هذا الميدان اليونان، حيث وُجد لديهم بعض أبرز المؤرخين الذين تقدموا إلى هذا النوع من المساهمات، إذ سجلوا أحداث حياة مشاهيرهم، ونقشوا تراجم أكابرهم، وقال محمد عبد الغني حسن: "... فلقد كان عند الإغريق مؤرخون من طراز يذكره التاريخ بالفخر، كما كان عندهم كتاب تراجم لا يدعون حيوات العظماء تمر من غير تسجيل لها، أو تصويرها لأغراض ودوافع من السياسة أو الخلق أو القدوة التي يسعى لها المثاليون. فما كتب بلوتارك كتابه في "سير عظماء اليونان والرومان" إلا ليكون أمثلة واقعية للحياة التي يجب أن يكون عليها رجل السياسة ورجل الدولة، كما وضع أرسطو كتابه "الأخلاق" ليكون تمهيدا لا بد منه لكتابه المشهور في "السياسة". وما كتب السويتنيوس كتابه في "حياة الاثنى عشر إمبراطورا رومانيا" إلا ليكون نموذجا لحياة هؤلاء الأباطرة السابقين في تاريخ الرومان"^(١).

^١ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ١٠.

ورأى الدكتور شوقي ضيف أن الشكل الأقدم للسير هو ما كان يفعله بعض الناس من القدماء من الكتابة على قبور معاصريهم حتى يقوموا بتعريفهم ونقش تراجمهم، وكان من عادة أكثر الناس في عصر الفراعنة في مصر كتابة أخبارهم على قبورهم، ونقش أحداثهم على أهرامهم، وقال في كتابه "الترجمة الشخصية": "لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم، واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم. وقد سجل يوليوس قيصر في كتابه "التعليقات" حروبه في الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبي. وعرض عرضا بارعا الدسائس والمؤامرات التي كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء"^(١).

ويرى الدكتور أحمد درويش أن أقدم الصورة للسير ما قام المصريون بتدوين أخبار الأمراء وبيانات العلماء على جدران الأهرام وأحجار الهياكل وغيرها كما رآه الدكتور شوقي ضيف، وقال في مقدمة الترجمة العربية لكتاب "فن التراجم والسير الذاتية" ل"أندريه موروا": "لعل من أقدمها ما دونه قدماء المصريين على أحجار المعابد والمقابر والأهرامات من تراجم لعظماء الحكام والقواد، وكذلك فعل الأشوريون والبابليون في التاريخ القديم. فكانت بصمة الإنسان على الحجر، في ذلك الوقت المبكر، محاولة للتعلق بإحدى صفحات الخلود أمام القسوة البالغة التي كان يراها لأصابع الفناء وهي تمحو كل شيء أمامها، كما كانت، كذلك محاولة لتأطير الوجود المحدد للإنسان أمام

^١ ضيف، د. شوقي، الترجمة الشخصية (سلسلة فنون الأدب العربي، الفن القصصي ٣) دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٥٦م، ص: ٧

الأزلية المطلقة للوجود الذي تراءى له، بحرا واسعا مترامي الأطراف إن كانت هنالك أطراف"^(١).

وقد توسعت دائرة هذا الفن توسعا عجيبا وفق توسع الزمان. وكان في الفرس ملوك يوصون أبناءهم بنصائح ثمينة متعلقة بملكهم ومواقفهم من شتى البيئات وكتب كسرى أنوشوان كتابا في ترجمته وبيان مواقفه وسياسته.

السيرة عند الغرب

يستحسن الباحث أن يتحدث قليلا عن توجه الغرب إلى هذا الفن، فإنه كان عندهم ضعيفا مضمحلا قبل النهضة الأوروبية، ولم يعرفوه إلا شيئا يذكر محاسن الناس ومساوئهم، وكان آلة لرؤساء الدين لبيان عجائب قديسهم وبثّ التعليمات الدينية بين الناس كما بينه الدكتور إحسان عباس^(٢). فكانت عنايتهم الوحيدة هي عناية سرد المحاسن والمساوى، ولم يهتموا بسرد أحداث حياة الشخص وعرض أعماله وإنجازاته.

ولعل أقدم سيرة ذاتية (نوع هام من أنواع السير) عندهم "اعترافات القديس أوغسطن" الذي عاش في فترة ما بين ٣٥٤ - ٤٣٠ م كما ذكره الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم^(٣). وقال هو نفسه عن اهتمامهم بكتابة السيرة الذاتية: "ثم كثرت الأعمال التي تدخل في نطاق الترجمة الذاتية، واتخذت أشكالا مختلفة منها "اليوميات" وبدأ الاهتمام بكتابتها في أوائل القرن السابع عشر، وكان أصحابها يحرصون على عدم نشرها. وإلى السير"وليم دوجديل" Dogdall يعزي ظهور اليومية الحقة في الأدب

^١ درويش، د. أحمد، مقدمة الترجمة العربية لكتاب "فن التراجم والسير الذاتية" لأندريه موروا، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ١٩٩٩ م، ص: ٥

^٢ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م، ص: ٣٦

^٣ عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٩٧٥ م، ص: ١٣

الإنجليزي، وقد سجل فيها خمسة وأربعين عاما من حياته التي انتهت في سن الثانية والثمانين (١٦٠٥-١٦٨٦م) ولم تنشر يومياته إلا بعد وفاته^(١).

وقال أيضا معتمدا على "موسوعة بريتانكا": "وتتابعت الترجمات الذاتية الإنجليزية بعد نشرها، وكانت كلها في شكل يوميات، "كيوميات بلستروود" (Belstrode ١٦٠٥-١٦٧٥م) ومفكرة "جورج فوكس" (Fox ١٦٢٤-١٦٩١م) التي نشرت بعد وفاته بثلاثة أعوام، ويوميات "جون إيفلين" (١٦٢٠-١٧٠٦م) ويوميات صمويل بيبس (١٦٣٣-١٧٠٦م) التي لم تنشر إلا بعد وفاتهما، والأول سجل زمنا يستغرق سبعين عاما، وكان من الممكن أن تحتل المقام الأول في الأدب الإنجليزي، لولا ظهور يوميات بيبس^(٢).

ومن أشهر الأعمال في السيرة الذاتية في الغرب على سبيل المثال لا الحصر كما ذكره الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم:

"يوميات جوناثان سويفت"، و"ذكريات كارليت" (Carlyte ١٨٨١م)، و"ذكريات وليم ميشيل رزوتي"، و"مذكرات بيتر هنري بروس"، و"مذكرات الفيكونت وولزي" (١٩٠٣م)، و"مذكرات جلوفر" (Glover ١٨١٤م)، و"مغامرات روبرت دروري" (١٧٢٩م)، و"مذكرات جيمس فير جسون"، و"مذكرات هيوم"، و"مذكرات هوج"، و"مذكرات سيروولترسكوت"، و"مذكرات هاكسلي"، و"مذكرات داروين" وغيرها^(٣). ويجدر الذكر بأن الترجمة الذاتية ازدهرت في القرن التاسع عشر وبعده ازدهارا عجيبا حتى يصعب ذكر الأعمال المصنفة في هذا العصر.

وكانت في الأدب الفرنسي والأدب الألماني أيضا ازدهار مدهش في هذا الميدان، وقد اشتهرت في فرنسا "اعترافات روسو"، و"يوميات إيمل"، و"يوميات موريس دي جيران"

^١ نفس المرجع، ص: ١٥

^٢ نفس المرجع، ص: ١٥، ١٦

^٣ نفس المرجع، ص: ١٧

وغيرها، كما اشتهر في ألمانيا "يوميات كير كجارد"، و"رسائل هيجل"، و"رسائل جوته" وغيرها، كما ذكرته مباركة بكيري وعائشة بوترة^(١).

وبالجملة لم يتكون هذا النوع من الفن لدى الغربيين إلا في القرون القليلة وبعد أن انتشرت كتب عديدة في هذا المجال في اللغة العربية، قال محمد عبد الغني حسن: "فقد ظلت إنجلترا مثلا - على رسوخ قدمها في فن التراجم - معطلة في هذا الباب عشرات من القرون، إلى أن ظهر صمويل بيبيس ١٦٣٣ - ١٧٠٣ م، فكتب يومياته ومذكراته التي يعدونها أول خطوة في كتابة التراجم الذاتية وما تلاها من أنواع التراجم. وظلت فرنسا كذلك إلى أن ظهر في القرن السابع عشر أيضا المؤرخ ريتز فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢"^(٢).

اهتمام المسلمين بهذا الفن ونشأته في الأدب العربي

اهتم المسلمون بالسيرة والكتابة فيها أيّ اهتمام، وكانت نشأتها عندهم بكتابة سيرة النبي الخاتم محمد ﷺ وترجمته، لأهمية الاقتداء بقدوته والاستنان بسنته، وقد قدّم القرآن الكريم إلى البشرية قصص كثيرٍ من الأمم السالفة للاعتبار والاتعاظ بها. ومن المعلوم أن القرآن يقص هذه القصص في أسلوبه الخاص وهي تتناثر وتنبث في مختلف آياته وشتى سورته، لأنه ليس بكتاب سيرة، بل كتاب الهداية لبني الإنسان المنزل من رب العالمين.

^١ بكيري، مباركة وبوترة، عائشة، السيرة الغيرية في رواية "العلامة" ل"بنسالم حميش"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد بوضياف - المسيلة بالجزائر، ٢٠١٧- ٢٠١٨ م، ص: ٩.

^٢ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ١١.

وقال حازم فارس علي أبو شارب في رسالة الماجستير عن تأثير القرآن في وجود "السيرة":
"وتعد سيرة الرسول ﷺ البداية الحقيقية الأولى لفن السيرة عند العرب والمسلمين،
وجاء الاهتمام بسيرة النبي ﷺ بتأثير من القرآن الكريم، فالقرآن الكريم أوجب على
المسلمين دراسة سيرة الرسول ﷺ واتباع سيرته"^(١).

واستمدت السيرة أهميتها لدى المسلمين من المكانة العظيمة لسنة الرسول ﷺ النقية،
إذ تشتمل السيرة النبوية في شكل كبير على السنة النبوية، التي هي والقرآن هما
المصدران الأساسيان في الشريعة الإسلامية. وقال محمد عبد الغني حسن: "تعد
السيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية، وأقدمها ظهوراً، وأولها وأولها باهتمام
المؤرخين والكتاب، فقد كانت المحور الذي تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه
وتطوره وانتشاره بالغزوات والفتوح"^(٢).

وقال الدكتور عبد العزيز شرف: "وربما كان أقدم استعمال لكلمة "السيرة" على يد
محمد بن إسحق في كتابه عن حياة الرسول ﷺ، ولذلك تعد السيرة النبوية أوسع ما
في التراجم الإسلامية، وأقدمها ظهوراً، وأولها باهتمام المؤرخين والكتاب"^(٣).

علاوة على ذلك كان الناس في العصر الجاهلي اعتادوا رواية أخبار الحروب والغزوات،
ثم استمرت هذه العادة في الإسلام في صورتها الإيجابية النافعة المنتجة، كما قاله
الدكتور إحسان عباس: "إن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ، وهي
نظرة قائمة على "الأيام" وطبيعة الحرب وشؤون القتال، ولذلك اهتم كُتاب السير قبل
كل شيء بمغازي الرسول ﷺ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار

^١ أبو شارب، حازم فارس علي، فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار أنموذجاً، رسالة متطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، بعمان، ٢٠١١م، ص: ٥٦

^٢ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ١٨

^٣ شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢م، ص: ٤٨

المسلمين في النهاية، ولم يكن محض تقليد لنظرة الجاهليين، بل كان في مستلزمات الجماعة الإسلامية ما يؤيده ويدعو إليه، ذلك لأن الفتوحات الإسلامية التي انبثقت عن انتصار الإسلام في الجزيرة، كانت في حاجة إلى سند من سنة الرسول ﷺ في هذا المجال؛ كيف يعامل الأسرى والنساء والأطفال ويقسم الفياء، وهل يروى عن الرسول ﷺ ما يوضح فنون الحصار، وهل تبيح الأعمال الحربية قطع الشجر وتخريب الزروع وقطع المؤمن ليلجأ العدو إلى التسليم، وماذا فعل الرسول بالإقطاعات، وعلى أي شيء من الأحكام تحتوي كتبه التي كتبها لوفود العرب جماعات وأفراداً؟^(١).

وإن اتباع الرسول ﷺ يجب على المسلمين لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"^(٢)، و"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ"^(٣)، و"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"^(٤) وغيرها من الآيات الدالة على وجوب اتباعه ﷺ.

فالسيرة النبوية النقية لا تقوم مقام مخبر بالأحداث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ فقط، ولكنها تقوم مع ذلك مقام موضحٍ للشرائع الإسلامية ومبينٍ للآيات القرآنية. وقد صرح علماء كثيرون بأهمية السيرة النبوية بالنسبة إلى المسلمين وسلوكهم، منهم ابن قيم الجوزية الذي قال: "وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في

^١ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م، ص: ١٤

^٢ سورة النساء: ٥٩

^٣ سورة محمد: ٣٣

^٤ سورة الأحزاب: ٢١

هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم"^(١).

ومنهم الدكتور مصطفى السباعي الذي قال: "وقصارى القول: إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، ..." ^(٢).

ومنهم أبو الحسن علي الندوي الذي قال: "والسيرة النبوية المحمدية تتميز من بين سير أفراد البشر - وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء - بدقتها وشمولها، واستيعابها لدقائق الحياة وتفصيلها وملاحمها وقسمتها، وذلك بفضل علم الحديث الذي لا يوجد له نظير، لا في تاريخ الأنبياء ولا في تاريخ العظماء، وكتب السير والشمائل، وما جمع وحفظ من الأدعية والأذكار النبوية، ومناجاته ﷺ لربه آناء الليل والنهار وما حفظ ونقل من جوامع الكلم، وما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب، صفة أكثر منها دقة، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخلقية"^(٣).

وقال طه سليمان عامر: "لن نفهم القرآن الكريم على نحو دقيق حتى ندرس السيرة النبوية، ولن نستوعب أحداث السيرة إلا في ظلال القرآن، ولن نحسن فهم كثير من الأحاديث النبوية حتى نرجع للقرآن والسيرة معاً. إن حاجة المسلمين حول العالم الآن لدراسة سيرة رسول الله ﷺ كبيرة، لأنها المنطلق الواسع للتغيير والإصلاح، والتربية والدعوة، والعلم والعمل، وبينما تُستهدَف الأمة في دينها وعقيدتها وجب علينا أن نهرع إلى السيرة العطرة لنقف على معالم البناء الإيماني والأخلاقي، وإذا كانت محاولات سلخ

^١ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، ص: ٢٢

^٢ السباعي، د. مصطفى، السيرة النبوية دورس وعبر، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٨٥، ص: ١٩

^٣ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م، ص: ١٦

الشباب المسلم عن هويتهم وهدم الرموز في عقولهم قلوبهم لا تهدأ حتى تستأنف دورها، فعلينا العودة للسيرة لنربي عليها الأجيال على خير مثال وخير قدوة، ونُعمِّق ولائهم لأعظم جيل أخرجهُ الله للكون"^(١).

ومما سبق لا يخفى على أحد سبب اهتمام المسلمين بالسيرة النبوية، وقال الدكتور إحسان عباس عن بداية هذا الفن لدى المسلمين: "وإذن فلا غرابة إذا رأينا "السيرة" على يد موسى بن عقبة وابن شهاب الزهري وغيرهما ثم على يد ابن إسحاق وريث كتاب المغازي الأولين تسجيلًا دقيقًا للمعارك الحربية وما دار فيها من فنون"^(٢).

ومما يجدر بالذكر هنا أنه يجب على طالب الحق الاعتمادُ على الروايات الصحيحة والتجافي عن الروايات الضعيفة والموضوعة عند الرجوع إلى الكتب المؤلفة في السيرة النبوية، ليكون سليماً من الميل إلى الأكاذيب والأباطيل، وأن لا يبني عقائده وأعماله على أسس ضعيفة وأصول واهية.

وقد توسعت دائرة كتابة السيرة والترجمة بشكل غير عادي، ولم تتوقف على مجرد سيرة الرسول ﷺ فقط، ولكنها امتدت إلى رسم تاريخ حياة جمع من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من الخلفاء والأمراء والأئمة والعلماء.

وبالجملة اعتنى المسلمون بهذا الفن أجلّ اعتناء، ودخلوه من عدة طرق، وساهموا في أنواعه المختلفة، فتولدت من يراعهم كتب كثيرة في طبقات أئمتهم وأعلامهم وعلمائهم، وكتبوا في تواريخ بعض البلدان المشهورة التي توضح حضارتها ونموها وغزواتها وأحداثها وسير أعلامها وعلمائها، مثل كتاب "تاريخ بغداد" لأحمد بن علي بن ثابت المشتهر باسم "الخطيب البغدادي" (٣٩٢- ٤٦٢هـ) وكتاب "تاريخ دمشق" لأبي القاسم علي بن

^١ مقالة السيرة النبوية ضرورة العصر | الجزيرة نت bit.ly/3ky2cCk

^٢ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص: ١٤

الحسن هبة الله بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١هـ) الذي عالج فيه تاريخ مدينة دمشق، وعرض أشهر العلماء والشخصيات المرموقة فيها، وشمل فيه سيرة كثيرٍ من الشخصيات البارزة التي ولدت فيها أو جاءت إليها منذ طلوع الإسلام إلى قبيل وفاته. ففي الحقيقة وُجد فن السيرة في الأدب العربي مع وجوده عند المسلمين.

تطور السيرة في الأدب العربي

ويتبين مما مضى أن كتابة السيرة ابتدأت في الأدب العربي بكتابة السيرة النبوية، اكتسب هذا الفنُ اهتمامه من اهتمام كتابة الأحاديث النبوية، وكانت حياة النبي ﷺ تكتب وتدون وتسجل في أول الأمر في كتب الأحاديث كبابٍ مفرد ومختص بها، مثل باب "المغازي" و"باب الجهاد والسير". ثم تطور هذا الفن حتى صار مجالاً مستقلاً، وألفت كتب كثيرة مفردة وخاصة بسيرة خاتم النبيين ﷺ.

وممن اشتهر في هذا المجال كما قال محمد عبد الغني حسن في كتاب "السير والتراجم": "فنرى من مؤرخي السيرة في المدينة أبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥هـ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢هـ، وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣هـ، وعبد الله بن حزم المتوفى سنة ١٣٥هـ، وعاصم بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠هـ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٢هـ، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ، ونرى من مؤرخي السيرة المكيين ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، كما نرى من البصريين معمر بن راشد، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات، وابن هشام صاحب كتاب "السيرة النبوية" المتوفى سنة ٢١٨هـ. ومن الكوفيين زيادا البكائي المتوفى سنة

١٨٣هـ. كما نرى اليمن ممثلة في كتابة السيرة النبوية وجمعها على يد وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ^(١).

والذي أدى الجيل اللاحق إلى الكتابة في التاريخ الإسلامي هو ما قاموا به من تدوين الأحاديث وكتابة أخبار الحروب والفتوحات والحوادث التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

اضطر المسلمون إلى نقد رجال الحديث وجرحهم وتعديلهم للقيام بتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، فتوسعت دائرة هذا المجال حتى وضعت كتب كثيرة تناقش هؤلاء الرجال وأحوالهم ومواقفهم ونظرياتهم وما كانوا يتحلون به من الفضائل وما كانوا يتخلون عنه من الرذائل، فوجدت تراجم وسير كثير من الشخصيات وإن كان مقصدها الخدمة الجليلة في سبيل حفظ الأحاديث النبوية من الاختلاط بالأكاذيب.

ثم وجدت مؤلفات كثيرة في سير الشخصيات البارزة في شتى الميادين، مثل التفسير والشعر والنحو وغيرها من الفنون باسم "الطبقات"، حتى وجدت طبقات الصحابة أيضا. ومن المؤلفات التي تعتبر كتباً قديمة "التاريخ الكبير" للإمام البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ)، و"كتاب الطبقات الكبير" لمحمد بن سعد البغدادي (١٦٨ - ٢٣٠هـ) المعروف بـ"طبقات ابن سعد"، و"طبقات الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي (١٤٠ - ٢٣١هـ) وغيرها من الكتب.

وبعد هذا العصر تنوعت الكتابة في هذا المجال، فكان كتاب يستجيبون لدوافع نفوسهم أو للدوافع من خارجهم، مثل الأمراء والحكام، ولكن ليست لإرضاء حاكم من

^١ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ٣١، ٣٠.

الحكام أو أمير من الأمراء كما وقع في بعض الأزمنة اللاحقة. ذكر محمد عبد الغني حسن أن الخليفة الحكم المستنصر بالله أمر أبا بكر الزبيدي (٣١٦ - ٣٧٩هـ) بتأليف كتاب في تصوير حياة العلماء النحويين والأعلام اللغويين منذ صدر الإسلام إلى عصره، فألف كتابه "طبقات النحويين واللغويين".

وكان من بين المتأخرين أيضا من ألفوا كتبهم في تراجم الأعلام وسيرهم تلبية لنداء نفوسهم، مثل ابن تغري بردي المصري (٨١٣ - ٨٧٤هـ) (المنهل الصافي)، وصلاح الدين الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) (الوافي بالوفيات)، وابن العماد الحنبلي (١٠٣٢ - ١٠٨٩هـ) (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، وابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، وياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦هـ) (معجم الأدباء) وغيرهم من المشهورين بالكتابات الملحوظة في هذا الميدان الواسع^(١).

وكان عند نشأة السيرة في اللغة العربية تطلق على سيرة النبي ﷺ فحسب، ثم على مر الزمان وكر السنين أطلقت تلك الكلمة على كل مكتوب مطوّل في رسم حياة شخصية بارزة وتاريخها، والذي أطلقها أولا على سيرة شخص غير النبي ﷺ هو أحمد بن طولون كما رآه محمد عبد الغني حسن، ثم تتابعت القرون وتقدم هذا النوع من الفنون، وكان أسلوب معظم الكتب في القرنين الثاني والثالث هو سرد الأحداث بالأسانيد كما في كتب الأحاديث. ثم على مرّ الزمان ترك أكثرهم ذكر أسانيد الروايات كوسيلة للإيجاز والاختصار.

وفي القرن الخامس أبصرت كتب كثيرة النور تعالج الفتوحات الإسلامية في البلاد المختلفة، وتسرد أخبار الفاتحين وتراجمهم. وفي القرن السادس حظي ابن الجوزي

^١ نفس المرجع، ص: ٢١

(٥١٠ - ٥٩٧هـ) بمكان عال في هذا المجال إذ ألف في السيرة "مناقب عمر بن الخطاب"، و"سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد" وغيرهما من الكتب.

وقال محمد عبد الغني حسن عن بعض الأعمال المؤلفة في القرن السابع والثامن والتاسع: "ولقد اختفت في القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأمم السالفة وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسي الدولت، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين. فنرى ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ يكتب سيرة لصالح الدين الأيوبي عنوانها "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، ونرى محمد بن أحمد النسوي المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٩هـ يكتب "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" من ملوك الدولة الخوارزمية، ونرى ابن عربشاه المتوفى سنة ٨٤٥هـ يكتب "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، وهو سيرة لتيمورلنك ملك التتار، مسجوع العبارة ككتاب "اليميني" الذي سبقت الإشارة إليه. ونرى ابن الشهيد الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤هـ يكتب "الدر الثمين في سيرة نور الدين"، ونرى القاضي الأدبي محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ يكتب سيرة السلطان خليل بن قلاوون في كتابه "الألطف الخفية، من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية" ونرى غير هؤلاء عشرات من السير أغلبها للملوك والسلطين كما سلف القول، وقليل منها في سير العلماء والصوفية مثل كتابي ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ في سيرة السيد البدوي والسيد عبد القادر الجيلاني، وكتاب السخاوي المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢هـ في ترجمة شيخه وأستاذه ابن حجر، وكتابي السيوطي في مناقب الإمام مالك والإمام أبي حنيفة"^(١).

ومن المؤلفات التي أفردت بالسيرة النبوية في هذا العصر: "الشفاء في تعريف حقوق المصطفى" لأبي الفضل عياض بن موسى المعروف ب"القاضي عياض" (٤٧٦ -

^١ نفس المرجع، ص: ٢٩

٥٤٤هـ)، و"عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لمحمد بن محمد بن محمد اليعمري، المعروف بابن سيد الناس اليعمري (٦٧١ - ٧٣٤هـ)، و"الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم" لأبي عبد الله علاء الدين مغلطاي (٦٨٩ - ٧٦٢هـ)، و"المواهب اللدنية في المنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني (٨٥١ - ٩٢٣هـ)، و"إنسان العيون في سيرة الأئمة المأمون" المعروف باسم "السيرة الحلبية" لنور الدين الحلبي (٩٧٥ - ١٠٤٤هـ) وغيرها^(١).

وهناك كثير من الكُتاب والعلماء والمؤرخين الذين عرضوا السيرة النبوية خلال سرد التاريخ العام، كما قاله محمد عبد الغني حسن: "ومن المؤرخين من جعل سيرة الرسول قسما من كتابه في التاريخ العام كما فعل الطبري المؤرخ المتوفى سنة ٣١٠هـ، وابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٥هـ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ في كتابه "الكامل"، والذهبي المؤرخ الحافظ الناقد المتوفى سنة ٧٤٨هـ في كتابه الواسع "تاريخ الإسلام"، وابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ في كتابه الضخم "البداية والنهاية"، والديار بكري المتوفى سنة ٩٨٢هـ في كتابه "الخميس في أحوال أنفس نفيس"، فهؤلاء - ممن لسنا بسبيل حصرهم - قد ترجموا للرسول عليه السلام وأرخوا للسيرة النبوية بما يكون كتبا قائمة بذاتها في السيرة. فابن كثير - مثلا - يخصص أكثر من جزءين من كتابه الضخم لسيرة الرسول"^(٢).

فمما لا يندفع فيه أحد له إمام بتاريخ هذا الفن أنه كان مزدهرا ووفيرا في الأدب العربي حين كان الأدب الغربي في مهده، بمعنى آخر، كان الكُتاب العرب أسبق شعب من الغرب في هذا المضمار.

^١ نفس المرجع، ص: ٣٣

^٢ نفس المرجع، ص: ٣٣، ٣٤

السيرة في العصر الحديث

وكانت الفترة ما بين القرن الثاني والقرن العاشر فترة الازدهار بالنسبة إلى فن السيرة، أما بعدها فأصابه ضعف وحلَّ به جماد، واستمر هذا الحال إلى بضع قرون كما ذكر في مقال "تطور فن التراجم والسير وخصائصها": "ازدهرت التراجم والسير من القرن الثاني إلى القرن العاشر الهجري. ثم عرفت مرحلة من الركود في عصر الضعف"^(١).

أما في العصر الحديث فقد توسع هذا الفن توسعا جليا، وساهم العديد من الأدباء والكتاب في هذا الفن بمساهماتهم الفذة، وإن للغربيين ونقل آدابهم إلى العربية تأثيرا غير قليل في هذا التقدم، كما ذكر في المقال المذكور آنفا: "ومع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ظهرت طائفة من الأدباء الأفذاذ حملت على عاتقها تطوير هذا الفن خاصة عندما وقع الاحتكاك مع الغرب وحدثت ثورة شاملة في شتى العلوم والفنون. فأخرجوه من دهاليز الانحطاط إلى نور الحداثة والتطور. فأصبح فنا راقيا يتجاوز وأذواق الناس ليس مجرد نقل للأخبار في غير تبويب ولا تنسيق"^(٢).

وقال محمد عبد الغني حسن عن هذا التأثير الغربي: "ولم يقف العصر الحديث وقفة الجمود في فن له في الأدب العربي أقدم مكان، فتأثر كُتاب التراجم العربية اليوم بطرائق الغربيين ومذاهبهم في التحليل، وتجلية العوامل النفسية والبيئية، ودراسة عصر المترجم له دراسة يتجلى فيها مدى الاستجابة بين الرجل وظروف زمانه، ...

وراح جماعة من الأدباء المحدثين يكتبون سير الراحلين من رجالات المسلمين على نهج جديد"^(٣).

^١ <https://ouadie.ahlamontada.com/t3255-topic>

^٢ نفس المرجع

^٣ حسن، محمد عبد الغني، مقدمة كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ٧

وظهرت السيرة والترجمة في العصر الحديث في زيتها الجديد، وتركت هيئتها القديمة، إذ كانت تنحصر في القدم على جمع المعلومات ورواية الأحداث، ولكنها صارت في العهد الجديد مع جمع المعلومات ورواية الوقائع عرضا ممتازا يجذب قلوب القراء.

هناك كثير من النماذج لهذا العرض الجذاب، منها ما قام به عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م) من الأعمال التأليفية في هذا الفن المعروفة باسم "العبقریات" التي تضم "عبقرية محمد"، و"عبقرية الصديق"، و"عبقرية عمر"، و"عبقرية عثمان"، و"عبقرية الإمام علي"، و"عبقرية خالد"، و"عبقرية المسيح" وغيرها من الكتب.

ومنها ما قام به الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م) من الأعمال مثل "حياة محمد"، و"الصديق أبو بكر"، و"الفاروق عمر" وغيرهما. ومنها ما قام به الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) من الأعمال التأليفية مثل "على هامش السيرة"، و"الفتنة الكبرى - عثمان"، و"الفتنة الكبرى - علي وبنوه" وغيرها.

ومنها كتاب "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين" لمحمد الخضري بك (١٨٧٢ - ١٩٢٧م)، و"محمد" لمحمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥م).

كل هذه المؤلفات وأمثالها من الكتب العديدة إنتاجات في فن السير والتراجم، وهي تعالج الشخصيات الإسلامية القديمة، ولكن هؤلاء الكُتّاب وضعوا هذه الكتب في أسلوب جديد، بعضها في أسلوب قصصي أو روائي أو غيرهما، لكن مع مراعاة المضامين القديمة ومحافظة المعلومات الأساسية، والاعتماد على أمهات الكتب التي ألفت في هذا المجال، والاستفادة من المراجع الأصلية.

وقد قام أدباء كثيرون بتأليف كتب عديدة تصور حياة العلماء والفقهاء والمفكرين والمصلحين والمجددين والمبدعين والشعراء والأدباء وغيرهم من الشخصيات البارزة

والأعلام الشهيرة، ويصعب ذكر كل هذه الكتب لكثرتها وتعدادها. منها على سبيل المثال المختصر:

ألف محمد أبو زهرة (١٨٩٨ - ١٩٧٤ م) كتباً عديدة في هذا الفن، منها "خاتم النبيين" في سيرة الرسول ﷺ، و"أبو حنيفة - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"مالك - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"الشافعي - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"أحمد بن حنبل - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"الإمام زيد - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"ابن تيمية - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه"، و"الإمام الصادق - حياته وعصره - آراؤه وفقهه".

وألف عبد الحلیم الجندي مؤلفات في السير مثل: "في السيرة النبوية"، و"أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام"، و"الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول"، و"الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة"، و"الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة"، والإمام علي بن أبي طالب"، و"الإمام جعفر الصادق"، و"الإمام محمد بن عبد الوهاب"، و"الإمام محمد عبده".

وألف الأستاذ أمين أنور الخولي "المجددون في الإسلام" وغيره من الكتب. ولأبي الحسن علي الندوي كتب كثيرة في هذا الفن، وسيأتي الكلام عنها مفصلاً في موضعها من هذا البحث إن شاء الله.

هذه الكتب هي قطرات قليلة من بحر المؤلفات في هذا الفن في العصر الحديث، والوقوف على كل واحد منها أمر صعب جداً كما ذكر. وهناك كتب كثيرة في السيرة الذاتية أو الترجمة النفسية، وسيتحدث الباحث عنها في موضعها من هذا الباب إن شاء الله.

وقد تم تأليف كتب السيرة في العصر الحديث على ثلاث مدارس كما وضحه الدكتور إحسان عباس، المدرسة الأولى: "مدرسة ذات طابع أكاديمي تقوم دراستها على التشریح والتحليل والتدقيق في الاستنتاج بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها". والمدرسة الثانية: "مدرسة قديمة في طابعها لا تؤمن بالدراسة النقدية قدر إيمانها بما قاله القدماء". والمدرسة الثالثة: "هي التي تنتحل السيرة الأدبية أو شكلا مقاربا لها". ومن هذا الطابع الأخير "حياة الرافي للعريان، و"العبريات" للعقاد، و"جبران" لميخائيل نعيمة، و"منصور الأندلس" لعلي أدهم^(١).

وفي نهاية مطاف هذا النقاش يمكن الوصول إلى أن بداية هذا الفن في الأدب العربي كانت بداية دينية تعرض حياة الرسول ﷺ، ثم توسعت دائرته حتى تضم سير الصحابة والملوك والخلفاء، وكانت مرحلة توسعه التالية أن تعالج الجانب الأخلاقي، ثم جاءت السيرة التاريخية، وأخيرا اكتسى هذا الفن كساء الأدب. وهذا ما قالته دنيا بن عيسى ونفيسة طرباق في مذكرة الماجستير: "نستنتج أن الظهور الأول للسيرة كان دينيا مع سيرة الرسول ﷺ باعتبارها أسوة حسنة للمسلمين، وبعد ذلك انتقلت إلى الخلفاء والملوك، وكثر التأليف في هذا الجانب، وكان لمصر النصيب الأوفر في هذه السيرة، وبعد ذلك عرجت السيرة إلى الجانب الأخلاقي حيث تناولت الأعمال الراقية، إضافة إلى ذلك أصبحت تهتم بجانب الضحك والهزل، ثم ظهرت السيرة التاريخية التي تدور حول الحكام ورجال السياسة، أما حديثا فطغى عليها الحس الأدبي خاصة كما هي الحال عند العريان والعقاد وميخائيل نعيمة"^(٢).

^١ عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص: ٥٤، ٥٥

^٢ دنيا بن عيسى وطرباق، نفيسة، فن السيرة في الأدب العربي الحديث: عبر الزهور والأشواك - مسار امرأة لزهور ونيسي أنموذجا، مذكرة الماجستير في اللغة العربية والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية والأدب العربي، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي بالجزائر، ٢٠١٨م، ص: ١٨

الفصل الثالث

أنواع السيرة

تنقسم السيرة إلى عدة أقسام هامة وفق اعتبارات مختلفة، مثل: مضمونها، وكيفية معالجتها، واعتبارات زمنها، وأسلوبها أو غيرها من الاعتبارات، ولكل واحد من هذه الأقسام خصائصه المتميزة وملامحه البارزة. وإن هذا النوع من الأدب العربي معروف منذ القرن الثاني كما أشير إليه، ثم تنوعت أقسامه حسب تقدمه وفق تقدم الزمان، وانتشار ثقافة الأخذ والعطاء بين الناس بدون حدود البلدان. ويناقش هذا الفصل تلك الأقسام المهمة للسير والتراجم.

تنقسم السيرة إلى قسمين أساسيين، هما: السير الذاتية، والسير الغيرية.

القسم الأول: السيرة الذاتية

لقد عرف الكتاب والأدباء وأصحاب السير والتراجم السيرة الذاتية بعبارات تختلف في الكلمات، وتتفق على المعنى، وهو أنها كتاب يرسم فيه صاحبه تاريخ حياته، ويبين فيه الأحداث التي وقعت فيها، وما ناله من الإنجازات، وتكون لهذا الرسم والبيان لمسة أدبية. ومن التعريفات التي عرفها بعض الكتاب والمؤرخين على سبيل المثال لا الحصر: قال الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر في "معجم اللغة العربية المعاصرة": "السيرة الذاتية: عمل أدبي يقوم فيه مؤلفه بسرد قصة حياته، ويتضمن بالضرورة وصفا مباشرا ودقيقا لبعض الحوادث التاريخية وملامح الحياة في الفترة التي عاش فيها صاحب السيرة"^(١).

^١ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج: ١، ص: ١١٤٨

وقالت الدكتورة مها فائق العطار كما اقتطف قولها خالد الخشرمي: "قصة حياة شخص ما، كتبها بقلمه، فسرد لنا فيها ترجمة حياته، وحدثنا عن دخائل نفسه وتجاربه، ليثير فينا الرغبة في الكشف عن عالمه المجهول. وهي الزبدة التي تمخضت خلال سنين طويلة عن حياة أديب ما، أودعها تجاربه ومآسيه وأفراحه"^(١).

وقال الدكتور عبد العزيز شرف: "السيرة الذاتية Autobiography، هي "قدر من حياة إنسان فرد يكتب موضوعها بنفسه"، وهي - كما جاء في الموسوعة الأمريكية - سيرة أدبية يسجلها الإنسان بنفسه عن حياته"^(٢).

وقال محمد عبد الغني حسن: "الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالباً، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها"^(٣).

وقال الدكتور شعبان عبد الحكيم محمد: "وفيها [أي في السيرة الذاتية] يعرض المؤلف (صاحب السيرة) لحياته الواقعية، في أسلوب أدبي، أو علمي متأدب، وفي أشكال فنية متعددة، قد يتخذ الشكل الروائي، أو الشكل المقالي، أو الاعترافات، أو المذكرات، أو الذكريات... إلخ، كل ذلك في نسق متآلف، فيعرض لمراحل حياته المتعاقبة، وتطوره الفكري والوجداني والروحي والعقبات التي واجهته... إلخ، فتتنوع أشكالها، وتتداخل معالم الأنواع الأدبية فيها"^(٤).

^١ العطار، مها فائق، فن السيرة الذاتية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينيات، ص: ١١، اقتطف هذا القول خالد الخشرمي، الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية، نادي مكة الثقافي بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص: ٣٧

^٢ شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢م، ص: ٢٩

^٣ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص: ٢٣

^٤ محمد، د. شعبان عبد الحكيم، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع بعمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص: ١٣

وقال محمد البغدادي: "السيرة الذاتية لغويا هي طريقة عيش الفرد ونشأته، أما في الاصطلاح فهي وسيلة لسرد الفرد لقصة حياته الخاصة"^(١).

وتطلق "السيرة الذاتية" على Curriculum Vitae أيضا، وهو التعريف المختصر بشخص ما، الذي يشتمل على البيانات الشخصية، والدرجات العلمية، والمؤهلات الأكاديمية، والتجارب المهنية، والخبرات العملية، وما إلى ذلك من المعلومات اللازمة، وليس هذا النوع موضوع النقاش في هذا البحث.

وألف أدباء كثيرون في العصر الحديث تراجمهم الذاتية حيث يصعب الوقوف على ذكر أسماء كلها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

"هذه حياتي" لعبد العزيز فهمي (١٨٧٠ - ١٩٥١م)، و"قصة حياتي" للطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣م)، و"حياتي" لأحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤م)، و"تربية سلامة موسى" لسلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨م)، و"مذكرات في السياسة المصرية" لمحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، و"إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ - ١٩٤٩م)، و"أنا" لعباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م)، و"الأيام" لطفه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م)، و"سبعون" لميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨م)، و"سجن العمر" و"زهرة العمر" لتوفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧م)، و"معي" للدكتور شوقي ضيف (١٩١٠ - ٢٠٠٥م)، و"قصتي مع الحياة" لخالد محمد خالد (١٩٢٠ - ١٩٩٦م)، و"سنوات وذكريات - سيرة ذاتية" للدكتور أحمد هيكل (١٩٢٢ - ٢٠٠٦م) وغيرها. وفي هذه السير والتراجم المذكورة وغيرها ما أُلّف في القوالب المقالية أو التاريخية أو الروائية التي ستتم مناقشتها لاحقا في أماكنها المناسبة إن شاء الله.

^١ <https://mqaall.com/autobiography-arabic-literature/>

أقسام السيرة الذاتية

والسيرة الذاتية أيضا تنقسم إلى بعض الأقسام المهمة حسب الموضوع المعالج من حياة الكاتب في ذلك التأليف كما بينه الدكتور محمد صابر عبيد^(١)، فإذا كان يقص فيه تجاربه في ميدان الشعر كانت تلك السيرة الذاتية سيرة ذاتية شعرية مثلا.

وهناك أربعة أقسام هامة حسب هذا الاعتبار، وهي:

أ) السيرة الذاتية الشعرية

ومن الطبيعي أن يكون لكثير من الأعلام عديد من المهارات والمجالات التي وضعوا عليها أيديهم، فإذا أراد واحد منهم إبراز تجاربه في ميدان ما، مثل الشعر أو الرواية أو القصة أو النقد أو غيرها من الميادين الأدبية، أفرد كتابا بهذا المجال الخاص، وعرض فيه تجاربه المتعلقة بهذا المجال فقط، حتى لو كان مولعا بفنون أخرى. فالسيرة الذاتية الشعرية هي تأليف شاعر أودع فيه تجاربه الشعرية فقط، لا يضم إليه سائر مجالاته الأدبية والعلمية.

وعرّف هذا القسم من أقسام السيرة الذاتية الدكتور محمد صابر عبيد كما اقتبست قوله "ملاوي فايزة" في مذكرتها للماجستير بأنه: "سرد نثري يتولى فيه الشاعر تدوين سيرته الشعرية فقط تاريخا ومكانا وحادثة"^(٢).

^١ كاتب وناقد عراقي.

^٢ عبيد، د. محمد صابر، السيرة الذاتية الشعرية، ص: ١١٠، اقتبست هذا القول ملاوي فايزة، فن السيرة في الأدب العربي الحديث "حياتي" لأحمد أمين - أنموذجا - مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في تخصص أدبي عربي حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، الجامعة المسيلة بالجزائر، ٢٠١٤م، ص: ١٥.

وقالت مباركة بكيري وعائشة بوترة مبينتين هذا القسم: "في هذا النوع يلجأ الشاعر إلى سرد تجربته الشعرية دون سرد جوانب أخرى، حيث يركز بالتحديد على الزمان والمكان وذكر الحوادث التي لها علاقة بتجربته الشعرية"^(١).

ومن أمثال هذا النوع من أنواع السيرة الذاتية التي ذكرتها ملكاوي فايضة في المذكرة المذكورة آنفا: "قصتي مع الشعر" لنزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٨ م)، و"تجربتي الشعرية" لعبد الوهاب البياتي (١٩٢٦ - ١٩٩٩ م)، و"حياتي في الشعر" لصلاح عبد الصبور (١٩٣١ - ١٩٨١ م) وغيرها.

(ب) السيرة الذاتية القصصية

وهذا النوع كما يخبر به اسمه أنه عرض الأديب القاص لتجاربه القصصية وتصويره لحياته مع القصص، ويكون الكتاب المؤلف في هذا النوع مفردا بهذا الجانب القصصي، حتى يصور الكاتب فيه أعماله القصصية وعلاقته بهذا الفن منذ بداية وضع الخطوة الأولى في هذا المضمار إلى أن يؤلف ذلك الكتاب في السيرة الذاتية القصصية، مثل ما قام به عبد الستار ناصر (١٩٤٧ - ٢٠١٣ م) في كتاب "حياتي في قصصي".

وقد عرّف هذا النوع الدكتور محمد صابر عبيد كما اقتبست ملكاوي فايضة قوله: "سرد نثري سير ذاتي يعمد فيه القاص إلى تسجيل سيرة ذاتية خاصة بتجربته القصصية في مرحلة يعتقد أنه وصل فيها إلى درجة معقولة من النضج والشهرة"^(٢).

^١ بكيري، مباركة وبوترة، عائشة، السيرة الغيرية في رواية "العلامة" ل"بنسالم حميش"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد بوضياف - المسيلة بالجزائر، ٢٠١٧-٢٠١٨ م، ص: ١٦

^٢ عبيد، د. محمد صابر، السيرة الذاتية الشعرية، ص: ١١٠، اقتبست هذا القول ملكاوي فايضة، فن السيرة في الأدب العربي الحديث "حياتي" لأحمد أمين - أنموذجاً - مذكرة مكتملة لنيل شهادة الماجستير في تخصص أدبي عربي حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، الجامعة المسيلة بالجزائر، ٢٠١٤ م، ص: ١٥

ج) السيرة الذاتية الروائية

هذا القسم من أقسام السيرة الذاتية يختص بالرواية، ويعرض فيه الروائي أحداث حياته المتعلقة بالرواية، ويرسم فيه ميله إلى هذا الفن وأسبابه وانخراطه في سلك الروائيين، ويذكر فيه أعماله في هذا المجال، وتطوراته حسب تطورات الزمان وتقلباته وفق تقلبات البيئات، وما إلى ذلك من تعلقاته وخبراته وتجاربه بهذا الفن.

ويتميز هذا النوع باستقلاله بعرض التجارب الروائية فقط، وعرفه الدكتور محمد صابر عبيد بأنه: "سرد نثري سير ذاتي يتوجه فيه الراوي إلى تقويم سيره لتجربته الروائية، يشتمل على نقل حكاياته مع الرواية والكتابة الروائية إلى القارئ، ولا يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا على يد روائي له حضور مؤثر ولافت في ميدان الإبداع الروائي، وله تجربة فيها من الثراء والخصوصية والسعة ما يؤكد انطوائها على خبرة وعمق وأصالة تدفع القارئ إلى البحث عنها وتشجعه على ارتيادها والإفادة منها"^(١).

ومن الأعمال المؤلفة في هذا القسم: "حكايتي شرح يطول" للكاتبة اللبنانية حنان الشيخ، و"أوراق حياتي" للروائية المصرية نوال السعداوي (١٩٣٧ - ٢٠٢١م) و"مزاج مراهقة" للكاتبة الجزائرية فضيلة الفاروق وغيرها، كما ذكرته مباركة بكيري وعائشة بوترة.

د) السيرة الذاتية النقدية

أما هذا القسم فهو يعالج النقد كما يدل عليه اسمه، ففي كتاب مؤلف من هذا القسم يجمع فيه المؤلف البيانات عن علاقته بهذا الفن وتجاربه واهتمامه بالنقد، وعرفه الدكتور محمد صابر عبيد وقال: "سرد نثري سير ذاتي يعتزم فيه الناقد عرض

^١ نفس المرجع، ص: ١٦

نظريته ورؤيته ومنهجه وفكره النقدي عرضا تاريخيا تكوينيا، يشتمل على بداياته النقدية، وصلته المتطورة بمفهوم النقد، ودرجة حساسيته بالنسبة إلى شخصيته، فضلا عن إبراز السمات الشخصية والحيوية والإنسانية قدرَ تعلق الأمر بالمفهوم النقدي ووظيفته الإنسانية والفكرية"^(١).

هذه هي الأقسام الأربعة المهمة للسيرة الذاتية، ولا تقتصر الأقسام على هذه الأربعة فقط، بل يمتد إلى مجالات أخرى حسب معالجة الكاتب، ولكن ذُكرت هذه الأقسام الأربعة هنا لاهتمامها وشهرتها.

أنواع أدبية شبيهة بالسيرة الذاتية

هناك كثير من الأنواع الأدبية الشبيهة بالسيرة الذاتية أو القريبة منها في المعنى والشكل، ويجدر بذكر أهمها هنا عند الكلام عن أنواع السير. ومن هذه الأنواع الهامة الشبيهة بها أو القريبة منها: المذكرات، واليوميات، والمفكرة اليومية، والاعترافات، وأدب الرحلات، والتاريخ، والرواية.

المذكرات

المذكرات هي ما يكتبه الكاتب عما يحدث أحواله وما يقع في بيئته، ولا يهتم بأحداث حياته خلافا من صاحب السيرة الذاتية، إذ يهتم اهتماما كبيرا بنفسه والوقائع التي حدثت في حياته. وقد عرفها الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر حيث قال: "... مذكرات سياسي: ما يرويهِ شخص خطيا من أحداث شهدها بنفسه أو تتعلق بسيرته، وحياته العامة أو الخاصة"^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ١٦

^٢ عمر، أ.د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م، ج: ١، ص: ٨١٧

وقال جبور عبد النور مبينا المذكرات: "سرد كتابي لأحداث جرت خلال حياة المؤلف وكان له فيها دور، وتختلف عن السيرة الذاتية بأنها تخص العصر وشؤونه بعناية كبرى، فتشير إلى جميع الأحداث التاريخية التي اشترك المؤلف فيها أو شهدها أو سمع عنها من معاصريه، وأثرت في مجرى حياته"^(١).

هناك فرق واضح بين السيرة الذاتية والمذكرات، إذ أنها تهتم بالزمان وأموره اهتماما كبيرا، خلافا عن السيرة الذاتية. وقال الدكتور عبد المجيد البغدادي موضحا الفرق بينهما: "وهناك فرق بسيط بين المذكرات والسيرة الذاتية وهي أن السيرة تعتمد على الذاكرة، وتهتم بها على تسجيل ما مر بها، والمذكرات فقد تكون جزءا مهما يشاهد كاتب السيرة على تذكر ماضيه، أما المذكرات فهي تعتمد على الوقائع التاريخية ولا دخل للذاكرة فيها"^(٢).

وقال الدكتور ناصر بركة: "فإن المذكرات تهتم مضامينها برصد الأحداث وتسجيلها، ويُعنى كاتبها بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من اعتناؤه بواقعه الذاتي"^(٣). وأقدم المذكرات كما رآه محمد عبد الغني حسن "كتاب الاعتبار" وهو مذكرات الأمير العربي أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ).

اليوميات

اليوميات تعني بتفاصيل وتوضيحات الأحداث اليومية كما يتضح من اسمها، فتنتظم فيها الأمور المسجلة على ترتيب الأيام، حيث أنها قائمة على أساس التاريخ، ومع ذلك

^١ عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، دار العلم بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص: ٢٤٦

^٢ البغدادي، د. عبد المجيد، مقالة "فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي"، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦م، ص: ٢٠٠

^٣ بركة، د. ناصر، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث، بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، قسم اللغة العربية وأدائها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر - باتنة - الجزائر، ٢٠١٣م، ص: ٢٨

تكون الأحداث فيها مقطعة لا متسلسلة - حتى لو كان فيها التسلسل الزمني - وتكون خارج قواعد تأليفية وتعبيرية خاصة، إنما قواعدها ما يجعلها الكاتب.

وتختلف السيرة الذاتية عن اليوميات بكونها خاضعة لقواعد ومناهج خاصة وبأشياء أخرى، كما قاله الدكتور عبد المجيد البغدادي: "اليوميات فهي كذلك تشبه مع السيرة من وجه وتختلف عنها في أوجه أخرى، إذ أن اليوميات تشبه السيرة في ذكر ما يتعلق بحياة فرد ما، وتختلف اليوميات عن السيرة في عدم تتبع نمط فني"^(١).

وقال أيضا: "اليوميات تعتبر من أعمال جامدة، وأنها لا تلتزم بتقنيات فنية بدرجة الإبداع، وكذلك ليس من الصعب كتابة الأحداث اليومية التي تجري في حياة شخص ما، ولكن القدرة والاستيعاب على هذه الأحداث وكتابتها تبقى ضرورية لتصليح الترجمة الذاتية أو الغيرية، تحتاج إليها اليوميات التي تركز على رصد الأحداث فقط"^(٢).

يستطيع كاتب السيرة الذاتية أن يجعل مهمته سهلا إن كانت لديه يومياته أو مذكراته، لأنها تتيح له العودة إلى ماضيه، واقتطاف أحداث حياته.

المفكرة اليومية

وهي كما وضحه الدكتور عبد العزيز شرف تعالج حياة المؤلف الداخلية على وجه أكبر، ولا تعالج في أغلب الأحيان الوقائع التي تحدث خارج أحلامه في اليقظة، كما لا تعالج أفكار خيالات الكاتب.

^١ البغدادي، د. عبد المجيد، مقالة "فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي"، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦م، ص: ٢٠٠
^٢ نفس المرجع، ص: ٢٠١

الاعترافات

هذا النوع أيضا شبيه بالسير الذاتية، حيث يقص فيه الكاتب الأحداث الخاطئة في حياته، وعودته إلى ما رآه على أنه صواب، وتخليه عن الباطل، واعترافه بذنبه، فيكون فيه نقد النفس الحاد، وتعرية الذات الشديدة، وقال محمد صابر عبيد كما اقتبسها ناصر بركة: "... وبهذا يمكن القول إن السرد الاعترافي هو سرد سير ذاتي [كذا] يتقصد الإثارة والنقد اللاذع وتعرية الذات، مما يجعله يدور على المستوى النوعي في فلك السيرة الذاتية، إلا أن الاحتكام إلى الميثاق الذي يحدده الكاتب في وصف مروية الذات هو الذي يحدد النوع السير ذاتي [كذا] بين الاعترافات والسيرة الذاتية"^(١).

وقال الدكتور عبد العزيز شرف عن ملامح الاعترافات وعلاقتها بالسيرة الذاتية: "فقد تكون السيرة الذاتية من قبيل الاعترافات، والدافع الرئيسي وراءها هو تخفيف عبء الشعور بالذنب الذي يثقل كاهل صاحبها. ومن أشهر أمثلة هذا الشكل اعترافات القديس أوغسطين (حوالي عام ٣٩٩)، والتي عرف بصفة عامة أنها أول مثال لسيرة ذاتية حقيقية، استحققتها في الغالب الرغبة في سرد الخطايا تخفيفا للشعور بالذنب"^(٢).

أدب الرحلات

أدب الرحلات هو أدب مهم جدا في الأدب العربي كما هو الحال في جميع اللغات الأخرى، له شكل السيرة الذاتية وليس بها، يكتب المؤلف فيه ما شاهد من المشاهدات

^١ عبيد، د. محمد صابر، السيرة الذاتية الشعرية، ص: ١٣٠، اقتبس هذا القول بركة، د. ناصر، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث، بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر - باتنة - بالجزائر، ٢٠١٣م، ص: ٢٩، ٣٠.

^٢ شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢م، ص: ٤٥.

في إحدى رحلاته، ويسجل فيه ما وقع من الوقائع خلال سفر من أسفاره من بلد إلى بلد آخر، فيكون هذا النوع من الأدب مرجعا هاما للمعلومات التاريخية والاجتماعية. وقد قام كثير من الرحالين بتأليف كتب ثمينة في هذا المجال، مثل: محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩هـ) صاحب كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ومحمد بن أحمد بن جبير الكناني المشتهر بابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ) صاحب كتاب "رحلة ابن جبير"، وابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) الذي صور في كتاب "التعريف" أسفاره في البلاد المختلفة ومراسلاته، وأحمد المقرئ التلمساني (٩٨٦ - ١٠٤١هـ) الذي رسم بعض رحلاته في كتاب "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب" وغيرهم ممن اشتهر في هذا المجال قديما وحديثا.

التاريخ

هناك علاقة وثيقة بين التاريخ والسيرة كما ورد في الفصل الأول من هذا الباب، لأنها نشأت في ظله، ولا يتم القيام بتعريفها إلا بقول "تاريخ الحياة"، وكذلك كلاهما يشتملان على وقائع هامة وأحداث شخصيات مهمة.

رغم وجود هذه العلاقة وذلك التشابه هناك فروق واضحة بينهما، منها أن أغلب معالجة التاريخ هو الوقائع، ولكن السيرة الذاتية تقتصر على سرد وقائع حدثت في حياة الكاتب أو وقائع متعلقة به مباشرة أو غير مباشرة، ومنها أن كاتب السيرة الذاتية غالبا ما يعتمد على الذاكرة واسترجاع الوقائع الماضية، ربما لا تكون صحيحة إذ أنها لا تحفظ كل الحوادث والوقائع، ومنها أنه لا يوجد مجال للخيال في التاريخ، في حين أن السيرة الذاتية ترحب به على شكل كبير.

وقالت الكاتبة الأردنية الدكتورة تهاني عبد الفتاح شاكر مبينة اختلاف السيرة الذاتية عن التاريخ: "وتختلف السيرة الذاتية عن التاريخ في اعتماد كاتبها على التذكر في استرجاع الأحداث لإعادة صياغتها، ومن طبيعة الذاكرة أنها تسقط بعض الأحداث، أو تصور للإنسان أموراً لم تحدث، وكذلك لا بد لكاتب السيرة الذاتية من اللجوء إلى الخيال حتى يستطيع أن يسوغ الأحداث التي تذكرها في بناء فني، أما التاريخ فإن دخول عنصر الخيال إليه، يُعدُّ تشويهاً للحقائق وتزويراً لها، وليس للذاكرة أي دور في صياغته، فهو لا يعتمد إلا على الوثائق والمدونات. وبذلك تكون عملية كتابة التاريخ مجرد توثيق للحقائق، أما كتابة السيرة الذاتية فإنها عملية إبداعية يمزج فيها المبدع بين الحقيقة والخيال"^(١).

الرواية

إن من الآداب الشبيهة بالسيرة الذاتية الرواية من جانب البناء الفني والمنهج السردى، حيث تتركز أحداث الرواية على الشخص الراوي، كما تتركز الأحداث في السيرة الذاتية على الكاتب. ولكن الخيال هو الذي يفصل بينهما، إذ يوجد في الرواية خيال مطلق بلا حدود، أما في السيرة الذاتية فيوجد الخيال على قيد حدود، لأن الرواية مبنية على الخيال الحرّ، والسيرة الذاتية أساسها رسم حياة شخص من الأشخاص.

وقد صرح بهذه النقطة الكاتب الشهير ماهر حسين فهيم في مقال "فن السيرة" المنشور في مجلة "الأقلام" كما اقتبسته تهاني عبد الفتاح شاكر: "فالروائي يستطيع

^١ عبد الفتاح شاكر، تهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي - فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص: ١٨.

أن يستخدم الخيال كما يشاء، ولكن خيال كاتب السيرة ممسوك الزمام لأن السيرة هي إعادة تقديم صورة لحياة إنسانية"^(١).

القسم الثاني: السيرة الغيرية

السيرة الغيرية - يطلق عليها أيضا السيرة الموضوعية - هي ما يقوم به كاتب من تصوير حياة غيره من الأعلام، وهذا القسم أسبق وجودا من السيرة الذاتية، إذ وُجد مع وجود التاريخ. على الرغم من أن الباحث قد ذكر العديد من التعريفات لهذا القسم في الفصل الأول من هذا الباب، يورد هنا بعض التعريفات الأخرى التي لم يتم ذكرها:

قال الكاتب الشهير الدكتور عبد المجيد البغدادي: "يراد بها الجنس الأدبي الذي يكتبه بعض الأفراد عن غيرهم من الناس، سواء أكانوا من الأعلام الذين عاشوا في الزمن الماضي أو في الزمن الحاضر"^(٢).

وقالت مباركة بكيري وعائشة بوترة: "هي أن يكتب المؤلف تاريخ شخصية أخرى، وهو في هذه الحالة يتمثل تلك الشخصية في الزمان والمكان اللذين عاش فيهما، معتمدا على الذاكرة أو المشاهدة ملتزما الحياد فيما يكتب، وهو يتناول حياة شخص جدير بالاهتمام، له مكانة في المجتمع أو حقق إنجازات"^(٣).

وقال صهيب خزاعلة في مقالة "خصائص السيرة الغيرية": "تُعرّف السيرة الغيرية بأنها إحدى أنواع التعبير الأدبي الكتابي، والتي تختص بالحياة الشخصية لشخص ما،

^١ فهدى، ماهر حسين، مقال "فن السيرة"، مجلة "الأقلام"، الجزء الثالث، السنة الأولى، ١٩٦٤م، ص: ٣٠، افتبست هذا القول عبد الفتاح شاكر، تهابي، السيرة الذاتية في الأدب العربي - فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، الطبعة الأولى،

٢٠٠٢م، ص: ٢١

^٢ البغدادي، د. عبد المجيد، مقالة "فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي"، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦م، ص: ١٩١

^٣ بكيري، مباركة وبوترة، عائشة، السيرة الغيرية في رواية "العلامة" ل"بنسالم حميش"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد بوضياف - المسيلة بالجزائر، ٢٠١٧-٢٠١٨م، ص: ١٨

حيث يقوم المؤلف بإعادة بناء حياة الشخص الذي يكتب عنه بتفاصيلها بناء على وجهة نظره الشخصية، بالطبع بالاعتماد على الدلائل الموجودة سواء أكانت مصورة، محكية أو مكتوبة"⁽¹⁾.

الفروق بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية

ومن الفروق الهامة بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية أن الأولى يكون فيها التناسق بين الكاتب المبدع والشخصية الرئيسية فيها، لأنه يقص فيها قصته ويصور أحداث نفسه ويعبر عن نفسياته، بينما الثانية لا يكون فيها هذا الانسجام والتألف، لأن السارد فيها يقص قصة شخص آخر.

ومنها أن السيرة الذاتية يسجل صاحبها في كتابه ما في قلبه من العواطف والمشاعر مع تسجيل أحداث حياته، فلا يقصر على سرد الأحداث فحسب، ولكن يتعدى إلى نقل انفعالاته وانطباعاته حسب ملكته التعبيرية، أما صاحب السيرة الغيرية فلا يعرف ما في قلوب سائر الناس، فليس من قدرته أن يسجل انطباعاتهم وانفعالاتهم إلا ما أبرزوه بأقوالهم أو أفعالهم، فعمله الأدبي هذا مجرد سرد الأحداث وتسجيل الوقائع وفق ما حصل عليه من المعلومات من خلال مطالعاته ومقابلاته ومشاهداته وغيرها من الوسائل.

ومنها أن أهم مقصد من السيرة الذاتية هو تعبير الكاتب عن مشاعره وأحاسيسه ورسم بواطن نفسه من الألم والحزن والفرح والطرب، أما المقصد الأهم من السيرة الغيرية فهو جمع المعلومات الهامة المتعلقة بالرجل المترجم له وتسجيلها في كتابه.

¹ مقالة خصائص السيرة الغيرية - موضوع bit.ly/3EizLiz

ومنها أن صاحب السيرة الغيرية يكون في مكان الشاهد والقاضي ويروي ما رآه من الأشياء، أما صاحب السيرة الذاتية فيعبر عن النقاط المكنونة في نفسه، فعليه أن يقوم بهذا العمل الثقيل بالرفافة والعطف، وقالت تهاني عبد الفتاح شاعر في هذا الصدد: "وكاتب السيرة الذاتية يصور لنا مادة منتزعة من ذاته، لذلك فإنه يتعامل معها بحنو وعطف، أما كاتب السيرة الغيرية فإنه يستقي مادته من العالم المحيط، لذلك فإنه يقف منها موقف الشاهد، أما كاتب السيرة الذاتية فعليه أن يؤدي دور الشاهد والقاضي معا"^(١).

أقسام السيرة الغيرية

كما رأينا السيرة الذاتية تنقسم إلى أربعة أقسام شعرية وقصصية وروائية ونقدية تنقسم السيرة الغيرية أيضا إلى أربعة أقسام كما بينه الدكتور محمد صابر عبيد، وهي:

أ) السيرة الغيرية الشعرية

وهي ما كتبه كاتب في سيرة الغيرية من ترجمة شاعر أو شعراء أكثر، ويناقش فيه جميع مؤلفات الشاعر المترجم له في الشعر وسائر أعماله المتعلقة بالشعر، وتكون هذه الكتابة معتمدا على ديوانه وقصائده ومقالاته وما إلى ذلك من المراجع التي تدعمه وتعينه في إكمال هذه المهمة. ومن خصوصيات هذا النوع أنه لا يشمل الكاتب فيه إلا الجانب الشعري من حياة الشاعر المترجم له، ويتبين هذا من التعريف الذي قام به الدكتور محمد صابر عبيد في كتابه "السيرة الذاتية الشعرية" كما اقتبسته ملكاوي فايزة: "سرد نثري يتولى فيه الكاتب تدوين السيرة الشعرية لشاعر منتخب يقتصر فيها على سرد الحياة الشعرية بكل متعلقاتها التاريخية والحديثية والمكانية، مع إغفال

^١ عبد الفتاح شاعر، تهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي - فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص: ١٩

التطرق إلى الجوانب السيرية الأخرى في حياته، إلا بالقدر الذي يسهم في إغناء سيرته الشعرية وإيضاحها"^(١).

ب) السيرة الغيرية القصصية

يركز الكاتب في هذا القسم كما يتضح من اسمه على شخصية بارزة مشهورة في مجال القصة ومساهماته القصصية، حيث يسجل في كتابه كل ما يصلح للكتابة من الأعمال الملحوظة لذلك القاص، ويشمل فيه أيام حياته المضيئة في الأجواء القصصية، ويلتزم الكاتب فيه كل الالتزام بسرد الحياة القصصية للقاص المترجم له، وبألا يسرد حياته المتعلقة بسائر المجالات، ليكون الكتابُ كتاباً مستقلاً في السيرة الغيرية القصصية.

ج) السيرة الغيرية الروائية

هي أن يختار كاتب في السيرة الغيرية شخصية بارزة في مجال الرواية، ويذكر سيرته وتجاربه في الميدان الروائي، ويلفت انتباه القراء إلى مؤلفاته التي رفعتة إلى قمة الشهرة، وساهمت في رواج صيته، وأهلته لتكتب ترجمته. ويقوم الكاتب بهذه المهمة الكبرى معتمداً على أعماله الروائية والمدونات والمستندات التي تبين مواقفه وبيئاته.

عرفها الدكتور محمد صابر عبّيد بأنها: "سرد نثري سير [كذا] غيري يتطوع فيه الكاتب لتقديم سيرة روائية لروائي منتخب يعتقد بأهميته الإبداعية في مجال الإبداع الروائي وباتساع الروائية على النحو الذي تكون فيه مؤهّله لأن تروى، بما تنطوي عليه من

^١ عبّيد، د. محمد صابر، السيرة الذاتية الشعرية، ص: ١٢١، اقتبست هذا القول ملكاوي فايزة، فن السيرة في الأدب العربي الحديث "حياتي" لأحمد أمين - أنموذجاً - مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في تخصص أدبي عربي حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، الجامعة المسيلة بالجزائر، ٢٠١٤م، ص: ١٧.

خصب وعمق وما تكشف عنه من دروس فنية في خصوصيات الفن الروائي، تحرض المتلقين بمختلف شرائحهم على متابعتها والتزود من ثرائها ومعارفها الفنية"^(١).

د) السيرة الغيرية النقدية

يعرض الكاتب فيها حياة رجل بارز في مجال النقد الذي يستحق كتابة ترجمته برفعته وشهرته، ومعروف لدى الجميع أن أسلوب هذا الناقد المترجم له يكون أسلوبا نقديا، ولكن أسلوب الكاتب المترجم لا يكون أسلوبا نقديا، بل يتخذ أسلوبا سهلا ممتعا جدا، حتى يتمكن القراء من الاستفادة منها بدون مشقة، ويذكر فيه الكاتب مساهمات ذلك الناقد المهمة وإنجازاته الثمينة ومؤلفاته الفريدة وسائر أعماله القيمة في مجال النقد. ويتجنب سرد المعلومات التي لا قيمة لها في هذا الموضوع، بحيث يكون هذا الكتاب كتابا مفردا بالسيرة الغيرية النقدية.

تقسيم كتب السير

وقد قسم بعض الأدباء مثل محمد عبد الغني حسن وغيره كتب السير والتراجم إلى أقسام حسب اعتبارات شتى، منها:

السير العامة

هذا النوع من كتب السير والتراجم يشتمل على تاريخ حياة أعلام في شتى المجالات، لا في مجال واحد، كما يشتمل على حياة أعلام في مختلف الأزمنة والأمكنة، لا في زمان واحد ومكان واحد، والذي يجمعهم في كتاب واحد هو استحقاقهم أن تكتب سيرتهم، فتكون في هذا النوع من الكتب تراجم العلماء من الفقهاء والمحدثين، وتراجم الأدباء

^١ نفس المرجع، ص: ١٧

والشعراء، وتراجم الأمراء والخلفاء وغيرهم، على اختلاف فنونهم وعصورهم ودرجاتهم وطبقاتهم وأمكنهم.

وقال محمد عبد الغني حسن في هذا الصدد: "نقصد بالتراجم العامة تلك الكتب التي تجمع طائفة من التراجم لطائفة من الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصرا ومكانا، ولكنهم يتحدون في صفة واحدة تجمعهم وهي صفة الجدارة والاستحقاق بأن يترجم لهم، وتدون سيرهم. وفي هذا النوع من كتب التراجم يجتمع الفقيه والمحدث والشاعر والأديب والحكيم والقاضي وغيرهم بين دفتي كتاب واحد على الرغم من الفروق الكثيرة بين مهنتهم ورسالتهم في الحياة. كما يجتمع رجل من رجال القرن الأول بجانب رجل من رجال القرن الثاني أو الخامس أو ما بعدهما. كما يجتمع المكي والمدني والشامي والعراقي والمصري والخراساني والأندلسي، بغض النظر عن اختلاف أوطانهم"^(١).

ومن أمثال هذا النوع من السير كتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" ألفه أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء، المعروف بكامل الدين النحوي الأنباري (٥١٣ - ٥٧٧هـ)، يعتبر أكثر الأدباء والمؤرخين هذا الكتاب التأليف الأول في السير العامة بعد بداية كتابة السير كنوع خاص من الفنون، فإن المؤلف يجمع بين ضفتيه رجالا كثيرا منذ قديم الزمان إلى عصره، ورتب أسماءهم حسب الحروف الهجائية.

ومنها كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦هـ) الذي يحتوي على أصحاب وفحول كثير من الفنون العربية. ومنها كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لشمس الدين بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ)، ومنها "كتاب الطبقات الكبير" المعروف بـ "طبقات ابن سعد" و"كتاب الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦هـ) وغيرها.

^١ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص:

السير الخاصة

هذا النوع يختلف عن السير العامة من حيث المحتوى، لأنه كما يدل عليه اسمه نوع من الكتب يعالج تاريخ حياة شخصيات خاصة على قيود زمنية وحدود مكانية، تندرج تحته السيرة الذاتية والسيرة الغيرية، إذ أن السيرة الذاتية تسرد تاريخ حياة الكاتب، فتخضع لدائرة حياة هذا الكاتب وتنحصر في حدودها، ولا تتعدى إلى شخصيات أخرى ولا إلى زمن غير زمن الكاتب.

وكذلك السيرة الغيرية أيضا تسرد حياة الشخص المعين المترجم له أو الشخصيات المعينة، مثل الكتب التي ألفت في سيرة الرسول ﷺ، ككتاب "سيرة ابن هشام" الذي يعالج حياة الرسول ﷺ. فالسير الخاصة تختلف عن السير العامة بما تشتمل عليه الأولى من حياة شخصيات خاصة محدودة زمتا ومكانا وشخصا وفنا، أما الثانية فليس لها زمن محدد حيث يجمع صاحبها ما حصل عليه من المعلومات عن الأعلام منذ قديم الزمان إلى عصر القيام بجمعها بدون فاصل زمني ومكاني وفني.

قوالب هامة لعرض السير

وإن هناك بعض الكُتاب والمؤرخين الذين عرضوا حياة أنفسهم أو حياة غيرهم في قوالب وأساليب مختلفة، فمنهم من قدمها في قالب مقالي، ومن قدمها في قالب تاريخي، ومن قدمها في قالب روائي، ومن قدمها في قالب شعري.

القالب المقالي

هو أن يعرض الكاتب ترجمته إن كان كاتب السيرة الذاتية، أو ترجمة غيره من الأعلام إن كان كاتب السيرة الغيرية في أسلوب المقالة محافظا على عناصرها، فتتكون من

مجموعة من الفقرات، ويقدم الكاتب فيها بعض النقاط مع التفاصيل والتفاسير حسب الحاجة، ويحلل بعض الأشياء تحليلاً شاملاً وفق مقتضى الحال، حتى يفهم القارئ غرضه المنشود من تلك العملية التأليفية، ويحصل على المعلومات الكافية عن الشخص المترجم له. ولا يهتم هذا الأسلوب أكثر بإثارة القارئ وإمتاعه بالتصوير الجمالي.

القالب التاريخي

يتميز هذا القالب بالسرد التصاعدي للوقائع، وعرض الأحداث في ترتيب زمني، ويكون هذا العرض عرضاً علمياً تاماً بعيداً عن جماليات الخيال، ويعتمد الكاتب على هذا الأسلوب كأنما يقوم مقام مؤرخ راصد، ينقل البيانات التاريخية بلغة دقيقة، ويروي الأحداث الحقيقية بكلمات مفهومة. يشعر قارئ كتابه - سواء كان في السيرة الذاتية أو الغيرية - كأنما يقرأ كتاب التاريخ الذي ينقل المعلومات إلى ذهنه. لا يتزين هذا الأسلوب بالألفاظ المزينة والكلمات الموحية، لاهتمامه بتعبير المعاني، حتى لو كان يتحدث عن الوقائع التي تضرم المشاعر والعواطف، لأن مقصده رسم ما وقع في حياته إن كان كاتب السيرة الذاتية أو رسم حياة ما وقع في حياة الشخص المترجم له إن كان كاتب السيرة الغيرية.

القالب الروائي

ومن أهم ملامح هذا القالب أنه يمزج وقائع حياة الكاتب - إن كان كاتب السيرة الذاتية - أو وقائع حياة المترجم له - إن كان كاتب السيرة الغيرية - بالصورة الروائية، فيعرض فيه الكاتب تلك الوقائع الحقيقية في قالب سرد الأحداث وتصويرها بالكلمات الجذابة والعبارات الخلاقة، كأنه يكتب رواية. وفي هذا الأسلوب مكان غير صغير للخيال، ولكن

مع مراعاة الحق والأمانة في عملية سرد أحداث الحياة. والقارئ لهذا الكتاب لا يشعر بشعور قراءة كتاب مؤلف في أسلوب تاريخي أو مقالي، الذي ينقل العلم ويزيد الفهم، ولكن يشعر بمتعة قرائية ممزوجة بضيافة علمية، ويشعر بتحريك مشاعره وتزويد مفاهيمه في آن واحد، نتيجة محاولة الكاتب لإثارة مشاعر القراء وعواطفهم من خلال تزيين كتابه بالجماليات اللغوية والأدبية.

القالب الشعري

هناك نوع آخر من السير والتراجم، وهو السيرة الشعرية، وهو أن يكتب الكاتب السيرة في شكل وقالب الشعر المنظوم بالوزن والقافية، بحيث يكون عرضها أشعارا ومضمونها سيرا، وقال محمد عبد الغني حسن هذا الصدد: "... ولكن يظهر أن المؤرخين الشعراء لم يرضوا بالثر وسيلة لغرضهم من الترجمة والسير، فاستخدموا الشعر في ذلك الباب، وهي حركة كانت استجابة لحركة الشعر التعليمي الذي بدأ يدخل كل ميدان من ميادين العلوم"^(١).

يوجد هذا النوع في كثير من أشعار المدائح، والذي تقدم إلى هذا الميدان أولا عبد الله بن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) كما ذكره محمد عبد الغني حسن. وهناك كثير من أشعار تصور حياة الرسول ﷺ التي قام بنظمها مشاهير المؤرخين الشعراء مثل شمس الدين الباعوني (٧٧٦ - ٨٧١ هـ)، وزين الدين بن الشحنة (٧٤٩ - ٨١٥ هـ)، وابن سيد الناس (٦٧١ - ٧٣٤ هـ) وغيرهم. ونظم كثير منهم أشعارا تصور حياة كثير من السلاطين والملوك مثل: ابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ)، وبهاء الدين الباعوني (٨٥٧ - ٩١٠ هـ)، وبدر الدين العيني (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) وغيرهم^(٢).

^١ حسن، محمد عبد الغني، كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة النشر غير مذكورة، ص:

٣٥

^٢ نفس المرجع، ص: ٣٧

أقسام أخرى لكتب السير

هناك أقسام أخرى لكتب السير والتراجم، منها ما رتب حسب الترتيب الزمني لحياة الأعلام كما يبينه محمد عبد الغني حسن في كتاب "التراجم والسير"، منها ما رتب حسب القرون مثل ما قام به أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩هـ) في كتاب "يتيمة الدهر" الذي يحتوي على تاريخ حياة أهم الشعراء في القرن الرابع الهجري. ثم لم يظهر في هذا النوع كتاب إلا "مختصر المائة السابعة" لعلم الدين البرزالي (٦٦٥ - ٧٣٩هـ)، وكتاب "البدر السافر وتحفة المسافر" لجعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي (٦٨٥ - ٧٤٨هـ)، وهما يحتويان على تواريخ لحياة المشهورين في شتى المجال في القرن السابع.

وكذلك في القرن الثامن "كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ) وقال محمد عبد الغني حسن عن ظهور هذا النوع من الكتب في السيرة في القرون التالية: "ومنذ كتاب ابن حجر في تراجم المائة الثامنة أخذت تظهر كتب التراجم للقرون الإسلامية التالية، فظهر كتاب "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ، و"الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة" للمؤرخ نجم الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١هـ، و"خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" للمؤرخ محمد أمين بن فضل الله المحبي المتوفى سنة ١١١١هـ، و"سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" لشيخ الإسلام محمد خليل المرادي المتوفى سنة ١٢٠٦هـ. وقد ظهر بأخرة من الزمان كتاب صغير الحجم للمرحوم أحمد تيمور باشا المتوفى سنة ١٣٤٨هـ بعنوان "تراجم أعيان القرن الثالث عشر، وأوائل الرابع عشر"، وفيه أربع وعشرون ترجمة،..."^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ٤٧، ٤٨

وخلال هذه القرون كُتِبَ كثير من الكُتَابِ تراجم من عاصرهم، مثل: "أعيان العصر وأعوان النصر" للصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) وغيره من الكتب الكثيرة لأصحابها الأجلاء.

ومن تلك الأقسام كتب ألفت في ترجمة الأعلام سنة سنة كما بينه محمد عبد الغني حسن، مثل "عيون التاريخ" لابن شاعر الكتبي (١٢٨٧ - ١٣٦٣ م)، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"شذرات الذهب" لابن العماد الحنبلي وغيرها.

ومن تلك الأقسام "الطبقات" وهي كما قاله محمد عبد الغني حسن: "إن كتب الطبقات هي نوع من التراجم يرتب فيه الرجال ويجمعون بحسب العلم الذي تخصصوا فيه وتفرغوا له، لا بأي اعتبار آخر من اعتبارات الزمان وترتيب الأسماء. وأول من ألفت في طبقات الصحابة الإمام البخاري في "التاريخ الكبير"، وابن سعد في "طبقاته". وقد سبق أن قلنا إن القصد من كتب طبقات الرجال هو خدمة الحديث النبوي بالحكم على رواته، ووزنكم بأدق الموازين في الرواية والإسناد، وجرحهم أو تعديلهم"^(١).

وظهرت "الطبقات" لأعلام فنون عديدة كما عده محمد عبد الغني حسن مثل: الفقهاء والمفسرين والقراء والمحدثين والحفاظ والنحاة والشعراء والصوفية والقضاة والأطباء والفلاسفة والحكماء وغيرهم.

ومن أقسام السير السيرة الشعبية، وهي عمل أدبي عربي في قالب القصة، يسرد فيه الكاتب أحداث حياة الشخصية الرئيسية التي ظهرت بطولتها في مواقف خطيرة مثل الحروب وغيرها. وتُعرض هذه الأحداث في شكل الشعر والخطابة أيضا.

^١ نفس المرجع، ص: ٥٣

وهناك قسم آخر من أقسام كتب السيرة، وهو ما أُلف في سير النساء، وقال محمد عبد الغني حسن عن هذا القسم: "لم يسقط مؤرخو التراجم ومؤلفوها في الإسلام المرأة العربية المسلمة من حسابهم، وفي ذلك من تقدير النظرة الإسلامية للمرأة وإنزالها منزلتها ما ينبغي الإشارة إليه في بحث خاص. والحق أن مؤلفي التراجم عندنا قد أنصفوا المرأة حين وضعوها في قوائم أعمالهم، فأفرضوا بعض النساء بالترجمة في كتب خاصة، أو ترجموا لهن مع الرجال على السواء في كتب التراجم عامة..."^(١).

ومن هذا النوع كما ذكره محمد عبد الغني حسن: كتاب "بلاغات النساء" لأحمد بن أبي طاهر طيفور الخرساني (٢٠٤ - ٢٨٠هـ)، و"تاريخ النساء" لمحمد بن أحمد الأبيوردي (١٠٦٨ - ١١١٣م)، و"معجم النسوان" لابن عساكر، و"تاريخ نساء الخلفاء من الحرائر والإماء" لتاج الدين علي بن أنجب البغدادي (٥٩٣ - ٦٧٤هـ) وغيرها.

^١ نفس المرجع، ص: ٧٨

الفصل الرابع

وظائف السيرة ودوافع كتابتها

إن هناك كثيرا من الوظائف الهامة والمهمات العامة التي تقوم بها السير والتراجم، وهذه الوظائف هي التي أكسبت هذا الفن مكانته الأدبية المرتفعة، وهي التي رفعتة إلى ذؤابة المجد وذرورة القبولية. وكذلك هناك كثير من الدوافع التي دفعت الكُتاب إلى القيام بعملية التأليف في السيرة، سواء أكانت سيرة ذاتية أو غيرية. ومن تلك الدوافع دوافع شخصية أو اجتماعية أو علمية أو غيرها. وهذا الفصل يتناول بعضا من هذه الدوافع ومن تلك الوظائف على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

وظائف السيرة

كما لكل فن من الفنون العربية - كحال كل اللغات - دوره في إثراء الأدب العربي، للسيرة أيضا دورها الفعال في تطوير دائرة جماليات الأدب العربي، وذلك خلال أداء وظائفها الجسيمة. ومن أهم وظائف السيرة أنها وسيلة من وسائل التعبير، وتعتبر سجلا تاريخيا، وتقوم بتوجيهات وتفسيرات وتوضيحات، وتثقف وتعلم وتربي الجيل القادم. ويُفهم بيانها كما يلي:

السيرة كوسيلة للتعبير

السيرة وسيلة التعبير لدى الكاتب عن مشاعره وأحاسيسه التي تستتر في داخله مثل جميع الأنواع الأدبية الأخرى، فإن كاتب السيرة الذاتية يعبر على وجه الخصوص عن نفسياته الخفية، ويصور في كتابه ما عاناه من الآلام والأحزان في المراحل الماضية من طفولته، وما لقيه من المشقات في خلال مراحل نشأته المختلفة. وفي الحقيقة هذا

العرض الأدبي ينفجر من قلبه. وتتضاءل أحزانه خلال سرد هذه الأحداث وعرض تلك الأحاسيس، ولكن من الطبيعي أن الكاتب لا يبرز كل ما يتعلق بحياته أمام الناس، بل يختار من تجاربه المديدة ما يصلح للمشاركة والعرض.

ومن كُتاب السيرة الذاتية من يعرض أحداث حياته بشكل غير مباشر، ويعرضها كعرض لأحداث حياة شخص آخر، ومنهم من يعرض وقائع حياته مباشرة كأنه يقص قصته، ولكنه يختار الوقائع حسب الحاجة ووفق القراء وبقدر عال من التواضع، لأن كتابة شخص عن نفسه وكتبه ومساهمته وإنجازاته شيء يتطلب دقة كبيرة. قال "أندريه موروا" عن كتابة كاتب السيرة حول مشاعره: "إن موضوع التراجم باعتبارها وسيلة تعبير هو الذي اقتضى أن يتحدث المؤلف عن الموضوع الذي يختاره والذي يستجيب لحاجة مقدسة في طبيعته، وفي هذه الحالة سيكتب الموضوع بقدر أكبر من المشاعر الطبيعية، لأنه من خلال مشاعر ومغامرات الشخصية يعبر كاتب السيرة عن مشاعره هو، إن الترجمة من هذه الزاوية ستكون لونا من السيرة الذاتية تحت قناع الترجمة أو على الأقل ستكون ذلك في "حالات محددة" وهي تلك التي تتوافق فيها حياة البطل وحياة الكاتب، ..." ^(١).

السيرة كسجل تاريخي

كما أشير إليه من قبل هناك علاقة أصيلة بين السيرة والتاريخ، لأنها ولدت في فراشه ونشأت في حضنه وترعرعت بين يديه، حيث أخذت مضامينها منه، ومع ذلك تقوم السيرة مقام سجلّ تاريخي إذ تجمع المواد التاريخية وتحفظها وتعرضها أمام القراء، لأنها لا تذكر تاريخ ميلاد الشخص المترجم له ووفاته وما قام به من الأعمال وما ناله

^١ موروا، أندريه، "فن التراجم والسيرة الذاتية"، قام بنقله إلى العربية د. أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ١٩٩٩م، ص: ٨٣، ٨٤

من المناصب وما حصل عليه من الإنجازات والتقديرَات فقط، ولكنها تحيط بأمرٍ مفصلة عنه مع مراعاة الفترات الزمنية بين الميلاد والوفاة.

وإذا قام شخص معروف بكتابة ترجمته الذاتية وتصوير حياته في كتاب اضطر إلى أن يسجل ما وقع من الأحداث المتعلقة بحياته، فإذا كانت حياته في زمن شنت فيه حرب مثلا فمن الطبيعي أن يتحدث عنها ويبين انطباعاته عنها، وكانت هذه السيرة الذاتية سجلا تاريخيا لتلك الأحداث الحربية التاريخية أيضا، وإذا حدثت مأساة كرهية في فترة حياته اضطر الكاتب إلى تقديم تفاصيلها وكشف آلام ذبائحها وفرائسها، حتى تكون السيرة مدونة تجمع آثار تلك الكارثة الرهيبة التي لا يحب الناس ذكرها.

وبالمثل إذا كانت السيرة سيرةً غيرية تعالج حياة شخص غير الكاتب كان العرض منذ ولادته إلى وفاته، ولكن مع ذكر أهم الأحداث في حياته، فعندما يسجل الكاتب هذه الأحداث يكون هذا الكتاب خزانة تاريخية ومرجعا علميا، حتى يستطيع الجيل اللاحق أن يقرأه ويستفيد منه موضوعات تاريخية.

ومن أبرز أمثاله الكتب العديدة التي ألفت في سيرة الرسول ﷺ حينما تحكي سيرة الرسول ﷺ تحتوي على كثير من الأحداث المتعلقة بالشريعة الإسلامية، وهذا لا يقتصر على سيرته ﷺ فقط، بل يمتد إلى كل سيرة وترجمة لعلم من الأعلام وإن ظهر في سيرة الرسول ﷺ في شكل كبير لمكانة سيرته وسنته ﷺ.

السيرة كوسيلة للتوجيه والتفسير

إن الكاتب الذي يكتب في وسيلة من وسائل الإعلام يعتمد كثيرا على التفسير والتوجيه، وإن لهما أثرا غير متوقع، حيث قد يفهم القارئ مفاهيم غير مقصودة من خلال تلك العمليات التفسيرية، علاوة على ذلك فإنهما يمهلان ويمنعان التغيرات

والتبدلات في المجتمع، ولكن السيرة - خاصة السيرة الذاتية - يصغر فيها هذا الجانب كما قاله الدكتور عبد العزيز شرف: "وفي السيرة الذاتية يقل هذا الخطر، لأن كاتبها أكثر حرية من الكاتب في وسائل الاتصال العامة، وهو لذلك قادر على انتقاد النظام الاجتماعي أكثر من زميله في وسائل الإعلام، الأمر الذي يجعل أمام أدب السيرة الذاتية مجالاً أوسع لتحقيق النتائج المرغوب فيها، من حيث التوجيه والتفسير والنقد الاجتماعي مما يدفع بالتغير الاجتماعي في مسار أفضل"^(١).

فإذاً، تحل السيرة محل موجّه ومفسر، وتقوم بوظائفهما، وهذا التفسير أو التوجيه يقوم به الكاتب خلال سرد حياته إن كان كاتب السيرة الذاتية، أو سرد حياة غيره من الأعلام إن كانت السيرة الغيرية بحيث يفهم القارئ الحقيقة المنشودة، ويزيل الشكوك التي سوف تلحق به أثناء عملية القراءة، وهذا يحفظه من أخذ الثمار غير المقصودة عند عرض الوقائع بواسطة من وسائط الإخبار.

السيرة كوسيلة للتثقيف

السيرة - خاصة السيرة الذاتية - تلعب دورها الفعال في تثقيف الجيل الجديد الناشئ وتربيته، لأن من طبيعة الأطفال حبّ القصص، وتقليد أبطالها في أساليبهم وكلامهم وسلوكهم. فإذا سمعوا قصة شخص تُقدم له أسوة يقتدى بها في مراحل الحياة، أو قرأ سيرة علم من الأعلام ذات قدوة تُتبع حاولوا اقتدائه واتباع مظاهر محاسنه وتجليات بطولته. والذي استخدم السيرة أولاً كوسيلة لتثقيف النشء الجديد "جان جاك روسو" كما رآه الكاتب الشهير الدكتور عبد العزيز شرف.

^١ شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢م، ص: ١٢٣

هناك بعض الأسباب لاتخاذ السير والتراجم وسيلة للتعليم والتربية كما رآه الكاتب المذكور آنفاً، منها: دراسة حياة شخص واحد أسهل من دراسة تاريخ أمة هذا الشخص أو قبيلته أو مكانه. ومنها: من طبيعة الصغار أن يقتدوا بالأبطال وشخصيات المغامرات ورجال الشجاعة، وأن يحاولوا اتباعهم في أعمالهم اليومية من اللباس والمشى والحوار والمعاملات وغيرها، وهذا يسبب تطوير حدود معارفهم ومدى تجاربهم. ومنها: أن تؤدي حياة شخصية من الشخصيات البارزة التي يستحق الاقتداء بها هذا النشء إلى أعمال صالحة ونشاطات مثمرة عندما يقرأ سيرتها، مع ذلك تغرس في قلبه كراهية للرجال الأشرار. ومنها: من الاستطاعة أن يمثل الأفراد الجماعات عندما تُعرض ميزات هؤلاء الأفراد وتجاربهم لبحث شامل، ثم تعرض ميزات هذه الجماعات وتجاربها لبحث مثله.

هذه الوظيفة التثقيفية والتربوية للسيرة لاتقتصر على الفصول المدرسية وداخل جدرانها الأربعة فقط، بل تعمل أيضاً في خارج المدارس بتأثير وسائل الاتصال العظيمة، كما قال الدكتور عبد العزيز شرف: "وخارج المدرسة، فإن السيرة الذاتية أصبحت منتشرة بفضل وسائل الاتصال إلى جانب الكتاب كوسيلة رئيسية، وأصبحت تعالج على المسرح وعلى الشاشة. وأصبحت السيرة الذاتية والمفكرات واليوميات والمذكرات والذكريات الشخصية والرسائل، من المواد الجذابة لكثير من القراء في الصحف والمجلات والكتب، حتى إنها لدى معظمهم مادة التاريخ الوحيدة التي يقرءونها"^(١).

دوافع كتابة السيرة

لابد لكل فن أدبي من دافع يحرض صاحبه على أدائه، فالشاعر يكون وراء نظم أشعاره دافع يجلب إلى العملية الشعرية، وكذا القاص والروائي وأي أديب من أدباء اللغة

^١ نفس المرجع، ص: ١٢٩

العربية وغير العربية، كما أن السيرة أيضا لا تخلو من هذه الحالة، إذ تكون وراء كل كاتب السيرة سواء كان كاتب السيرة الذاتية أو الغيرية دوافع. تُعرف هذه الدوافع إما صريحة من أقوال الكُتاب، وإما غير صريحة وتُفهم بالقرائن. وإن من الكتاب كثيرين من يصرحون بدوافعهم إلى القيام بالعملية التأليفية في السيرة.

هناك أدباء كثيرون يكتبون في السيرة الذاتية لتبرير موقفهم من شيء ما، ومنهم من يكتبها لتقديم حياة مثالية حتى يقدر اللاحق على الاقتداء بها، ومنهم من يكتب لتخفيف اضطرابات قلبية أو إخماد ثورة نفسية، وفيهم من يكتب ليسترجع ذكرياته ويسير إلى ماضيه، حتى يوجد فيهم من يؤلف كتابا في سيرته لينفس نفسه ويسلي قلبه بهذه العملية، ومن يكتب كتابه في السيرة الذاتية أو الغيرية كي يكون مرجعا تاريخيا.

وقال رهنف السيد في مقالة "السيرة الذاتية في الأدب العربي": "فكانت وظيفة الكتابة هنا هي إظهار المكتوم، وتوثيق التاريخ للواقع والشخصية، وفي أغلب الأحيان كان دافع المؤلف في كتاباته هو أن يجعل القارئ يقتدي به، وفي أحيان أخرى كانت الدافع يعتمد على التوجهات الفكرية والثقافية والروحية"⁽¹⁾.

وقد عدّ الدكتور إبراهيم عبد الدايم هذه الدوافع ستة، ومضمونها كما يلي:

المدافعة عن الكاتب

وهذا الدافع يكتب الكاتب سيرته لمدافعة نفسه وتقديم براءته، أو بيان اعتذاره، ويحتاج إليه حين يقع في تهمة أو يُرمى بفاحشة، وقال: "وهي التي كتبت للدفاع أو الاعتذار، ومن أمثلتها ترجمة "حنين بن إسحاق" التي عبر فيها عما أصابه به حساده

¹ السيرة الذاتية في الأدب العربي - سطور bit.ly/3IUSHGr

من نكبات، وبرر أسباب كيدهم له، مدافعا عن نفسه، ثم ترجمة السموال بن يحيى المغربي، و ترجمة الطبيب المصري علي بن رضوان^(١).

الرغبة في التمسك بموقف ذاتي

في بعض الأحيان يكتب كاتب السيرة الذاتية ترجمته الشخصية لإثبات موقفه العقدي أو المذهبي أو السياسي أو السلوكي أو غيرها، ربما يقيم موقفه بالأدلة خلال عرض سيرته وسرد قصة بحثه عن هذه الحقيقة التي وصل إليها بعد طلب طويل. وذكر الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم أمثلة لبعض الكتب التي ألفت بهذا الدافع مثل: "السيرة الفلسفية" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥٠ - ٣١١م)، و"النصائح الدينية" للفيلسوف العراقي الحارث المحاسبي (١٧٠ - ٢٤٣م)، و"المنقذ من الضلال" لأبي حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥م) وغيرها.

التخفيف من ثورة نفسية أو انفعال نفسي

هناك بعض الكتاب والأدباء الذين يكتبون سيرهم الذاتية للتخلص من اضطراباتهم القلبية وثوراتهم النفسية وانفعالاتهم الداخلية. ومن الكتب المؤلفة بهذا الدافع "أخلاق الوزيرين" المعروف ب"مثالب الوزيرين" لأبي حيان التوحيدي (٣١٠ - ٤١٤هـ) حيث صور فيه ما عاناه من ابن العميد والصاحب بن عباد الوزيرين، إذ لم يجد عندهما من المكانة التي رغب فيها^(٢). وله كتب أخرى في هذا النوع، ومن الحقيقة أن تأليف الكتب في السيرة الذاتية بهذا الدافع يسلي الكاتب ويرحبه مما يعاني من المشقات ويخفف ما في قلبه من الأحزان.

^١ عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٩٧٥م، ص: ٣٣

^٢ أبو حيان التوحيدي - ويكيبيديا bit.ly/3SsZevr

تقديم حياة مثالية يقتدى بها

إن من الكتاب والأدباء من يكتب سيرته الذاتية ليقدم للناس قدوة ليقبلي بها من يحبه، وأسوة ليتبعها أصحابه، يبرز الكاتب في ذلك الكتاب ما حصل عليه من تجارب وخبرات، وما ناله من المعلومات، وما وصل إليه من النظريات. ومن أمثال كتب ألفت بهذا الدافع رسالة "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد" للفيق والمحدث والمؤرخ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كما ذكره الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم.

تقديم الحياة الفكرية

وهذا الدافع يؤدي الكاتب إلى كتابة وتسجيل حياته الفكرية، ويذكر فيها العناصر التي أسهمت في بناء شخصيته العقلية والنظرية، والتي أسهمت في تطوير مقدراته الفكرية ومهاراته الفنية، فمن الطبيعي أن يذكر الكاتب في كتابه هذا أساتيد البارزين الذين لعبوا دورهم الفعال في تكوين شخصيته والذين صححوه لما أخطأ ونصحوه لما استنصح، وأن يذكر بعض الكتب المهمة التي لها يد طولى في تشكيل أخلاقه وتنظيم سلوكه، والتي عاشت فيها منذ طويل الزمان بالقراءة والمراجعة والاستفادة. وألف كثير من العلماء كتباً عديدة مجاوبين عن هذا الدافع.

الحب في استرجاع الأحداث الماضية

ومن كُتّاب السيرة من يقوم بهذه العملية بدافع الحب في استرجاع الأحداث الماضية، وذكر الذكريات المفقودة، والتلذذ بالعودة إلى ماضيه البعيد، وأورد الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم لهذا النوع بعضاً من الأمثلة، منها: كتاب "الاعتبار" لأسماء بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ)، و"طوق الحمام" لابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦هـ)، و"النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية" لعمارة اليميني (٥١٥ - ٥٦٩هـ) وغيرها.

وهناك دوافع أخرى لكتابة السيرة فوق ما ذكره الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم،
ومن أهمها:

تسجيل الأحداث التاريخية

هذا أيضا من الدوافع المهمة لكتابة السيرة سواء أكانت ذاتية أو غيرية، لأن كاتب سيرته الذاتية تدفعه إلى هذه العملية فكرة تسجيل الأحداث الهامة في حياته التي تجدر بالذكر في التاريخ ليقراها من يأتي بعده. وكذلك كاتب السيرة الغيرية أيضا تدفعه فكرة تسجيل حياة الشخص المترجم له في طيات التاريخ ليستفيد منها من يأتي من اللاحقين. وهذا النوع أيضا كثير في الأدب العربي حيث يصعب ذكر أسماء كلها.

الباب الثاني

السيد أبو الحسن علي الندوي – حياته ورسالته

الفصل الأول: مولد الندوي وحياته

الفصل الثاني: الندوي ككاتب وأديب

الفصل الثالث: الندوي الرحالة

الفصل الرابع: رسالات حاول الندوي إنجازها

الفصل الأول

مولد الندوي وحياته

هو أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، اشتهرت أسرته بالأسرة الحسينية، لأن نسبها ينتهي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وقال هو نفسه عنها: "ينتهي نسب هذه الأسرة إلى محمد ذي النفس الزكية، بن عبد الله المحض، بن الحسن (المثنى)، بن الإمام الحسن السبط الأكبر، بن أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لذلك اشتهرت الأسرة بالحسنية"^(١). فاسمه هو علي، وكنيته أبو الحسن، ويعرف منسوباً إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما "الحسيني"، كما يعرف منسوباً إلى "دار العلوم ندوة العلماء" في لكهنؤ ب"الندوي". أما أمه فتنسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وقد اشتهرت هذه الأسرة الحسينية بشخصيات بارزة أخرى، وخدماتهم الجليلة في شتى المجالات، منهم السيد علّم الله بن فضيل الحسيني النقشبندي المتوفى عام ١٠٩٦هـ، ومنهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد الذي قتل واستشهد في حرب "بالاكوت" في سنة ١٨٣٠م. ومنهم جد الندوي العلامة فخر الدين بن عبد العلي الحسيني العالم المعدود والمؤرخ الشهير وصاحب مؤلفات ثمينة في السيرة والشعر في اللغة الفارسية والمتوفى سنة ١٣٢٦هـ. ومنهم والد الندوي العلامة الشيخ عبد الحي الحسيني صاحب علم وورع، ومؤلف موسوعة "نزهة الخواطر" وغيرها من الكتب الثرية بالمحتويات والمعلومات، توفي في سنة ١٣٤١هـ. ومنهم الدكتور عبد العلي الحسيني الطبيب الماهر والعالم النادر أخو أبي الحسن علي الندوي الكبير المتوفى سنة ١٣٩٠هـ، وهو الذي وجهه إلى طريق

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٢٨

المطالعة والكتابة، وأرشده إلى مجال التعليم والثقيف بعد أن مات أبوهما في صغر سنه.

مولده

ولد أبو الحسن علي الحسيني الندوي العالم المشهور والكاتب النابغ والأديب الأريب والداعية الهندي الكبير في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٤م، في قرية "تكية كلان" قرب "رائي بريلي" التي تقع في ولاية "أوترا برديش" الهندية، لأبيه الطبيب السيد عبد الجي الحسيني العالم والمؤرخ المعروف بـ "ابن خلكان الهند" المشهور بكتابه الموسوعي "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" - الذي قامت بإصداره دائرة المعارف بحيدر آباد، ثم أصدرته دار ابن حزم ببيروت بعنوان "الإعلام بمن في الهند من الأعلام" -، وصاحب كتب أخرى في فنون شتى، منها كما ذكره العلامة سيد عبد الماجد الغوري في كتاب "أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب"^(١): "الثقافة الإسلامية في الهند"، و"الهند في العهد الإسلامي"، - وهما أيضا في تاريخ الهند وحياتة من فيها من الأعلام -، ومنها "تاريخ غجرات" و"الوردة الرشيقة"، - هما في اللغة الأردية - و"تهذيب الأخلاق" - وله اسم آخر هو تلخيص الأخيار- و"منتهى الأفكار في شرح تلخيص الأخيار"، و"الغناء في الإسلام"، و"القانون في انتفاع المرتين بالمرهون".

وأمة السيدة خير النساء، وهي ابنة السيد ضياء النبي الحسيني، التي كانت مربية فاضلة وكاتبة بارعة وشاعرة مؤثرة، وقال سيد عبد الماجد الغوري عن نشاطاتها العلمية: "ولها بالأردية ديوان مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ باسم "مفتاح باب الرحمة"، ورسائل في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية باسم "حسن

^١ الغوري، سيد عبد الماجد، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ص: ١٤٣

المعاصرة"، وكتاب لتعليم الشؤون العائلية والمطبخ باسم الذائقة^(١). وقد ولد بنعم الله تعالى في أسرة ذات علاقة أصيلة بالعلم والثقافة، وأدته هذه البيئة إلى مطالعة الكتب الكثيرة النافعة والتفكير في الأمور الجليلة المجدية.

أما أعضاء أسرته فهم ما عدا الأبوين أخوه الأكبر وأختاه، الأخ الأكبر هو الدكتور السيد عبد العلي بن عبد الحي الحسيني المذكور آنفاً، هو من خريجي جامعة لكهنؤ في علم الطب، وتعلم اللغة العربية والفارسية والفقهاء الإسلامي وأصوله وسائر العلوم الإسلامية، كما تعلم حضارة الغربيين والشرقيين، وأخذ منها ما هو نافع وترك ما هو ضار. وكان الطبيب تقياً ورعاً وممثل الدين الصحيح آخذاً تعاليمه وآدابه.

وكانت أخته الكبرى السيدة أمة العزيز بنت عبد الحي كاتبة الرسائل ومؤلفة الكتب، وكان اهتمامها أيضاً بالكتابة في السيرة والتأليف في الترجمة، وتولد من يراعها الحاد كتاب "سيرة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها"، وكتاب "سيرة أسماء بنت الصديق رضي الله عنها"، وقد اشتهرت أيضاً بأبنائها الأعلام، وهم: السيد محمود حسن، والسيد محمد الثاني، والسيد محمد الرابع الحسيني، والأستاذ محمد واضح رشيد الندوي. أما أختها الكبيرة فهي السيدة أمة الله تسنيم، اشتهرت باسم عائشة بي، وهي أيضاً كانت كاتبة بارزة وشاعرة مرموقة، كما كانت رئيسة تحرير مجلة "رضوان" الأردنية. ومن تصانيفها "زاد السفر"، و"موج تسنيم".

نشأته

وقد تبين مما مضى أن العلامة الندوي نشأ في بيت اهتم بالعلم والعلماء، وأسرة اعتنت بالتأليف والمؤلفات، سهّلت له هذه البيئة المنزلية طريق التعلم والتأليف، كما يسرت

^١ نفس المرجع، ص: ١٤٨

له هذه الظروف الأسرية القراءّة والدراية، وكان التّأليف في فن ترجمّة النبي ﷺ وأعلام المسلمين وزعماءهم أحبّ موضوع لدى هذه الأسرة وأعضائها، فاستطاع الندوي شرب هذا المعين الصافي من أهله الطيب ونسبه الكريم.

نشأ الندوي في بيت غشيه الفقر، فاضطر أعضاء أسرته إلى مهن شتى مثل إنشاء مصنع القراميد، الذي توقف فوراً بقلّة المحاصيل. مع هذا الفقر وذلك الحرمان، كان منذ صغر سنه عاشق الكتب ومدمن القراءة، ومما يدل على حرصه على القراءة حادثة جرت في الخامس أو السادس من عمره، هي أن كانت عنده نقود قليلة لا تبلغ قرشين، وذهب بها إلى صيدلية في سوق أمين آباد لشراء الكتاب، وهو لا يدري بأن الكتب لا تباع إلا في دكاكينها الخاصة، ودفع النقود للتاجر وطلب منه الكتاب، ربما ضحك في النفس، وقال الندوي عن هذه الحال: "وتفطن صاحب الدكان إلى أن هذا الطفل ساذج بريء من أسرة كريمة، وكان عنده فهرس الأدوية بالأردية، فقدمه إلي، ورد معه النقود أيضاً، فلا تسأل عن سروري وبهجتي، فقد وجدت الكتاب ورجعت بالنقود أيضاً، ووصلت إلى البيت وأنا رافل في الفرح والسرور، وزينت بهذا الكتاب مكتبي الصغيرة التي تكونت من تلك الكتب والرسائل التي كان والدي يستغني عنها ويتركها في مكان، أو يضعها في سلة المهملات، وهكذا كان حال أختي في حبهما للكتاب والشوق الزائد إليه"^(١).

وفاة الوالد

توفي والده الطبيب السيد عبد الحي الحسني في ٢ من فبراير سنة ١٩٢٣م، وكان أخوه الكبير في مدراس عند وفاته، ولم يعرف شيئاً من هذا الخبر، وكان الندوي بين الثامنة والتاسعة من سنّه حينذاك، وكان هذا اليوم يوم الحزن الشديد كما كانت تلك

^١ نفس المرجع، ج: ١ ص: ٥٧.

اللحظة لحظة الجزع العميق. وبعد ما رجع أخوه الدارس المولع بدراساته ودوراته من مدراس كان مشغولا بأمور الأسرة وأبًا لأختيه المتوجعتين وأخيه الصغير كما كان ابنا بارا بأمه وخادما لها، وقال الندوي عن معاملته: إنه كان يعاملنا معاملة أب حنون بل معاملة أم رؤوم.

ويجدر هنا بذكر رسالة تلقاها الندوي بعد وفاة أبيه بأيام قليلة من ابن العلامة صديق حسن خان القنوجي السيد علي حسن المرحوم التي تسليه عن تعاسته والتي كتبت فيها: "لا ينبغي أن يجول في خاطرك أن "بابا" غير موجود، فكيف أتعلم وأدرس؟ فقد سمعت أنك تقول ذلك للناس في حزن واضطراب، فبارك الله في حياة أخيك الأكبر الحنون، فسوف يوفر لك كل وسائل التعليم، وعلاوة على ذلك، فإن أنظار كل الناس متجهة إليك، فلا تدع للزع والاضطراب إليك سبيلا، فإنك سوف تتعلم - إن شاء الله - بكل هدوء وسهولة، وأدعو الله تعالى أخيرا أن يطيل عمرك ليرفع بك منارة أسرته"^(١).

دراسته

إن لأساتذته تأثيرا قويا في تكوين شخصيته وتنمية مهارته، فمن نعم الله تعالى عليه أن أتاحت له فرصة تلقي العلوم من شيوخ مشهورين وأساتذة متبحرين، الذين كانوا في العلم والتعليم قدوة وسادة. تعلّم الندوي القرآن وقرأه على الحافظ محمد سعيد الذي كان إمام مسجد محمد علي لين، ودرس أصول اللغة الأردية على الشيخ محمود علي، وبدأ دراسة اللغة الفارسية بعد أن صار يتيما بموت أبيه، كما درس اللغة الأردية والحساب على أستاذه محمد زمان. وحفظ "الطوال" على والدته، التي كانت تحبه أكثر ما كان في حياة أبيه، وكثرت شفقتها عليه، وحاولت تربية ابنها الصغير وتثقيفه كل المحاولة، كما حاولت ألا يشعر ابنها نقصا ولا قصرا في الحياة الدنيوية والتسهيلات

^١ نفس المرجع، ص: ٧١، ٧٠.

الأساسية والتعليم والتربية ، وألا يشعر مرارة اليتمة وبسيلتها. وعلمته الآداب الطبية والأخلاق الفاضلة والخضوع التام لله وإحسان عباداته. وكانت تدعو الله له في أكثر الأوقات، وكانت تقول: "إلهي يعيش ابني عليُّ في الدنيا في حفظك وأمانك ورعايتك، ويستنير به سراج العالم ومصباح الكون، ويخصب ويخضر به بستان العالم، رب أجب فأنت المجيب، واجعل عليًّا فرحا سعيداً"^(١).

كان أخوه يعتني به اعتناء حسنا ويهتم بأموره اهتماما بالغاً، مع حب أخوي ولطف أبوي، وكان يراقب أعماله الدينية ويدربه تدريباً تدريجياً. قال الندوي عن هذا الاعتناء: "وقد كان أخي الأكبر يلتزم في هذا الوسط بأمرين اثنين التزاماً شديداً، ويلاحظهما علي: الأول هل أصلي الصلوات مع الجماعة أم لا؟ فكان إذا جاء من كلية الطب - وكان مجيئه بعد المغرب أكثر الأحيان - سألتني أحياناً: هل صليت الظهر والعصر والمغرب؟ فأجيب بالإثبات، وإذا شك حيناً في جوابي أمرني بأن أصلي هذه الصلوات الثلاثة أمامه، والأمر الثاني أن لا أجالس المستخدمين وحاشية السراي، وكان عددهم كبيراً، ولا أخالطهم، وأن لا أتناول كتاب رواية أو مسرحية من أحد وأقرأه، بل كان هو يختار لي الجيد النافع من الكتب من مكتبتنا الشخصية ويأمرني بمطالعتها، وكان أول كتاب ناولنيه من هذه الكتب هو كتاب "سيرة خير البشر"، ثم طالعت بعد ذلك كتاب "رحمة للعالمين" وكلاهما في السيرة النبوية"^(٢).

وكانت دراسته الأولى للغة العربية عند الشيخ خليل بن محمد في بيته، كان محاضراً في جامعة لكهنؤ المدنية، كان يكتب الفصول الابتدائية من الصرف على الدفتر ويطلب منه حفظها. كان حسين بن محمد أخو الشيخ خليل الزميل الوحيد في الدراسة. ومن الكتب العربية التي درسها على هذا الشيخ الجليل في هذه المرحلة "الطريقة المبتكرة"،

^١ الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ٥٥

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٧٦

و"مدارج القراءة"، و"كليلة ودمنة"، و"مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع"، و"كتاب الضريري"، في النحو. وبعد أن فرغ من هذه المرحلة الابتدائية درس بعض أمهات الكتب العربية مثل "نهج البلاغة"، و"مقامات الحريري"، و"دلائل الإعجاز"، و"القصائد العشر".

نال الندوي الملكة الغربية والمهارة العجيبة في اللغة العربية مبكرا، ومما يدل على مهارته اللغوية أنه حضر مع أخيه الدكتور عبد العلي الحسيني جلسة حضرها كبار الشخصيات من أنحاء العالم عقدت في ندوة العلماء في عمره الثاني عشر حيث كان أصغرهم عمرا، وتحدث مع الضيوف العرب باللغة العربية الفصحى، حتى عجبوا منه ومن ملكته اللغوية ومهارته التعبيرية، وحاز مكانة فائقة في قلوبهم. وقد نال الندوي هذه الملكة بدرسه على الشيخ خليل اليماني والشيخ عزيز الرحمن والشيخ طلحة بن محمد الحسيني - وكان الأخيران منهم عميه -.

الندوي في جامعة لكهنؤ

أدخل الندوي في جامعة لكهنؤ في سنة ١٩٢٧م في عمره الرابع عشر بعد أن أتم دراسته عند الشيخ خليل اليماني، ويرجع فضله أيضا إلى أخيه الطيب الطيب عبد العلي الحسيني وأستاذه المذكور، وكان الندوي أصغر الطلاب سنا في تلك المرحلة - في صف دراسة الأدب العربي -، وكانت الكتب المقررة لتلك المرحلة معروفة ومألوفة لديه حيث قرأها من قبل. وقال د.محمد أكرم الندوي عن دراسته هناك: "والتحق الشيخ بقسم اللغة العربية بجامعة لكهنؤ بتوجيه من شيخه اليماني، وكان طالبا ممتازا في الجامعة، ونال شهادة "فاضل أدب" بتفوق، وفاز بوسام عام ١٩٢٧م، ونال في السنة التالية شهادة "فاضل حديث" وهو أصغر طلاب القسم"^(١).

^١ الندوي، د.محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ٦٣

وتلقى من الجامعة آداب اللغة الأردنية وغاص في أعماقها، كما تلقى اللغة الإنجليزية من أستاذه خليل الدين، ومن الأستاذ محمد سميع الصديقي، وكان ذا شغف بتعلمها، لأن بعض الناس من ذويه شجعوه عليه، ولفتوا نظره إلى أهمية تلك اللغة في ذلك العصر الجديد، وإلى فرص المهن الحكومية، ولكن أمه الرؤوم علمت هذا الخبر فكتبت رسالة إليه وهي قائلة فيها: "يا علي! لا يغرناك كلام أحد، إن ابتغيت مرضاة الله تعالى، وأحبت أداء حقوقي، فانظر إلى أولئك الرجال الذين قضوا حياتهم في طلب العلم، ما أرفع شأنهم، وأعلى مكانتهم، انظر إلى ولي الله المحدث الدهلوي، وعبد العزيز الدهلوي، وعبد القادر الدهلوي...يا علي! لو كان لي مئة ولد لوقفتهم جميعا لعلم الدين"^(١). جعلت هذه السطور إياه يركز على تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية بدون غرض النظر عن سائر اللغات كالإنجليزية والأردية.

في دار العلوم

التحق الندوي بدار العلوم لندوة العلماء في عمره الخامس عشر، وتعلم العلوم الدينية من الأحاديث النبوية والفقهاء الإسلاميين والتفسير كما تعلم الآداب العربية. أما دراسته للأحاديث النبوية فكانت على الشيخ المحدث حيدر حسن حان الطنكي، فدرس عليه صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي، كما قرأ تفسير البيضاوي أيضا عليه، وعلمه الشيخ الفقيه شبلي الجيراجبوري الأعظمي الفقه الإسلامي، وأخذ أنواع العلوم في مختلف الفنون من سائر الأساتذة العباقرة مثل الأستاذ خليل الأنصاري، والأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي، والسيد سليمان الندوي، والشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، وعلى هذا الأخير أتم دراسته للأدب

^١ نفس المرجع، ص: ٦٤

العربي، ونبغ بهذه الدراسة نبوغاً بالغاً في اللغة العربية حتى يصير ماهراً فيها خطاً وخطاباً.

حبه للكتب ومطالعه الواسعة

كان للندوي شغف زائد بالكتب والمؤلفات منذ صغر سنه، وكان يقرأ كل ما يرى مطبوعاً، وكل ما يجد يصلح للقراءة، نال هذا الشغف من أبيه المؤرخ وأمه الأديبة. وهذا الشغف هو الذي أوصله إلى توسع علومه وتبحر معارفه وتفتح أعينه وتلمع أفكاره. استمرت عادته للقراءة حتى أنفاسه الأخيرة بدون توقف وتفتر. ومن نعم الله التي أنعم بها عليه إعطاه الفرص الكثيرة لقراءة المؤلفات المفيدة وأمّهات الكتب القديمة. قال هو عن هذا الشغف الشديد: "إن الكتب التي يقرأها الناس كثيرة، وإن الكتب التي قرأتها لكثيرة أيضاً، ولي نهامة موروثه وشغف زائد بالكتب، انتقل إليّ من أبوي، فكنت أقرأ من صغري كل ما يقع في يدي من مطبوع"^(١).

ومما يدل على حبه للكتب وشغفه بالقراءة حادثة وقعت في صغر سنه، هي أنه رأى يوماً اسم كتاب "رحمة للعالمين" للقاضي محمد سليمان المنصورفوري في قائمة مكتبة شبلي التجارية في لكهنؤ، ورغب في الحصول عليه أشد الرغبة وطلبه بالبريد، ولكن لما وصل الكتاب لم يكن لدى أمه المبلغ الكافي لدفع ثمنه، وقال الندوي نفسه عن هذه الحادثة: "وأذكر من حوادث تلك الفترة أنني مرة وقع نظري على اسم كتاب "رحمة للعالمين" في قائمة مكتبة شبلي التجارية في لكهنؤ للقاضي محمد سليمان المنصورفوري، ووجدت في نفسي فور قراءة اسمه انجذاباً وشوقاً إليه، فطلبت الكتاب بالبريد، وجاء الكتاب، ولم يكن عند والدتي ما تدفع به ثمن الكتاب، فاعتذرت عن تسلم الكتاب، فلجأت إلى البكاء وهو ملجأ الأطفال الأخير والشفيع الذي لا يرد

^١ الندوي، أبو الحسن علي، شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص: ١٢٥

شفاعته، وتطوع أحد الأقارب الشيخ فدفن الثمن حتى تسلمت الكتاب، وقرأته في شغف وشوق وانقطاع إليه وتفان فيه، وقلّ ما كان لكتاب آخر من التأثير في قلبي وعقلي مثل ما كان لهذا الكتاب"^(١).

مؤلفات أثرت في شخصيته

إن للكتاب تأثيراً قويا في حياة أكثر القراء، وهو يلعب دوره الفعال في تكوين شخصيتهم، وإن القارئ المولع بقراءته يعيش مع الكاتب وأفكاره، ويعايش الأحداث المذكورة فيه، يعلو مع علوه وينزل مع نزوله، يشعر كأن الكاتب يخاطبه خطابا مباشرا. وكان العلامة الندوي الذي اعتاد القراءة منذ نعومة أظفاره وعايش الكتب قبل بلوغه أكثر متأثرا بالكتب التي طالعها، ولم تكن قراءته سطحية، ولكنها كانت عميقة الجذور، متشعبة التفكير، ومبثوثة العاطفة. قد أثرت فيه كتب عديدة أعظم التأثير، فلها يد طويلة في تكوين ذاتيته المستقيمة، وترسيخ الأخلاق الفاضلة في قلبه، وتسديد مناهجه التأليفية، وتشكيل أساليبه التصنيفية.

وقد عاش الندوي عيشا طويلا في كتب هامة ذكرها في كتابه "شخصيات وكتب"، منها "فتوح الشام" لأبي عبد الله محمد بن عمر واقد الواقدي. بدأت علاقته بهذا الكتاب منذ صغر سنه. وقد قرأ السيد عبد الرزاق الحسيني أحد أعمام والده شعرا مطولا في اللغة الأردية يحتوي على مضمون هذا الكتاب التاريخي، وكان هذا الشعر يُنشد في اجتماعات الرجال كما كان ينشد في اجتماعات خاصة بالنساء أيضا، فاستطاع الندوي الصبي حضور اجتماعات النساء مع أمه، كانت خالته الكبرى السيدة صالححة بنت السيد ضياء النبي الحسيني تنشده بصوت جميل جذاب يزرع في نفوس النساء الحاضرات سيرة الصحابة والمجاهدين السابقين في سبيل الله، ويؤثر في قلوبهن تأثيرا

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج ١: ص ٨٢، ٨١.

كبيراً حتى تظهر علامات هذا التأثير في وجوههم واضحة. وكانت هذه الجلسة تؤثر في قلب الندوي الصبي الصغير تأثيراً كبيراً، وحببت إليه كتاب "فتوح الشام" الأصلي، كما حببت إليه الصحابة الكرام المذكورين فيه المضحين في سبيل الله بما لهم وبماليهم.

وقال عن تأثره بهذا الكتاب: "كانت من محاسن هذا الكتاب تلك الثقافة الدينية والتاريخية التي حصلت لي بفضلها، فقد عرفت كثيراً من الصحابة وأبطال الجهاد الإسلامي، وكثيراً من المدن والبلدان الإسلامية والوقائع التاريخية في سن مبكرة، حين لم يعرفها كثير من أترابي ممن حرموا هذه الفرص في سن عالية..."^(١). وقال أيضاً: "إن لهذا الكتاب فضلاً علي لا أنساه فقد غرس في قلبي حب أصحاب رسول الله ﷺ وحب المجاهدين الأولين، وإجلال الجهاد وبذل الجهود والأرواح في سبيل الله، ... وتقبل الله تلك المجالس العطرة التي تعرفت فيها بهذا الكتاب وتأثرت به، وما أحوج بيوتنا اليوم، وما أحوج المجتمع الإسلامي إلى مثل هذه المجالس، وإلى مثل هذه الكتب"^(٢).

ومنها كتاب "مد الإسلام وجزره" لصاحبه أطفاف حسين، ويعرف هذا الكتاب باسم "مسدس حالي". هذا كتابٌ شِعْرٍ مطول، نظمه الشاعر هذه المنظومات مستجيباً لطلب صديقه السيد أحمد خان. قال الندوي عن سبب هذا الطلب: "نظمه الشاعر في ثورة فكرية قد عمت الهند وعمت العالم الإسلامي، وكل ما ينظم في حال ثورة خليق بأن يبقى ويؤثر، لقد فشلت ثورة سنة ١٨٥٧م الكبرى التي قامت للتخلص من نفوذ الإنجليز وحكم الشركة الشرقية الهندية، وفقد المسلمون الثقة بأنفسهم، وأصيبوا بالجمود واليأس والفرار من معترك الحياة، والانطواء على أنفسهم، والمقت الشديد لكل جديد نافع مصدره الفاتح الأجنبي فكانت الحاجة شديدة إلى أن تعاد الثقة إلى أنفسهم ويبعث فيهم الاعتداء بماصيهم، والاعتزاز بما يملكون من تاريخ مجيد، وتراث

^١ الندوي، أبو الحسن علي، شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص: ١٢٨، ١٢٩

^٢ نفس المرجع، ص: ١٢٩

عنيد، وأن يحملوا على مواجهة الحقائق والاقتطاف من ثمرات النهضة الجديدة، ودراسة العلوم العصرية وتعلم لغة الحكومة"^(١). وفي هذا السياق تم اقتراح السيد أحمد خان على الشاعر.

كان الندوي متأثراً بهذا الكتاب وما فيه من الأبيات والمحتويات، كما كان يتأثر به أتباعه، وكانت أخته تشدان بعض الأبيات من هذا الكتاب، وحفظ الشيخ كثيراً من أبياته. ولكنه انتقد هذا الكتاب بعد أن كبر انتقاداً حاداً شديداً، وأظهر ما فيه من العيوب.

ومنها كتاب "سيرة رحمة العالمين" لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصورفوري (وقد سبق ذكره) هذا هو الكتاب الأول الذي قدمه أخوه الأكبر - الذي كان يتولى بتربيته بعد وفاة والده - إليه لترسيخ سيرة النبي ﷺ في قلبه. وحصل الندوي على هذا الكتاب في صغر سنه عبر البريد، ولما وجدته أكب على مطالعته بكل حب ونشاط، وقال عن لذته وشدة فرحه عند وصوله إليه: "إن غاية ما أستطيع أن أقول: إنها لذة الروح، وهل الأطفال لا يحملون الأرواح؟ ولا يشعرون باللذة الروحية؟ بلى والله! بل إن الأطفال أشرف روحاً وأصح شعوراً، وإن عجزوا عن التعبير"^(٢). ومن الأمور المؤثرة في عقله ونفسه تاريخ هجرة النبي ﷺ، واللحظات الذهبية لوصوله إلى المدينة وأجمل الاستقبال الذي تلقاه من طرف الأنصار، وقصة غزوة أحد، وسيرة بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم مثل مُصعب بن عمير رضي الله عنه. وقال مادحا هذا الكتاب: "وشكراً لهذا الكتاب وصاحبه لأنه أثار في نفسي كامن الحب وحركه، وشكراً على أنه وجّه هذا الحب المنبعث المتحرك إلى من يستحقه بما فُطر عليه من معاني الحسن

^١ نفس المرجع، ص: ١٣١، ١٣٠.

^٢ نفس المرجع، ص: ١٤١.

والإحسان، ومعجزات الجمال والكمال، الذي لم يخلق في هذا الكون - وهو الخلاق المبدع - أجمل منه سيرة وصورة، وأقوم منها خلقاً وحُلُقاً ﷺ^(١).

ومنها كتاب "إرشاد رحماني" في اللغة الأردنية للشيخ محمد علي المونكييري الذي أسس ندوة العلماء، حكى فيه المقابلات الشخصية التي جرت بينه وبين علماء مشهورين مثل الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي وغيره من الأفاضل.

ومنها كتاب "الفاروق" ألفه العلامة شبلي حبيب الله بن سراج الدولة النعماني. وقد قرأ الندوي هذا الكتاب عددا من المرات، وتأثر به تأثرا حارا، وإن أهم أسباب هذا التأثير هو وصف بعض الحروب وقعت في العراق، وقال عن هذا التأثير: "إن ألفاظ "الفاروق" الفخمة وحرارة جملة وعبارته تنزل كالصاعقة وتمضي كالسيوف والأسنة، إن المجهود الذي بذله العلامة للدفاع عن نظام الخلافة كان فوق وعيي واستعدادي في ذلك الوقت لإدراكه وفهمه، ولم يعد يهمني اليوم علميا، ولكن الجزء الذي يشتمل على عرض الوقائع وتصوير الحوادث كان أثرها قد خلف تأثيرا عميقا في نفسي في تلك الأيام، ولم يزل يحمل بعض ذلك التأثير إلى اليوم"^(٢).

ومن الكتب التي أثرت فيه كتاب "تاريخ كجرات" لأبيه الطبيب السيد عبد الحي الحسني، يرى الندوي هذا الكتاب نموذجا جميلا لرصانة الأسلوب ومتانتة ورشاقة الكتابة وجمالياتها، كما يرى أنه مؤلف يجمع بين الأسلوب التاريخي والعرض والرونق، وامتد تأثيره به وتوسع حتى كتب مقالته الأولى متبعا أسلوبه.

ومن تلك الكتب "زاد المعاد في هدي خير العباد" للعلامة ابن قيم الجوزية، وأثر هذا الكتاب في حياته الدينية، حتى كان لديه كخزانة الكتب المفيدة، وصاحب يصاحبه في

^١ نفس المرجع، ص: ١٤٤

^٢ نفس المرجع، ص: ١٥٢

الرحلات الطويلة، ومعلم يعلمه الأحكام الإسلامية، والآداب الفائقة والأخلاق الفاضلة، ومنه تعلم أكثر الأذكار الواردة والأدعية المسنونة.

ومنها كتاب "قيام الليل" للشيخ محمد بن نصر المروزي البغدادي، وقال الندوي عن بعض المزايا لهذا الكتاب: "ومن خصائص هذا الكتاب أنه لا يخاطب العقل ولا يعتمد على الدليل فحسب، بل يضرب على أوتار القلب ويمس سويداء النفس، ويغير وجهة الهواية والشوق، وبهما العبرة. إنه أتى في كتابه بقصص للسلف وتدبرهم في القرآن وفهمهم له، وجمع فضائل قيام الليل بطرق بديعة مؤثرة إذا قُيِّض لشاب في ريعانه أن يعكف على دراسته، أصبح هذا الكتاب كمرَبٍّ ومرشد كامل له"^(١).

ومن الكتب المؤثرة فيه كتاب "تفسير سورة النور" لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني رحمه الله، وأعانه هذا الكتاب على فهم المسائل الهامة والأحكام الشرعية والأخلاق الطيبة والآداب المثمرة التي اشتملت عليها هذه السورة القرآنية. ومنها كتاب "الجواب الكافي عن الدواء الشافي" للإمام ابن قيم الجوزية، واستطاع أبو الحسن الندوي بدرس هذا الكتاب أيضا تصفية قلبه وتهذيبه وتسديد نفسه وتطهيرها.

ومنها كتاب "تعليم المتعلم في طريق التعلم" للإمام برهان الدين الزرنوجي، ويتضح من قول الندوي عن هذا الكتاب أنه هو الذي حثه على تعظيم المصنفات النافعة واحترام الأساتذة الربانية وحفظ آداب المتعلم في طريق التماس العلم والمعرفة، وهو الذي رسخ في قلبه أهمية المحافظة على العلاقة المتينة بالمعلمين المربيين.

ومن تلك الكتب التي عاش فيها الندوي وأثرت فيه "مذكرات والدي"، يشتمل هذا الكتاب على لحظات سفر أبيه إلى العلماء البارعين والأساتذة النابغين للاستفادة منهم عندما كان طالبا في عام ١٨٩٤ م، وفهم الندوي من هذا الكتاب تصوير أبيه للأماكن

^١ نفس المرجع، ص: ١٥٥

الهامة التاريخية في دهلي وما حولها من البقع والمؤسسات المتميزة التي لعبت دورا كبيرا في سبيل نشر العلوم الدينية والقيم الإسلامية. وقال عن هذا الكتاب: "وقد أثر في قلبي تأثيرا جذريا عميقا رغم بساطة ألفاظها وسهولة تعبيرها، وتغلغل في أحشائي حب العلماء الربانيين، وذقت حلاوة ما وجدت في كتب الأدب والشعر والقصص والروايات، وبها نشأ في قلبي حب الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وملك قلبي وعقلي، فكلما ذكره الوالد ترنحت أعطافي واهتز قلبي، وطربت نفسي، وذاق القلب لذة عجيبة"^(١).

ومنها كتاب "الإسلام على مفترق الطرق" للكاتب المشهور والمفكر البارع محمد أسد، يمتد قدر تأثيره فيه إلى أن يفهم عيوب الغربيين الواقعية، وماهية حضارتهم، وعدم موافقتهم على الحضارة الإسلامية، ومدى التفرق بينهما.

ومن الكتب التي تأثر بها الندوي كتاب أبيه "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" - أصدره دار القلم بدمشق بطبعة جديدة بعنوان "الإعلام بمن في الهند من الأعلام" - هذا كتاب موسوعي يستغرق مجلدات ثمانية ثمينة، يحتوي على سير أعلام الهند يبلغ عددهم أربعة آلاف وخمسة مئة، قرأ الندوي هذا الكتاب مرات، واستطاع بهذه القراءة أن يعرف تاريخ الإسلام في الهند حق المعرفة، ويفهم أحوال الرؤساء والأعيان، وبيئات الكتاب من أهل الشهرة وأصحاب الأقلام الساحرة. وقال الندوي عن هذا الكتاب: "إنما كان هذا كنزا ثمينا للمعلومات والثقافة، لا يمكن لمن يبحث في موضوع يتصل بالهند وعهدها الإسلامي أن يغض البصر عنه، وقد وجدت في هذا الكتاب دائما متعة روحية، ولذة أدبية وفائدة علمية، وهو من الكتب المعدودة التي لا أمل قراءتها على كثرتها وتكرارها"^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ١٥٧

^٢ نفس المرجع، ص: ١٥٩

ومن الكتب التي عاش فيها الندوي وأثرت في شخصيته كتاب "الدين والعلوم العقلية" لصاحبه الأستاذ عبد الباري الندوي، وكان أستاذا في فن الفلسفة في الجامعة العثمانية بحيدرآباد. وفي الحقيقة هذا كتاب مترجم من اللغة الأردية إلى اللغة العربية - اسمه الأصلي "مذهب وعقليات" - والذي قام بترجمته هو الأستاذ واضح رشيد الندوي، وسماه "بين الدين والعقل". أما "الدين والعلوم العقلية" فهو تسمية دار ابن حزم ببيروت عندما أصدرته بطبعة جديدة. وقد بين صاحب الكتاب فيه ما للإنسان من مقدرة الفكرة وإعمال القريحة وبذل الجهود العقلية وحدودها، كما بين أهمية النقل ومنزلته.

علماء عاصريهم الندوي وتأثيرهم

وأتاحت للندوي معاصرة ومعاشرة كثير من أهل العلم والفهم، حيث أثروا في حياته العلمية، وساهموا في تكوين شخصيته التعليمية، وتطوير مقدراته التأليفية. فبهم علماء الهند وأعلامها، وبهم من في خارج القارة الهندية الذين اشتهروا في مجالاتهم العلمية وميادينهم الإنشائية. وذكر الندوي اثني عشر عالما منهم مفصلا في كتابه "شخصيات وكتب" تحت عنوان "رجال عاصريهم".

منهم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، الذي قام بإنشاء جماعة التبليغ، كان مؤمنا تقيا وعالما نشيطا وداعيا إسلاميا، ولم يكن خطيبا مصقعا بليغا. وكانت بينه وبين الندوي علاقة قوية، وقال عن زيارته الأولى للشيخ: "وقابلنا الشيخ إلياس بحفاوة وحب وعطف، كأنه كان منا على ميعاد، ولا سيما عندما علم الشيخ بأني مؤلف كتاب "سيرة السيد أحمد الشهيد"، وأني أنتمي - نسبا - إلى صاحب هذه السيرة الإمام الشهيد، ازدادت حفاوته وحبه وتجاوبه، وقد كان أول ما أثر فينا وأعجبنا به، وكانت أول تجربة لي في حياتي، هو عطف الشيخ البالغ وحب المتدقق، وعاطفته الجياشة بحب وحفاوة

كانت تزداد كل لحظة، وصرح مرة بقوله: "لا نزال إلى يومنا هذا في ظل تجديد الإمام الشهيد"، ثم رجعت إلى لكهنؤ، ولكن القلب تعلقَ به، وشغفني حبا"^(١).

ومنهم حسين أحمد المدني العالم الخاضع لله والمتصف بصفات الخير والرشاد من الصدق والإخلاص والهمة والشجاعة والصبر والتحمل والعفو وإعانة الفقراء. وكانت زيارة الندوي الأولى للشيخ في يوم حفلة عقدت في دار العلوم بمناسبة إتمام دفعة من الطلاب دراستهم المقررة من القرآن، وكان الشيخ ضيفَ شرف في الحفلة وصاحب الخطاب الرئيسي، وكان الندوي واحدا من المجتمعين في قاعة الحفلة والمستمعين للمحاضرة. وبعد هذه الزيارة نشأت بينهما علاقة وثيقة متينة، حتى كان الشيخ ينزل كثيرا بيته في لكهنؤ خلال رحلاته، واستطاع الندوي أن يجالس الشيخ ويرافقه وينتفع بعلمه وأن يؤاكلة ويبيت معه كثيرا من الليالي.

أتيح له هذه الفرص كلها بمكانة أسرته وفضل أخيه الدكتور السيد عبد العلي الذي لعب دوره الفعال المؤثر كمدير ندوة العلماء وكأحد خريجي دار العلوم في الدراسات الإنجليزية. ومما جذب الأستاذَ إلى أسرة الندوي تاريخها المنير، خاصة تاريخ حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد. وكذلك كان أبوه أيضا مديرا لندوة العلماء ومن زملاء المدني. وقال الندوي عن سروره وغبطته عند ما علم بأن الشيخ يأتي إلى بيته ويقيم عنده: "إذا عرفت أن الشيخ ينزل عندنا ويقيم في بيتنا أياما وليالي، بل وأسابيع أيضا، وأنت تعلم كثرة أسفاره، فلا تسأل عن حديث يدور، ومجالس تنعقد، واجتماع يحصل، ولا تسأل عن سرور وأنس، ولا تسأل عن بركة وخير، وعن البحر حدث ولا حرج!"^(٢).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ١٨٥، ١٨٦

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص: ٢٥

ثم ذهب الندوي إلى ديوبند وأقام عند الشيخ وهو في سنه العشرين، وكان بيته مخصصا بالضييفان ومشغولا بالضيافة، حيث يأتيه شخصيات عديدة في مجالات عدة، منهم من ساهموا في المجال الديني والمجال السياسي والمجال الفكري وغيرها ممن لهم شأن من العلم والمعرفة أو الحكم. وكانوا يجتمعون حول المائدة المديدة، ويأكلون صباحا ومساء أنواع المأكولات والندوي يتمتع بهذا الاجتماع أكثر من تمتعه بأنواع الأطعمة الجاهزة والموجودة على المائدة. وكانت مدة إقامته في دار المدني عشرين يوما قليلة المدة كثيرة الثمرة، ثم انتقل إلى دار العلوم وأخذ يقيم بها ويأكل من مطبخها بإذن من الشيخ المدني. وبعد مضي أيام استطاع الندوي أن يصاحب الشيخ في رحلة من الرحلات التي كانت سببا جديدا لتوثيق العلاقة بينهما وترسخها، لأنه وجد الشيخ في رحلته أحسن وأكرم وأصبر مما كان في داره وبلده.

وقال الندوي واصفا صورة الشيخ وخلقه وأخلاقه: "كان مربع القامة، كبير الهامة، عريض الجبهة، واسع العينين، أسمر اللون، جسيما، مفتول الذراعين، قوي البنية، وقورا مهيبا في غير عبوس أو فظاظة، طلق الوجه، دائم البشر، وكان يلتزم الملابس الثخينة من النسج الوطني،... وكان قد راض نفسه على النوم والانتباه، ينام إذا شاء وينتبه متى أراد، وكان شديد العبادة والاجتهاد في رمضان، وكان يؤمّه مئات من الناس ويصومون معه ويقومون، ويتحول المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاوية عامرة بالذكر والتلاوة، والسهر والعبادة"^(١).

ومنهم الشيخ عبد القادر الرائيبوري، هو أحد العلماء المتبحرين والأساتذة المعدودين. كانت زيارة الندوي الأولى له في سنة ١٩٣٩م في سفر مع أصدقاء ثلاثة لزيارة أهم

^١ نفس المرجع، ص: ٢٩، ٣٠

المعاهد الإسلامية والمؤسسات التعليمية في القارة الهندية، ولما انتهوا إلى "رائيبور" ولقوا الشيخ واستقبلهم استقبالا حسنا كما كان بينهم عهد سابق.

كان الشيخ يرى أن السر في قلق الناس ويأسهم هو ضعف الإمارة وعجزها، أما سر هذا الضعف وذلك العجز فهو أمية الأمراء، كما يرى أن الأمراء هم قلوب عامة الناس، ولكن قلوب بعض الأمراء انحرفت عن الحق ومالت عن العدل. وبقي على فلسفته هذه أياما كثيرة، أخيرا وصل إلى اقتراح رأي عقلي أو وصف علاج ناجع لهذه المشكلة هو أن الأمر المهم الذي يجب تنفيذه في المجتمع هو زرع الإخلاص التام في قلوب الناس وإلقاء ضوء سجايا نبيلة في نفوسهم، ولا يتيسر إلا بإيجاد الحب، ولا يوجد الحب إلا بالأذكار ومصاحبة الأبرار.

وقد قال الندوي عن آراء الشيخ الرائيبوري عن تقدم البلاد الإسلامية: "كان الشيخ الرائيبوري يؤكد ضرورة تقدم البلدان الإسلامية وتطورها اقتصادا، واستقرارها سياسيا، واعتمادها ذاتيا، ويصرف اهتمام المثقفين والمسؤولين وأصحاب النفوذ والسلطة الذين كانوا يشتركون في مجالسه أو يلتقون به (وخاصة خلال زيارته لباكستان) لذلك، وكان ذلك موضوعه المحبب كلما ضم مجلسه رجالا من هذه الطبقة"^(١).

كان ينتقد القاديانية ومعتقداتهم وآراءهم انتقادا حادا، وحاربهم محاربة علمية وعقلية. وكان يؤمن بأن اعتقاداتهم تهدم أركان الإسلام وأساسه، وينزع من قلوب المؤمنين حب خاتم النبيين، وهو الذي أمر العلامة الندوي بتصنيف كتاب قيم باللغة العربية يكشف بطلان القاديانية وأكاذيبهم، ويرد على دعاويهم الباطلة ومعتقداتهم الغاوية، وينتقد مواقفهم ونظرياتهم، وينقذ الناس من إضلالهم وتحريفهم، فألف

^١ نفس المرجع، ص: ٣٦

الندوي موافقا إياه على هذا الأمر كتابه "القادياني والقاديانية" الذي تم نقله إلى كثير من اللغات العالمية.

وقد أثر الشيخ في شخصية الندوي تأثيرا قويا، وجذبتة إليه مميزات ثلاثة له، وهي كما قاله الندوي: "إحداها: تواضعه وما يسميه علماء النفس والكتاب العصريون بـ"إنكار الذات" الذي لم أر له نظيرا ولا أعلم له مثيلا (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ).

والثانية: سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشاهدها في كبار العاملين في مجالات الحياة، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين جربوا الحياة حلوها ومرها، وقد ساعدتني طبيعتي الخاصة، ودراستي المتنوعة وبيئتي التي نشأت فيها - فقد تربيت تربية عقلية فكرية عاطفية - على تقدير هذه المزايا التي خص الله الشيخ بها، ولم يكن لمثلي أن يتجاوب مع هذه الخصائص، ويجد مكانه في تلاميذه ومقديري فضله، لولا هذه السعة في التفكير والرحابة في الصدر، والاتصال بالعصر الذي يعيش فيه علما وتفكيرا وشعورا وتألما، وهو الذي حثني على إتمام سلسلة "رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، وكان يحرضني دائما على ذلك، وعلى تأليف الكتب المفيدة، والاشتغال بالقضايا الإسلامية، ونشر الثقافة والقيام بالدعوة.

والميزة الثالثة: العطف علي، العطف الذي لا أستطيع أن أشبهه إلا بعطف الأم وحنانها"^(١).

ومنهم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، صاحب "أوجز المسالك إلى موطأ مالك" و"فضائل الدعوة إلى الخير" و"تعليقات على بذل المجهود شرح سنن أبي داود" وغيرها من الكتب الشهيرة. ولد بـ"كاندهلة" في عام ١٣١٥ هـ. وله مساهمة مذكورة في تأليف كتاب "بذل المجهود في شرح سنن أبي داود" لأستاذه خليل أحمد السهارنبوري، إذ كان

^١ نفس المرجع، ص: ٣٩، ٤٠

الشيخ يلمحه إلى مراجع الموضوعات فيأخذ ويجمع الكاندهلوي ويربها الشيخ فيأخذ ما يريد ويدع ما يريد، ثم يملي عليه الأحاديث وشروحها فيكتبها.

كان مدرسا بمدرسة "مظاهر العلوم" براتب اسعي. وفي سنة ١٣٤٤ هـ سافر إلى مكة المكرمة لأداء الحج مع أستاذه، وبدأ في هذا السفر وخلال بقاءه في المدينة المنورة تأليف كتاب "أوجز المسالك إلى موطأ مالك"، وأكمله بعد الرجوع إلى بلده. ثم توجه إلى التعليم المتتابع والتصنيف المتسلسل مستجيبا لطلب أعيان المسلمين وعامتهم.

وقال الندوي عن خَلق الشيخ وخُلُقِه: "وهو مربع القامة، جسيم وسيم، أبيض اللون، مشرب بالحمرة، كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان، كثير النشاط، لا يعرف الكسل، خفيف الروح، بشوش ورود، كثير الدعابة مع الذين يأنسهم أو يحب أن يؤنسهم، سريع الدمعة، جريح المقلة، ... وليس الحديث له صناعة وعلم فحسب، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه"^(١).

وتمكن الندوي من رحلة إلى الحجاز مع الشيخ في سنة ١٣٨٩ هـ، وقال عن هذه الرحلة: "وقد أسعد الله كاتب هذه السطور بمرافقته في هذه الرحلة، فرأى من علو همته وقوة إرادته، وشدة أدبه مع الرسول ﷺ، وشدة حبه له، وشوقه إليه، ومن علو استعداده ومداركه، وما أكرمه الله به في هذه المدة من القرب والاختصاص، ما جدد ذكرى الأقدمين، وصدق ما جاء في كتب أختيار السلف الصالحين،..."^(٢).

ومن معاصري الندوي الذين أثروا فيه الشيخُ حبيب الرحمن الشرواني، صاحب "علماء السلف" و"سيرة الصديق" و"أستاذ العلماء" وغيرها من الكتب، كان من أمراء "عليكره"، ووزير الشؤون الإسلامية في حكومة حيدر آباد، وأحد مؤسسي دار العلوم

^١ نفس المرجع، ص: ٤٦

^٢ نفس المرجع، ص: ٤٧، ٤٨

بديوبند، ومشتهرا كخطيب ماهر مفوّه متصف بصفات الخطباء البلغاء الذين يأسرون قلوب السامعين ويحبسون عقول المستمعين، وكان يهتم بمواد التاريخ ويشرب من مواردها كثيرا، كما كان يكثر الكلام عن المدنيات الإسلامية وأصحابها في الهند.

وقال الندوي واصفا إياه: "لقد رأيت في جولاتي الواسعة واتصالي بطبقات الناس، رجالا نوابغ في كل فن، لقد رأيت رجال العلم، ورجال الدين، ورجال الأدب والشعر، ولكني ما رأيت أجمع منه للفضائل المتشتمة، ولا أوسع منه ثقافة، فقد كان أميرا في الأمراء، وأديبا في الأدباء، وشاعرا في الشعراء، ومؤلفا في المؤلفين، وناقدا في النقاد، ورجلا تعليميا في رجال التعليم، حتى إذا ضمهم مجلس وجمعهم دار، كان واسطة عقدهم وملقى أذواقهم وثقافتهم، يلتفون حوله ويصدرون عن رأيه، ويقلدون الرئاسة والزعامة لشأنهم"^(١).

وقال عن علاقته به: "لقد عرفته من صغري، فقد كان صديقا لأبي مولانا السيد عبد الحي رحمه الله، مدير ندوة العلماء الأسبق، وزميله في تأسيس هذه المؤسسة الكبيرة درا العلوم التابعة لها، ثم كان شريكا له في العلاقة بمولانا فضل الرحمن، فكان إذا رأني ضمني إلى صدره وعانقني كأني أحد أولاده، وكانت بيني وبينه مراسلات أحتفظ بها..."^(٢).

ومن معاصريه الذين تأثر بهم أبو الحسن علي الندوي العلامة السيد سليمان الندوي، هو أستاذ الندوي في دار العلوم الذي قرأ عليه دروسا في الفلسفة، وصاحب كتب "الرسالة المحمدية" و"سيرة النبي ﷺ" و"سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها"

^١ نفس المرجع، ص: ٥٣

^٢ نفس المرجع، ص: ٥٣، ٥٤

و"أرض القرآن" وغيرها من التأليفات القيمة. وكان عالما مشهورا في كثير من الفنون العربية، وتمتد مساهماته إلى عدة مجالات من العلوم الإسلامية، كما له إسهامات ملحوظة في الفقه الإسلامي والحديث النبوي، ولكن كان يهتم بكتابة سيرة الرسول ﷺ وتاريخ حياة بعض الشخصيات البارزة أكثر مما كان يهتم بغيره من الفنون.

وقال الندوي عن شيخه هذا في كتابه "شخصيات وكتب" مقتبسا من كتاب "المصباح القديمة" - هذا الكتاب أيضا للندوي - الذي قام بترجمته إلى العربية حشمة الله الندوي: "أعتقد أنه لم يكن في العلماء المعاصرين، وعلى الأقل في خريجي المدارس الدينية في الهند من عاش معركة العقل والقلب، والقديم والجديد، والشرق والغرب، والدين والأدب، أو الدين والفلسفة مثل ما عاشها أستاذنا العلامة الذي كان من خريجي دار العلوم ندوة العلماء، ومؤلف "سيرة النبي" ﷺ، وسياسيا خبيرا، وأديبا بصيرا، تجول في أوروبا، وكان قد سقى شجرة العلم بنبعه الفياض، ... ولكن قلبه السليم وروحه الوثابة كانت تشهد - وإن كان تلاميذه والمعجبون بعلمه وكتاباته لا يقرون بأنه كان في حاجة إلى مزيد جديد - بأنه لم ينهل بعد من نيميره الصافي الفياض، وكانت مؤلفاته وخاصة "خطبات مدراس" و"الرسالة المحمدية" و"سيرة النبي" و"سيرة عائشة" قد أذكت في قلوب آلاف من الناس شعلة الإيمان، فذاقوا حلاوته، ولكن همته البعيدة وعزمه وطموحه كان يحثه على البحث عن تلك المنزلة التي عبر عنها الحديث الشريف بالإحسان، والقرآن الكريم بالتركية"^(١).

ومنهم أخوه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسيني المذكور سابقا، تعلم الفقه الإسلامي وأصوله والحديث وشروحه وغيرها من العلوم الإسلامية، كما تعلم الآداب العربية وفنونها، مع أنه كان طبيبا ماهرا مخلصا يهتم بمعالجة المرضى وشفائهم. وكان

^١ نفس المرجع، ص: ٥٩

على عاتقه حمل كفالة أسرته بعد وفاة والده العلامة السيد عبد الحي الحسني والندوي في سنة التاسعة. وقد لعب دورا فعالا في إدارة ندوة العلماء وتنفيذها إذ كان مديرها ونائب مديرها وعضو لجنتها التنفيذية.

وقد اهتم بتعليم أخيه أبي الحسن علي الصغير بعد وفاة الوالد كما مر ذكره، وكان يختار له الكتب النافعة والمؤلفات المثمرة لمطالعتها والاستفادة منها ولينضج عقله وتتوسع أفكاره ويزيد علمه وتصفو نفسه. وكان يعامله معاملة والد حنون، وهو الذي حرصه بعد أن نضج على تصنيف كتاب يصور فيه تاريخ حياة السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وكتاب يرسم تاريخ حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتولدا بشكل رائع من قلمه السيل بتوفيق الله.

وقال الندوي عن تأثره به: "وقد كانت مجالسه الرزينة، وتوجيهاته الحكيمة، وتعليماته الهادئة، أنفع لي من مائة كتاب، وقد كان لها فضل في فهم فضل تعاليم الإسلام والحضارة التي تؤسسها هذه التعاليم، والاطلاع على مواضع الضعف في الحضارة الغربية وزيف أساسها، وإذا كان في ثقافتنا وما وفقني الله له من الدراسة والتأليف والدعوة والتوجيه شيء يستحق الذكر، فالفضل في كل ذلك يرجع إليه بحول الله، وبذلك تقدر خسارتي بموته، وحزني على فقده، وألمي بمصابه، ومع ذلك نحتسبه عند الله،..."^(١).

ومنهم أستاذه المحترم الشيخ خليل بن محمد اليماني المذكور آنفا، وقد درّسه اللغة العربية في داره وفي جامعة لكهنؤ، وكان أستاذ اللغة العربية وآدابها للبيكالوريوس والماجستير في الجامعة. كانت له عضوية في هيئة التدريس فيها، كان نابغا في فن التعليم، وناضجا في الجلم، وراسخا في العلم، وكان يتميز بحبه للغة العربية وذوقه لها،

^١ انفس المرجع، ص: ٧١، ٧٠.

وقدرته الموهوبة على تربية الطلبة، ومحاولاته المستمرة، وصبره الجميل على المشقات في سبيل كسب العلم وحشد المعلومات، ولم يتخذ تدريسه وسيلة لكسب المال، ولكنه كان يستمتع به ويراه حقا واجبا عليه، وكانت توجد في وجهه آثار الفرح والمرح خلال عملية التدريس، كما قاله الندوي.

وقال الندوي عن علاقته بالشيخ وأسرته: "ولما حان أوان دراستي للغة العربية سلّمني أخي الكبير ومربي الجليل الدكتور السيد عبد العلي الحسني - رحمه الله تعالى - إلى الشيخ خليل الذي كان صديقا له وجارا، وكانت أسرة الشيخ خليل قد درّست جيلين من أبناء أسرتي، وكنت أنا من الجيل الثالث، وكان أبي قد تخرج في الحديث على الشيخ حسين بن محسن، وكان من أخص وأحب تلاميذه إليه، قد ألف الشيخ حسين بعض الرسائل التي أحتفظ بها حتى الآن خاصة لأبي، ودرّس الأدب العربي على نجله الشيخ محمد بن حسين"^(١).

ومن المعاصرين الذين أثروا في الندوي وشخصيته الشهيد حسن البنا، كان مدرسا في اللغة العربية وداعيا إسلاميا من الدعاة المصريين، هو الذي أسس جمعية "الإخوان المسلمين"، واشتهر ب"الإمام الشهيد" عند أعضاء وأعداء وأعداء حزبه، وصاحب كتب "مذكرات الدعوة والداعية" و"السلام في الإسلام" و"مباحث في علوم الحديث" وغيرها من المؤلفات.

وإن الندوي لم يره مباشرة ولو مرة من بلده أو خارج بلده. لما ذهب الندوي إلى مكة لأداء حجه الأول في سنة ١٩٤٧م خرج الإمام من الحجاز وفاته اللقاء، وكان البنا يصل إلى مكة عند الحج أكثر السنين، ويحاول نشر دعوته وإيجاد علاقة وثيقة بينه وبين الحُجّاج الذين يأتون من أرجاء الكرة الأرضية. وتمكن الندوي من زيارة مصر بلد حسن

^١ نفس المرجع، ص: ٧٩

البناء في سنة ١٩٥١ م - بعد عامين من استشهاده - واستطاع معايشرة طلبته ومعايشتهم معايشة إخوان مخلصين، ومقابلة والده أحمد، وزيارة أصدقائه وأولاده.

ومنهم المفتي السيد أمين الحسيني الذي تولى القضاء العام للقدس ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، والذي كان من أشهر المدافعين عن المسجد الأقصى، وكان لقاء الندوي الأول للمفتي في سنة ١٩٣٣ م في ندوة العلماء بلكهنؤ إذ جاء الهند مع الأستاذ محمد علي علوبه باشا في جولة دعائية للجامعة الإسلامية سوف تنشأ في القدس، وقال الندوي عن هذه اللحظات الذهبية: "ولا أنسى ذلك الحفل الزاهر المشرق الذي تحدث فيه سماحة المفتي، وقد طلع عليه بطلعته الهية الوقور، التي يلتقي فيها الجمال الصوري بالجمال المعنوي، والوسامة الظاهرة بالوقار والرزانة والتواضع، وأخلاق العلماء بالأناقة وحسن الهندام، فكأنه ملك نزل من السماء، أو ملك من الملوك المسلمين القدامى عاش من جديد، وأكبر الظن أنه كان في العقد الرابع من عمره، ولا أزال أذكر إنشاده للبيت العربي المعروف، وهو يذكر زيارته لهذه الدار، وأنه قد سمع عنها كثيرا، وقرأ عنها كثيرا"^(١). وكان اللقاء الثاني في القاهرة بعد ثمانية عشر عاما، ثم اجتمعا في حفلات كثيرة متتابعة ومجالس عديدة متتالية، واجتمعا في منصة رابطة العالم الإسلامي بمكة، والمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ومن معاصريه الأستاذ سيد قطب الأديب المشهور والكاتب الخبير والشاعر النادر، صاحب جمع كبير من الكتب في شتى الفنون مثل "في ظلال القرآن" و"النقد الأدبي: أصوله ومناهجه" و"التصوير الفني في القرآن" و"معالم في الطريق" و"العدالة الإسلامية" و"الإسلام والسلام العالمي" وغيرها من المؤلفات. وكان لقاءه الأول معه في

^١ نفس المرجع، ص: ٩٧

عام ١٩٥١م في القاهرة، ورأى الندوي هذا اللقاء لقاء لا ينسى، وكان كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" معروفا لديه، وقد كان طالعه قبل هذا اللقاء، ونشأت بعد هذه الملاقاة التاريخية علاقة متينة بينهما، ثم كثرت اللقاءات والاجتماعات في منصات المحاضرات والحفلات المختلفة، حتى يطلب الندوي منه تقديم كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" فقدم له أحسن تقديم مستجيبا لطلبه الصادق، واعتبارا لمكانه المرموق، كما قدم للكتاب الثالث له من سلسلة كتب "قصص النبيين للأطفال".

ومنهم العالم السوري الدكتور مصطفى السباعي الكاتب الممتاز والداعية البارز، صاحب كتب "السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي" و"المرأة بين الفقه والقانون" و"الصراع بين العقل والقلب" و"من روائع حضارتنا" و"أحكام الصيام وفلسفته" و"شرح قانون الأحوال الشخصية" وغيرها من المنشورات الملحوظة. كانت المرة الأولى من لقاءات الندوي مع الشيخ السباعي في يوليو سنة ١٩٥١م، وكان ذلك اللقاء في "فندق أمية" في سوريا خلال زيارته الأستاذ سعيد رمضان، فاستقبله استقبالا حارا، وتم تبادل الأفكار معه، وذكر اطلاعه على "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الكتاب المشهور للندوي.

ثم بعد أيام قليلة أتيح له اللقاء في عريش على النهر كان يسكن به السباعي، وكان الأستاذ محمد المبارك أيضا حاضرا في هذا الاجتماع، وجرى بينهم كلام طويل، وعرض الشيخ السباعي عليهما أفكاره ونظرياته وسرعة انتشار آرائه بين أعوانه، وإقبال الناس عليها بكل رغبة وغبطة.

وصل الندوي إلى دمشق في عام ١٩٥٦م ليجتمع بالشيخ السباعي، وقال هو نفسه عن هذا: "وسافرت في آخر شعبان ١٣٧٥هـ وأول إبريل ١٩٥٦م إلى دمشق. وكلي أمل بأنها ستكون فرصة الاجتماع بالأستاذ السباعي، وتبادل الأفكار والتجارب معه لمدة طويلة،

ولكنني فوجئت بأنه قد سبق وصولي إلى دمشق برنامج زيارته للجامعات والمؤسسات العلمية في أوروبا، وأنه مسافر بعد وصولي إلى دمشق بيومين، ولكنه أنهى الإجراءات الرسمية والإدارية، وقام بكل ما يضمن لي الراحة والهدوء والقيام بالمهمة التي سافرت لأجلها"^(١).

ومنهم الدكتور محمد إقبال الشاعر الشهير الشعبي المؤثر وإن لم يذكره الندوي في كتاب "شخصيات وكتب". لم يكن له في أول الأمر شغف كبير بالعلامة إقبال، إلا أنه ترجم قصيدته "القمر" إلى اللغة العربية. ولكن لما رأى قصيدته الأخيرة في "ضرب كلیم" جذبته إليه وإلى أعماله الشعرية الأخرى، وقال عنه: "ولكن لما وقع بصري على شعره الأخير في "ضرب كلیم" تفتحت عيني، وسحرني شعره، وسمو فكره، ثم لما قرأت "بال جبريل" زاد إعجابي وتأثري، فقد وجدت فيه سمو الأفكار، جمال النغمة وحلاوة الجرس، وقرأت دواوينه الشعرية الأخرى في الفارسية، وتأثرت به عقليتي وتفكيري وقلبي تأثراً لا أعرفه - في حدود الأدب والشعر والفكر الإسلامي القوي - بأي شخصية معاصرة أخرى"^(٢).

ذهب الندوي إلى لاهور سنة ١٩٢٩م في السادسة عشرة من سنه، وسنحت له زيارة الدكتور محمد إقبال مع الدكتور عبد الله الجغتائي، وقدمه إليه، وذكر أباه السيد عبد الحي الحسني، الذي كان معروفاً لديه كما كان معروفاً لدى جميع محبي سير الأدباء الهنديين من الأمة، وقدم إليه نسخة ترجمة قصيدة "القمر" المذكورة آنفاً، وطرح العلامة إقبال عليه أسئلة يفتش بها مستواه اللغوي وعمقه العلمي.

^١ نفس المرجع، ص: ١١٩

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١ ص: ١٢٨

وكانت الملاقاة الثانية والأخيرة جمعتهما في سنة ١٩٣٧م في بيته مع السيد طلحة الحسني، والسيد إبراهيم بن إسماعيل الحسني، رغم أنه كان مريضاً ملازم الفراش جرت بينهما حوار طويل ونقاش زائد عن أقدم الأشعار العربية وجديدها والموضوعات التي عالجتها، وعن أهمية الاستمساك بالعقيدة الصحيحة والتخلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الأخلاق الرديئة، وفساد الاعتقاد الفاضل بغلبة الفلسفة الإغريقية، وما إلى ذلك من المجالات الشعرية والشرعية والأحداث العصرية وغيرها.

وفي أبريل من ١٩٣٨م السنة التالية فارق الدكتور محمد إقبال الحياة الدنيا. وقد كتب الندوي عنه عدة مقالات وألقى عنه عدة محاضرات، وألف عنه كتاباً سماه "روائع إقبال". وقال مظهراً رأيه عن شعر محمد إقبال وأدبه: "وأخيراً لا أخيراً وجدته شاعر الطموح والحب والإيمان، وأشهد على نفسي أنني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثار عواطفني، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي، وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري"^(١).

زواجه

تزوج الندوي السيدة طيب النساء بنت السيد أحمد سعيد الحسني في نوفمبر عام ١٩٣٤م، وهي ابنة خاله وحفيدهُ السيد ضياء النبي. وقام الشيخ حيدر حسن خان بخطبة النكاح، وجهاز أخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني وليمة فاخرة بحب أبوي لأخيه العروس وشفقة بالغة عليه، حتى لا يشعر بحزن فقدان الوالد.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، روائع إقبال، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص: ١٩

كانت السيدة تقيّة تخاف الله، سخية تشفق على المساكين، وكانت تخدم نصفها الآخر وتساعدته في أعماله وتقوم بحوائجه، ولكنها رجعت إلى ربها وهو على قيد الحياة في ديسمبر عام ١٩٨٩ م، بعد أن عانت مرضاً استمر زمناً طويلاً. ولم يولد لهما ولد.

مناصب زينها الندوي

وقد تولى العلامة الندوي عدة مناصب عظيمة رئاسةً أو عضويةً للجمعيات الإسلامية أو المعاهد العلمية أو المجامع اللغوية، وزين تلك المناصب بإسهاماته البارزة ومدخلاته الملحوظة. منها ما زينه برئاسته أو عضويته داخل الهند وخارجها، لم يكن العلامة راغباً في تولي تلك المناصب، ولكن السياق أداه إلى توليها، والضغط الشديد من طرف مسؤوليها ولاة هذه الأعباء.

ومما تولاه في الهند وزينه من المناصب والمسؤوليات في الهند:

- الأمين العام لندوة العلماء.
- نائب وكيل ندوة العلماء للشؤون التعليمية.
- وكيل ندوة العلماء للشؤون التعليمية.
- رئيس دار العلوم التابعة لندوة العلماء.
- رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ.
- رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية لعموم الهند.
- رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.
- رئيس مجمع دار المصنفين بأعظم كره.
- عضو المجلس الاستشاري بالجامعة الإسلامية بدار العلوم ديوبند^(١).

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ٤٤، ٤٥.

ومما زينه من المناصب في المملكة العربية السعودية:

- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- عضو المجلس الأعلى للمساجد بمكة المكرمة.
- رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض.
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة^(١).

ومما تولاه من المناصب في القاهرة:

- عضو المجلس الأعلى العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ومن المناصب التي تولاه في الأردن:

- عضو مجمع اللغة العربية الأردني.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - مؤسسة آل البيت - بالأردن.

علاوة على ذلك لعب الندوي دوره النافذ برئاسة مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية التابع لجامعة أوكسفورد في إنجلترا، وعضوية المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بباكستان، وعضوية مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضوية رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط- المغرب، وعضوية الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، وعضوية المجلس الإداري للمركز الإسلامي بجنيف^(٢).

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٤٤، ٤٥.

^٢ الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المرني والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ١٨٦.

وقد ساهم الندوي في دار العلوم كمدرس شغوف بالتدريس وهو ابن عشرين سنة في عام ١٩٣٤م، وكان موضوع تدريسه تفسير القرآن، والآداب العربية، وتاريخ الأدب العربي، والمنطق. وكانت هذه المرحلة التدريسية بالنسبة إليه مرحلة استفادة العلم المزيد، ومرحلة مطالعات المجالات الحديثة، والدوريات العربية الصادرة عن البلاد العربية المختلفة، ومرحلة تعارف الكُتاب الأجلاء والمفكرين الأعزاء والأدباء الفضلاء والزعماء النبلاء من مختلف أرجاء العالم.

وألقي الندوي في كلية الشريعة بجامعة دمشق حُطْبًا قيمة كأستاذ زائر، ونشرت هذه الخطب كتابا يحمل عنوان "رجال الفكر والدعوة في الإسلام". وكذلك اختير عضوا في هيئة التدريس للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، لكنه رفض هذا المنصب الجلي، واستعد لتقديم خدمات جزئية مؤقتة كأستاذ زائر.

الجوائز والتكريمات

مُنح الندوي بعض الجوائز المتميزة تقديرا لخدماته الجليلة في مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية، واعتبارا لإسهاماته الأدبية، ومن أهمها:

- جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام.

وقد أُختير الندوي في سنة ١٩٨٠م لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، ولما أُخبر به كان مشغولا بشواغل كتابية في قريته حتى تمنعه عن الخروج إلى الرياض لتلقيها، وأعلن اللجنة بفرحه بهذه الجائزة وشكره على هذا الاختيار، كما أعلنها بأنه لا يقدر على الإتيان لتسلمها، وبأن الدكتور عبد الله عباس الندوي يمثله ويتلقى الجائزة، وكان الإعلان بواسطة الرسالة التي كتب فيها: "إن هذه الجائزة تحمل جوانب متعددة، فأما الجانب المعنوي فيها وهو الاعتراف والتقدير، فأنا أقبله بتقدير وشكر، أما

الجانب الآخر المالي الذي يلازمه، فأنا أستمحكم [كذا] أن أصرفه فيما أرى من مصالح الخدمات الإسلامية، سوف يعلن عنها الأستاذ عبد الله عباس الندوي"^(١).

• شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير.

كرّمته جامعة كشمير بمنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب في عام ١٩٨١ م، وتم منحها في حفلة عظيمة عقدت لتوزيع الشهادات، ترأسها حاكم جامو وكشمير في حضور شخصيات مرموقة في مجال الحكم والتربية والتعليم. وألقى الندوي في تلك النهضة التاريخية محاضرة حول "مكانة المثقفين الجامعيين ومسؤولياتهم"، ووضح فيها أمرين هامين من مسؤوليات الجامعة ومسؤوليتها، الأول: بناء السيرة المثالية، والثاني: إخراج طلاب مستعدين لتضحية خيراتهم ولذاتهم لإيجاد سعادة الآخرين الفقراء الجائعين المحرومين.

وقال ب.ك. نهرو حاكم جامو وكشمير خلال خطابه الرئيسي عن محاضرة الندوي هذه: "إنني حضرت كثيرا من حفلات توزيع الشهادات، ولكني لم أسمع في أي منها مثل هذا الخطاب المثير الذي يدعو إلى التأمل والتفكير"^(٢).

• جائزة الشخصية الإسلامية من حكومة دبي.

تسلم الندوي هذه الجائزة من ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة محمد بن راشد المكتوم في عام ١٩٩٨ م، وكانت الجائزة تقديرا لتأليفه القيمة في مجال الدعوة وإسهاماته الثمينة في ميدان نشر القيم الإسلامية.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ج: ١، ص: ٣٩٧

^٢ نفس المرجع، ج: ١، ص: ٤١٠

● جائزة السلطان حسن البلقية العالمية.

حصل الندوي على هذه الجائزة سنة ١٩٩٨م من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، اختير لها اعتباراً لإسهاماته التأليفية في فن الدراسات الإسلامية^(١).

● جائزة الإمام شاه ولي الدهلوي.

اختير الندوي لهذه الجائزة وهو على قيد الحياة في سنة ١٩٩٩م، ولكن لم يُعلن هذا الخبر رسمياً إلا بعد وفاته في السنة التالية.

● وسام الإيسسكو.

اختارت المنظمة العربية الإسلامية أبا الحسن الندوي لوسام الإيسسكو من الدرجة الأولى، وتلقاه نيابة عنه الدكتور عباس الندوي، وقال الدكتور محمد أكرم الندوي عن هذا التلقي: "واستلم هذا الوسام نيابة عنه كذلك فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسيني الندوي ووكيل ندوة العلماء للشؤون التعليمية سعادة الدكتور عبد الله عباس الندوي في الرباط في ٢٥ شعبان ١٤٢١هـ"^(٢).

وقد عقدت حفلات عديدة في أنحاء العالم لتكريم أبي الحسن علي الندوي، منها ندوة أدبية ناقشت حياته وجهوده ومحاولاته المشكورة في مجال الدعوة والأدب، عقدت عام ١٩٩٩م في إستانبول - تركيا^(٣).

وعقدت حفلة تكريم بجدة في عام ١٣٨١هـ، وألقى فيها محاضرة، وضمت هذه المحاضرة إلى كتابه "العرب والإسلام"، كما عقدت حفلة تكريم أخرى في بستان عبد

^١ الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المرابي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ١٨٩

^٢ نفس المكان

^٣ الغوري، سيد عبد الماجد، رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته، دار ابن كثير، بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ١٩، ٢٠

الله السليمان بمكة في عام ١٩٦٣ م، وشرف الندوي هذه الحفلة بمحاضرة، عنوانها "أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟"، هذه المحاضرة أيضا ضمت إلى كتابه "العرب والإسلام".

وفاته

توفي أبو الحسن علي الندوي يوم الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان لسنة ١٤٢٠ هـ الموافق ل ٣١ ديسمبر سنة ١٩٩٩ م في مكان ولادته رائى بريلي. وكان قد أصيب بالشلل الجزئي حتى أثر فيه تأثيرا أعجزه عن القيام والمشى والكتابة باليمين قبل موته بشهور، ثم استعاد صحته قليلا قليلا، - وإن لم يبلغ مبلغ الراحة كما كان قبل إصابة المرض- حتى يقدر على الكتابة بيمينه، ويقوم على رجليه، ويتكلم بعض الكلمات، ولكنه لم يستطع الإتيان إلى المسجد لأداء الصلوات، وكان يصلها في بيته مع جماعة من أعضاء أسرته وأصحابه. وكانت منيته عقب نوبة قلبية أصابته يوم الجمعة - ٣١ ديسمبر لعام ١٩٩٩ م - وهو يستعد للذهاب إلى المسجد، ويتزين للجمعة، ويقرأ سورة يس عن ظهر القلب، و ينتظر المصحف لقراءة سورة الكهف.

وقال د. محمد أكرم الندوي عما بعد وفاة العلامة أبي الحسن الندوي: "وما أن أعلن عن وفاته إلا وبدأت قوافل تلاميذه ومحبيه تفد إلى قريته، وصلى عليه العلامة الشريف محمد الرابع الحسيني الندوي في الساعة العاشرة والرابع من ليلة الثالث والعشرين في جماعة تقدر بمئتي ألف تقريبا، ودفن في مقبرة أسرته بالقرية في حضور الأقارب والأهالي وبعض مسؤولي ندوة العلماء التي ظل مرتبطا بها طيلة حياته الحافلة بالجهاد والدعوة"^(١).

^١ الندوي، د.محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م، ص: ٢٠٢

الفصل الثاني

الندوي ككاتب وأديب

إن من الأسباب العظيمة لشهرة أبي الحسن علي الندوي نضجه في الكتابة ومهارته في التأليف، تولدت من يراعه الفياض كتب قيمة تعالج مختلف الموضوعات، يبلغ عدد أعماله الأدبية باللغة العربية فوق مائتين، منها كتب كبيرة الحجم وصغيرته، ومنها رسائل قصار. وكان وضعه الخطوة الأولى في مجال كتابة المقالة في اللغة العربية في "المنار" - المجلة الشهيرة أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا من مصر- وكان ذلك في عام ١٩٣١م وهو ابن ستة عشر عمرا، وأخوه د. عبد العلي الحسيني هو الذي حرصه على هذه الكتابة. وكانت المقالة عن السيد أحمد بن عرفان الشهيد، ومن هذا اتضحت مهارته التأليفية وموهبته الإبداعية. وبعد نشر هذه المقالة في "المنار" نشرها السيد رشيد رضا ككتيب بعنوان "ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد"، وكانت هذه الخطوة الأولى خطوة ثابتة له في مجال الكتابة، وسببا لذيع صيته بين محبي اللغة العربية.

كان أسلوبه سهلا جدا لا يكلف القارئ الجهد والمشقة، وكانت لغته لغة خالصة أدبية، وقال الدكتور يوسف القرضاوي عن لغته: "واللغة التي يكتب بها الشيخ الندوي أو يخطب بها: لغة أدبية راقية، سواء قرأت له مؤلفا، أو استمعت إليه محاضرا، وأعني اللغة العربية، فأنت لا تحس بأن صاحب هذا الكتاب أو الرسالة أعجمي المولد والنشأة، وإن كان عربي النسب والأصل"^(١). ووضع يده ككاتب على فنون متعددة، فكتب في تصوير حياة بعض الأعلام تراجمهم، والدراسات الإسلامية، والدعوة الدينية، والتاريخ، والأفكار، والآداب الإسلامية وغيرها من فنون اللغة العربية.

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ١٥٨

إسهاماته في دراسات القرآن والحديث

وقد اهتم الندوي بالقرآن ودراسته والكتابة فيه اهتماما كبيرا، لأن أمه كانت تحرضه على حفظ القرآن وتعلمه إياه في صغره، ولبعض أساتذته أيضا دور كبير في تحبيب القرآن إليه، ومع ذلك لما كان مدرسا في دار العلوم لندوة العلماء كان تفسير القرآن من مواضعه التدريسية، فاستطاع أن يوسع دائرة معرفته القرآنية. ومن كُتبه في هذا المجال:

أ) المدخل إلى الدراسات القرآنية

وفي الحقيقة هذا الكتاب مجموعة خطب الندوي في دار العلوم لندوة العلماء ألقاها أمام طلابه لما عين أستاذا بها، أداه إلى إلقائها فكره عن أهمية تعليم الطلاب الناشئين علوما هامة متعلقة بالقرآن قبل تعليمهم القرآن وآياته، مثل خصائص القرآن، وأنواع العلوم المعالجة فيه، وصور إعجازه، وبيان مكانته بين سائر الكتب الإلهية، وبقائه دون أي تحريف ولا تبديل خلافا للكتب السماوية الأخرى، وغيرها من المعلومات الجسيمة. وعلى هذا الوجه تسمية هذا الكتاب ب"المدخل إلى الدراسات القرآنية" تسمية لائقة.

وقال الأستاذ نذر الحفيظ الندوي الأزهري عن هذا الكتاب: "أورد المؤلف كثيرا من اللفات والمعاني والإيضاحات التي يستطيع من خلالها الدارسون للقرآن الكريم أن يفيدوا من دراسته، وينهلوا من نبعه الصافي"^(١).

وقال الندوي نفسه عن هذا الكتاب: "وقد اشتمل الكتاب على مجموعة من معلومات جديدة وبحوث مبتكرة لم يطلع عليها المؤلف في كتاب آخر - والعلم عند الله وفوق كل

^١ الندوي الأزهري، نذر الحفيظ، الأستاذ أبو الحسن الندوي كاتبا ومفكرا، دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م، ص: ٧٦

ذي علم عليم -خصوصا ما جاء تحت عنوان: إحدى نبوءات القرآن العظيم (نبوءة غلبة الروم)، وقد حذف من مجموعة هذه الأمالي ما جاء في مؤلفاته الأخرى ككتاب: "الأركان الأربعة" و"النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم" أكثر تفصيلا وفي شكل أوسع وأقوى"^(١).

(ب) الصراع بين الإيمان والمادية: تأملات في سورة الكهف

هذا الكتاب استعراض عميق للقصص التاريخية الأربعة الواردة في سورة الكهف، وفي الحقيقة هذا التأليف مجموعة مقالات نشرت في مجلة "المسلمون" بعنوان "تأملات في سورة الكهف"، في مجلدها السادس وعددها الأول والثاني والثالث والرابع في سنة ١٩٧٨م، ثم نشرت كشكل كتاب جميل بعد أن تم التحرير والتنقيح والحذف والزيادة حسب الحاجة، وقامت بنشره دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت سنة ١٩٩٧م.

(ج) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

إن لم يكن هذا الكتاب يعالج موضوعا قرآنيا مباشرا، فإنه يعالج ما للأنبياء والمرسلين من مكانة وعظمة في ضوء القرآن، ويثبت التصديق بالنبوة والرسالة المحمدية وفقا للأدلة القرآنية، وفي الحقيقة هذا الكتاب مجموعة خطب ألقاها الندوي في قاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٢هـ، ثم نشرتها دار القلم بدمشق ككتاب مستقل.

(د) تأملات في القرآن الكريم

هذا الكتاب يصور جمال سورة الفاتحة وتأثيرها في حياة الناس، ويبين الصوم والحج

^١ الندوي، أبو الحسن علي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، دار الصحوة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص: ٨

وتشريعهما وأسرارهما وحكمهما، كما يبين مكانة الكعبة ومسؤولية المرتبطين بها في أنحاء العالم. ويتحدث الندوي فيه عن فضل صلاة الليل واهتمام الأئمة بها، ومراحل الإيمان والهداية. وفيه دراسات شاملة لـ "الله نور السماوات والأرض" ولحكمة لقمان، كما فيه تفسير مفيد لبعض السور القرآنية القصار وهي: الضحى والانشراح والتين والعاديات. وهذا العمل أيضا مجموعة ما كتبه الندوي من المقالات وما ألقاه من المحاضرات في شتى المجالات والمجالات. ثم نشرته دار القلم بدمشق كشكل كتاب سنة ١٩٩١م.

(ه) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف

هذا الكتاب كما يدل عليه عنوانه كتاب مستقل في الحديث النبوي، وهو كتاب صغير الحجم لا يبلغ عدد صفحاته فوق الثمانين، بيد أنه كبير النفع إذ يجمع المعلومات اللازمة تتعلق بالحديث وأصوله وعلومه ورجاله وكتبه. ناقش الندوي فيه حكمة الله تعالى في وجود هذا العلم وختم النبوة، كما ناقش فيه اهتمام المسلمين بهذا الفن منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، وأورد فيه تراجم مختصرة لأصحاب الصحاح الستة والإمام مالك بن أنس. وفيه كلام مفيد عن مجاميع أخرى للسنة وعلم مصطلح الحديث والجرح والتعديل وأسماء الرجال. ويتحدث فيه عن بعض المعاجم الخاصة بالحديث النبوي، وعن اهتمام اتباع السنة وخطر إنكارها. ونشرت هذا الكتاب دار الكلمة بمصر.

(و) نظرات على صحيح البخاري وميزات أبوابه وتراجمه

هذا كتاب صغير يشتمل على مقالتين مهمتين للندوي، الأولى "نظرات في الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله"، كتبها تقديمًا على كتاب "لامع الدراري" لمحمد زكريا الكاندهلوي، والثانية "الأبواب والتراجم للبخاري وميزاتها وخصائصها" كتبها

تقديمًا على كتاب "الأبواب والتراجم للبخاري" للكاندهلوي. وتم طبعهما مع الكتابين المذكورين، ثم طبعهما بلال عبد الحي الحسني الندوي ككتاب صغير مستقل سنة ١٩٩٢م.

(ز) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتته

هذا الكتاب الصغير محاضرة ألقاها الندوي في قاعة المحاضرات في مقر رابطة العالم الإسلامي بمكة. ثم اهتم بطبعه محمد غياث الدين الندوي ككتاب صغير مستقل. وقال الندوي عن هذه المحاضرة: "والمحاضرة تبحث - بأسلوب جديد - عن مكانة الحديث في حياة المسلمين وحاجة الأمة إلى السنة، ومدى الخطر والضرر على الكيان الإسلامي، وضخامة الخسارة للأمة الإسلامية، إذا انقطعت صلة هذه الأمة - لا سمح الله - عن السنة المطهرة، أو حيل بينها وبين الحديث النبوي الشريف، ومدى دقة المؤامرة وأبعادها التي تهدف إلى إنكار حجية الحديث أو الاستهانة بقيمته وجدواه، والتشكيك في صحته وتدوينه"^(١).

في العقيدة الإسلامية

وللندوي إسهامات كتابية ملحوظة في إثبات العقائد الإسلامية وتوضيح الشرائع الربانية، منها كتب مشهورة ومقالات كثيرة، ومحاضرات منشورة، ومن عناوينها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

في العقيدة: "العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية"، نشرته دار القلم بالكويت. و"ربانية لا رهبانية" نشرته دار الفتح ببيروت. و"ردة لا أبابكر لها"، نشرته دار الفتح ببيروت والمكتبة المكية بمكة المكرمة.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتته، المطبعة الندوية بحدوة العلماء - لكهنؤ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، ص: ٣، ٤.

وفي الأحكام الشرعية

"الأركان الأربعة" (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج) نشرته دار القلم بالكويت ودار القلم بدمشق وغيرهما، "هلال رمضان يتكلم" نشرته مكتبة الإسلام بلكنؤ.

في الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية

"الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية" نشره المجمع الإسلامي العلمي بندوق العلماء - لكنؤ. و"صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية"، نشرته دار البشير بجدة. و"القادياني والقاديانية دراسة وتحليل" نشرته الدار السعودية للنشر بجدة. و"التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب"، نشرته دار القلم بالكويت والمجمع الإسلامي العلمي بالهند وغيرهما.

في الدعوة الإسلامية

"حاجة العالم إلى الدعوة الإسلامية"، و"حكمة الدعوة وصفة الدعاة"، و"دعوة وتاريخ"، و"الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر وجهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية"، و"الدعوة الإسلامية في الهند وتطورها"، و"الدعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف"، و"الدعوة والدعاة مسؤولية وتاريخ"، و"زوائج من أدب الدعوة في القرآن والسيرة"، و"منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء"^(١).

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ١٨٠، ١٨٢، ١٥٤

في تاريخ الإسلام وسير الأعلام

ومن أشهر كتب الندوي في التاريخ كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، ولهذا الكتاب دور كبير في توسيع دائرة شهرته في أنحاء العالم، وهو من بواكير تصانيفه إذ صنفه لما جاوز ثلاثين سنة من عمره، وقد نُشرت هذا الكتاب دور الكتب الكثيرة في أرجاء العالم، نُشر في القاهرة وبيروت والإسكندرية والرياض والكويت ودولة قطر وكراتشي ودمشق. وتمت ترجمته إلى عدة لغات شرقية وغربية. يصور هذا الكتاب تاريخ أحوال الناس في الجاهلية وما بعدها من أحوال المسلمين ومدى قيادتهم في بلاد شتى.

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة أبواب قيمة، الباب الأول "العصر الجاهلي" ويندرج تحته فصلان، هما "الإنسانية في الاحتضار"، و"النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي". والباب الثاني "من الجاهلية إلى الإسلام"، وتندرج تحته أربعة فصول، هي "منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير"، و"رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام"، و"المجتمع الإسلامي"، و"كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية". والباب الثالث هو "العصر الإسلامي"، وتندرج تحته ثلاثة فصول، هي "عهد القيادة الإسلامية"، و"الانحطاط في الحياة الإسلامية"، و"دور القيادة العثمانية". والباب الرابع هو "العصر الأوروبي"، وتندرج تحته أربعة فصول، هي "أوروبا المادية"، و"الجنسية الوطنية في أوروبا"، و"أوروبا إلى الانتحار"، و"رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي". أما الباب الخامس والأخير فهو "قيادة الإسلام للعالم"، ويندرج تحته فصلان، هما "نهضة العالم الإسلامي" و"زعامة العالم العربي".

وقال سيد قطب عن هذا الكتاب في مقدمته: "وهذا الكتاب بين يدي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لمؤلفه "السيد أبي الحسن علي الندوي" من خير ما قرأت في هذا الاتجاه، في القديم والحديث سواء"^(١).

ومن أهم كتبه في التاريخ غير هذا الكتاب المذكور "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية"، و"المسلمون في الهند"، و"كيف دخل العرب التاريخ".

أما كتبه في تراجم الأعلام وسيرهم فكثيرة، ومن أهمها "السيرة النبوية"، و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، و"المرتضى"، و"الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله"، و"الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، و"إذا هبت ريح الإيمان"، و"في مسيرة الحياة" (سيرته الذاتية)، وسيأتي الكلام عنها مفصلاً في الباب التالي إن شاء الله.

في دراسات إسلامية أخرى

وله كتابات إسلامية أخرى لا تدخل فيما ذكر من المجالات والموضوعات، وفيها كتب ضخمة ومقالات قيمة ومحاضرات مهمة. منها على سبيل المثال: "الإسلام- أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية"، و"الإسلام فوق القوميات والعصبيات"، و"الإسلام في عالم متغير"، و"الإسلام والحكم"، و"الإسلام والغرب"، و"اسمعيات" (اسمي يا إيران، واسمي يا زهرة الصحراء، واسمي يا سورية، واسمي يا مصر) و"إلى الإسلام من جديد"، و"إلى شاطئ النجاة"، و"دور الإسلام في تقديم البلاد التي دخلها"، و"دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها"، و"العرب والإسلام"، و"قيمة الأمة

^١ قطب، سيد، مقدمة كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الندوي، مكتبة الإيمان بالقاهرة، سنة الطبعة غير مذكورة، ص: ١٠.

الإسلامية بين الأمم"، و"مع الإسلام"، و"النبي الخاتم"، و"مكانة المرأة في الإسلام"، وغيرها من الأعمال.

في الأدب العربي

ومن مؤلفاته في الأدب العربي كتاب "نظرات في الأدب"، الذي يعالج الأدب العربي والفكر الإسلامي والدعوة، وقال الدكتور عبد الباسط بدر عن مزايا هذا الكتاب: "ولقد قرأت الكتاب قبل أن تدور به آلات الطباعة، ورأيته يتميز بميزتين نادرتين:

الأولى: أنه نتاج قلم يحمل في تكوينه ثلاث سمات متكاملة متداخلة: الأدب والفكر والدعوة إلى الله.

الثانية: أنه في مجمله كتاب تنظير وتعقيد، أقرب إلى أن يكون بيان مبادئ للأدب الإسلامي، يؤصل بشكل مباشر وغير مباشر مجموعة من الأعراف الأدبية والنقدية"^(١). ومنها "مختارات من أدب العرب"، و"روائع إقبال".

في التعليم والتربية

ومن خدماته التأليفية في مجال التربية والتعليم "نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية" (مقالات ومحاضرات عن سياسة التعليم والتربية في الأقطار الإسلامية والحاجة إلى صياغتها الإسلامية الجديدة) ومنها "سياسة التربية والتعليم السليمة في الأقطار ذات الشخصية والعقائد والمبادئ وذات الرسالة والدور القيادي"، (في ضوء العقل والعلم، وفي نظر أشهر علماء التربية في العصر الحديث)

^١ بدر، د. عبد الباسط، مقدمة نظرات في الأدب لأبي الحسن علي الندوي، دار البشير بجدة، الطبعة الثانية ١٩٩٧م، ص: ٥

في أدب الأطفال

ومن إسهامات الندوي في أدب الأطفال "القراءة الراشدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية". يتميز هذا الكتاب بأنه مؤلف في لغة أدبية ممزوجة بالقيم الدينية وجماليات القرآن والحديث، وبأن كلماته جديدة عربية الأصل وصحيحة الاشتقاق، ولم يستعمل كلمات عجمية، وبأنه أُلّف في أسلوب الأطفال الجميل، وكررت بعض الألفاظ ليفقها الطالب الصغير بدون بذل جهد كبير. ومن مزاياه تشتت المواضيع وتنوعها، حتى يستطيع الطالب قطف الثمار اليانعة العلمية المتنوعة، واشتمل على قصص صغيرة واردة في الأحاديث النبوية، حتى يقدر الطالب على فهم وامتنال القيم الإسلامية، وحفظ الأدعية اليومية الواردة.

ومن كتبه في هذا الصدد "قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال"، الذي يحتوي على قصص ممتعة من حياة الصحابة الأعزاء والتابعين الأجلاء وغيرهم من الفضلاء. ومنها كتابه "قصص النبيين" في خمسة أجزاء، هذا الكتاب كما يدل عليه عنوانه تصوير حياة بعض الأنبياء في أسلوب يفهم به الطفل حياتهم ويمثل بها، والجزء الخامس منها جزء مستقل بسيرة محمد ﷺ، وعنوانه "سيرة خاتم النبيين".

في أدب الرحلات

وله تأليفات في أدب الرحلات، منها "مذكرات سائح في الشرق العربي"، و"من نهر كابل إلى نهر اليرموك - جولة في غرب آسيا"، و"أسبوعان في المغرب والأقصى".

وله أيضا كتابات كثيرة في مختلف ميادين اللغة العربية، ما عدا المذكورة، منها كتب ضخمة نشرتها دور الكتب في أنحاء العالم المختلفة، ومنها محاضرات ألقاها في مختلف الحفلات من أرجاء العالم، ومنها مقالات كتبها في مجلات تصدر عن الهند وخارجها.

الندوي والصحافة

لم ينس الندوي وضع يده على فن الصحافة وإغنائه بمساهماته المرموقة، وكان دخوله إلى ميدان الكتابة بمقالته في مجلة "المنار" وهو ابن ستة عشر عمرا في سنة ١٩٣١م كما ذكر، وفي السنة التالية (١٩٣٢م) شارك الأستاذ مسعود عالم الندوي في تحرير مجلة "الضياء"، وهي المجلة العربية الأولى صدرت في الهند، وكانت تصدر تحت إشراف السيد سليمان الندوي والدكتور تقي الدين الهلالي. وكان تحريرها ثروة فنية وتجربة صحافية للندوي وأمثاله من طلبة دار العلوم. وقد نالت المجلة إعجابا وقبولا من طرف العلماء والكتاب في أنحاء العالم، مثل السيد رشيد رضا الذي كتب مقالة ترحيبية بها في مجلته "المنار" بعنوان "نهضة جديدة لإحياء لغة الإسلام العربية في البلاد الهندية".

وشرف الندوي مجلة "المسلمون" الدمشقية بكلماته الافتتاحية لها مدة سنتين تقريبا (من ١٩٥٨م إلى ١٩٥٩م) ثم استمر فيها كاتبا للمقالات والمذكرات زمنا طويلا. وكان يكتب في "الفتح" المجلة التي أصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب، كما كان يكتب المقالات في مجلة "حضارة الإسلام" أصدرها د. مصطفى السباعي.

وقدم الندوي أعلى مساهمات أخرى في الصحافة فوق ما ذكر آنفا، وقال د. محمد أكرم الندوي عن هذه المساهمات: "ورأس تحرير مجلة "الندوة" الأردنية - لسان حال الندوة- عام ١٩٤٠م، وأصدر مجلة "التعمير" الأردنية عام ١٩٤٨م، وأشرف على إصدار جريدة "نداى ملت" الأردنية الصادرة عام ١٩٦٢م، وكان المشرف العام على مجلة "البعث الإسلامي" العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م، وجريدة "الرائد" العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م، وجريدة "تعمير حيات" الأردنية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م، والمجلة الإنكليزية "The Fragrance" الصادرة منذ عام ١٩٩٨م، أربعتها تصدر من

ندوة العلماء، وكان هو المشرف العام على مجلة "معارف" الأردنية الصادرة من دار المصنفين بأعظم كره، ومجلة "الأدب الإسلامي" الصادرة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية مكتب البلاد العربية، ومجلة "كاروان أدب" الصادرة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية مكتب بلاد شبه القارة الهندية"^(١).

أسلوب الندوي ومزاياه في الكتابة

إن أسلوب الندوي رائع جميل جذاب، لا يُمل القارئ ولا يُضجر المطالع، ألفاظه سهلة وعباراته قصيرة مع كثافة المعنى ودقة الدلالة وتأثير العقول وتعميق الأفكار. وقد ذكر سيد عبد الماجد الغوري ست سمات لأسلوب مؤلفات الندوي^(٢)، خلاصته:

(أ) سهولة الألفاظ والتراكيب: أسلوبه سهل جدا، لا يكلف القارئ مشقة لفهم المعاني وإدراك المواد، كلماته مختارة فصيحة تناسب المناسبات.

(ب) التزام القرآن والحديث: نهج الندوي في كتاباته مناهج يدل عليها القرآن والحديث، وحاول التزام القوانين الشرعية والتعليمات الإسلامية.

(ج) لفت الأنظار إلى التاريخ: ومن ميزة أكثر خطبه وكتبه وسائر كتاباته أنها تشتمل على واقعة أو وقائع تاريخية يستفيد منها القارئ ويتمتع بها، وإيراد هذه الحوادث التاريخية يدل على علم الكاتب الواسع في التاريخ وعلى توسع قراءته التي بدأت عند نعومة أظفاره.

^١ الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ١٥٥
^٢ الغوري، سيد عبد الماجد، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ص: ٦٩٦-

د) الاهتمام بالدعوة الإسلامية: كان يهتم بالدعوة أي اهتمام، دعا الناس إلى الله بكتابات وخطاباته الكثيرة، وكان يأمر الناس بالخير وينهاهم عن الشر في أسلوب يلائم عقولهم ودرجاتهم وأجناسهم.

هـ) الاهتمام بأمور العرب: كان الندوي يهتم بأمور العرب كما كان يهتم بأمور أهل بلده الهنود، وكان يصف الدواء الشافي لحل مشاكلهم، لأنه اعتبرهم عصابة الدين وأهل رسوله ﷺ ووُلد أصحابه الفائزين برضا الله. ومنها ما ألقاه من المحاضرات القيمة وما كتبه من المقالات الضخمة في موضوع قضية فلسطين.

و) الغيرة على مشاكل أهل الإسلام وغدهم: إن مشاكل المسلمين حظيت بمكان عال في مؤلفات الندوي ومحاضراته ومقالاته، وصور قضايا المسلمين في أكثر بلاد العالم أحسن تصوير ووصف لها الحل الناجع، وقد عاين بعضاً من تلك المشاكل أثناء رحلاته الطويلة وأسفاره المتتالية.

وقد قال كثير من الأدباء والعلماء في أنحاء العالم عن جماليات لغة الندوي وأسلوبه، منها على سبيل المثال:

أ) قال سيد عبد الماجد الغوري في مقالة "الشيخ أبو الحسن علي الندوي أديب عملاق" المضمومة إلى كتاب "يحدثونك عن أبي الحسن الندوي" يحتوي على مقالات لعلماء العصر وأدبائه الذي قام بإعداده وجمع المقالات د. محسن العثماني الندوي: "وكل هذا يحس به من يقرأ كتاباته، فيلمس فيها بلاغته العربية، وقدرته البيانية، في ألفاظه المنتقاة، وعباراته الرشيقة، بعيدة عن الكلفِ ونقية من الكلفِ"^(١).

^١ الغوري، سيد عبد الماجد، "الشيخ أبو الحسن علي الندوي أديب عملاق"، يحدثونك عن أبي الحسن الندوي، بقلم علماء العصر وأدبائه، (كتاب قام بإعداده وجمعه د. محمد العثماني الندوي) دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص: ٢٣٨

ب) وقال د. مصطفى السباعي في مقدمة "رجال الفكر والدعوة في الإسلام": "وله كتبه ومؤلفاته التي تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ورسائل معالجتها"^(١).

ج) وقال د. منجد مصطفى بهجت^(٢) في مقالة "الداعية الأديب" المنشورة في مجلة البعث الإسلامي: "وفي مجال الأدب حدد مفهوم الأدب الإسلامي، وأنكر وجود الحدود الجغرافية فيه، وقرر أن عناصر الأدب الإسلامي وأسسها أربعة هي: العقيدة والعاطفة والإخلاص والصدق، وهذه الأسس ليست بمعزل عن الشروط الفنية"^(٣).

د) وقال الشيخ نور عالم خليل الأميني في مقالة "الندوي صاحب الكتاب والخطاب المؤمن والمفكر الداعية المثالي" المنشورة في مجلة "الصحوة الإسلامية": "إن ما تركه من رصيد ضخم من المؤلفات والكتابات والرسائل ومجموعات الخطابات، ذات اللغة الأدبية الرشيقة والأسلوب المؤمن السیال، والصياغة الدقيقة المحكمة، والمعاني اللطيفة..."^(٤).

هـ) وقال عبد الباسط أحمد في مقالة "أبو الحسن الندوي .. كاتباً ومفكراً" المنشورة في مجلة "الأدب الإسلامي": "لقد جمع الشيخ بين جمال الأسلوب اللفظي والذوق المصفي والحس المرهف، وبلاغة الأولين وسهولة المتأخرين"^(٥).

^١ السباعي، د. مصطفى، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن علي الندوي، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج: ١ ص: ٨

^٢ كان أستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ولد في سنة ١٩٤٧م.

^٣ بهجت، د. منجد مصطفى، "الداعية الأديب"، البعث الإسلامي، ندوة العلماء لكهنؤ - الهند، الأعداد الرابع والخامس والسادس، أبريل ومايو ويونيو سنة ٢٠٠٠م، (عدد ممتاز عن الندوي بعنوان كلمات التعزية) ص: ٧٧

^٤ الأميني، نور عالم خليل، "الندوي صاحب الكتاب والخطاب المؤمن والمفكر الداعية المثالي"، مجلة الصحوة الإسلامية، القسم العربي بالجامعة الإسلامية، دار العلوم حيدر آباد - الهند، العدد السادس والثلاثون، أبريل ٢٠٠٠م، (عدد ممتاز عن أبي الحسن الندوي) ص: ١٣٧

^٥ أحمد، عبد الباسط، "أبو الحسن الندوي.. كاتباً ومفكراً"، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض، المجلد السابع، العددان السادس والسابع والعشرون ١٤٢١هـ، (عدد خاص عن الشيخ أبي الحسن الندوي) ص: ١١٣

و) وقال الأستاذ محمد حسن بريغش عن أسلوب الندوي في كتابات أدب الأطفال في مقالة "الشيخ أبو الحسن الندوي الأديب الناقد" المضمومة إلى كتاب "المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي" الذي قام بالجمع والترتيب السيد محمد واضح رشيد الحسيني الندوي: "ولذلك أراد الشيخ الندوي أن يكتب لهم، وبلغه القرآن الكريم، والرسول العربي، ولغة الدين قصصا عن الأنبياء والمرسلين، عليهم صلاة الله وسلامه، بأسلوب سهل يوافق أعمارهم، وأذواقهم، ويهدف إلى إفادتهم، وتربيتهم، وزيادة ثروتهم اللغوية، وإمتاعهم، وتنمية مواهبهم، وتعميق إحساسهم بالإيجابيات"^(١).

ز) وقال الأستاذ عميد الزمان الكيرانوي في مقالة "بعض الأساليب الأدبية العلمية لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي" المنشورة في مجلة "ثقافة الهند": "فقد تميزت أساليبه عن بعضها البعض من كتاب إلى آخر حسب موضوعه، ولكنها ليست متباينة، وإنما هي متميزة بعضها عن بعض تميزا يمتشي مع الموضوع. ولا بد من أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هناك روحا جوهرية تلازم هذه الأساليب ولا تفارقها، وإذا فارقتها فلا يطول فراقها..."^(٢).

ح) وقال الأستاذ محمد المجذوب: "والحديث عن مؤلفات أبي الحسن لا تغني فيه الإشارة العجلى، بل يتطلب الوقوف على كل منها بكلمة تحليلية تكشف عن قيمته العلمية والأدبية، وما ينطوي عليه من خصائص ذلك القلب الحي. إلا أن هذا أمر متعذر في عرض سريع كهذا، وحسبنا أن نستعري انتباه القارئ الواعي إلى صيغ العناوين وما توحى به من أبعاد وأعماق"^(٣).

^١ بريغش، محمد حسن، "الشيخ أبو الحسن الندوي الأديب الناقد"، "المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي"، (كتاب قام بالجمع والترتيب السيد محمد واضح رشيد الحسيني الندوي) مكتبة رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة بلكنؤ - الهند، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص: ١٠٤

^٢ الكيرانوي، عميد الزمان، "بعض الأساليب الأدبية العلمية لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي"، مجلة "ثقافة الهند"، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنبو دلهي، المجلد الثاني والخمسون، العدد الرابع ٢٠٠١م، (عدد ممتاز عن الندوي) ص: ٢٩٨

^٣ المجذوب، الأستاذ محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، بالرياض، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م، ج: ١، ص: ١٤٦

الفصل الثالث

الندوي الرحالة

سافر أبو الحسن علي الندوي إلى بلاد كثيرة عربية وغير عربية، إسلامية وغير إسلامية، وكانت أسفاره كلها أو جلها في سبيل العلم والتعليم، وفي سبيل القيام بأنشطة دعوية من إلقاء المحاضرات وحضور الاجتماعات الدعوية والجلسات اللغوية والحفلات العلمية. وهذا الفصل يعالج ما قام به من الرحلات الهامة العلمية والدعوية إلى بلاد الخليج من المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، ودولة الكويت، ودولة قطر، وما قام به من الرحلات إلى اليمن، ومصر، والسودان، والشام، والأردن، وفلسطين، والعراق، ولبنان، والمغرب، والجزائر. وفي الفصل كلام عن رحلاته إلى أوروبا، وأمريكا، وباكستان، وأفغانستان، وبنغلاديش، وماليزيا، وبورما، وسيلان، وإيران، وأوزبكستان.

رحلاته إلى دول الخليج

وقد سافر الندوي إلى المملكة العربية السعودية لأداء الحج وحضور حفلات علمية وتعليمية وتربوية، كما سافر إلى الإمارات العربية المتحدة ودولة الكويت ودولة قطر للمشاركة في شتى النشاطات الدعوية والأدبية.

أ) إلى المملكة العربية السعودية

كانت رحلة الندوي الأولى إلى المملكة للحج في ٩ يوليو سنة ١٩٤٧ م، وكانت من كراتشي إلى جدة في السفينة، ووصل إليها في ١٩ يوليو قبل ثلاثة أشهر من أيام الحج، ومكث هذه الشهور في المدينة، ولم يرجع إلى الهند إلا في ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ م. وقد أنتجت

هذه الرحلة عدة علاقات وثيقة بينه وبين كثير من فحول الأدباء السعوديين والعلماء والدعاة والرؤساء. وواصل الندوي بعد الرجوع هذه العلاقات الجديدة التي تكونت بهذه الرحلة وحافظ عليها بمراسلاته ومكاتباته المتتالية.

ثم خرج الندوي للحج في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٠م مع الشيخ عبد القادر الرائي بوري ومع أربعة تلاميذ له الذين أرادوا الإقامة بالحجاز بعد أداء الحج، وكان هذا السفر أيضا في السفينة، ولكن كان من بومبائي (مومبائي). ورأى في هذه الرحلة أن البلاد العربية تأثرت بالثقافات الغربية تأثرا خطيرا، وقال عن هذ التأثير: "لقد شعرت أثناء إقامتي بالحجاز بأن الحضارة الغربية قد أثرت في البلدان العربية تأثيرا كبيرا، بل شلت قواها، وحطمت أعصابها، ولا يستثنى من ذلك شباب جزيرة العرب والحجاز المقدس، الذين رزق بهم العالم نعمة الإيمان والإسلام، وانقضت بهم ظلماته، وظهرت منهم أمة خلقت للقيادة والإمامة"^(١).

استطاع الندوي في هذه الرحلة أن يشارك في جلسة علمية وأدبية مع بعض الأدباء والكتاب، والذي مهد له الطريق إليها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار^(٢)، وكان هذا الاجتماع في "بستان بخارى" المكان المعروف الذي كانت تنعقد فيه جلسات عظيمة، واجتمع فيه كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين وغيرهم من أصدقاء الأستاذ عطار.

سنحت للندوي في هذه الرحلة فرصة للقيام بسلسلة المحاضرات في الإذاعة السعودية التي صارت نقطة تحول في حياته، والتي أكسبته الشهرة بين العرب، هيا له هذه الفرصة الغالية الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان مراقب الإذاعة السعودية ووزير المالية، وكان عنوان سلسلة محاضراته "بين العالم وجزيرة العرب".

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٢١٢.

^٢ هو كاتب حجازي معروف وعالم أدبي مشهور، توفي في سنة ١٩٩١م.

ثم خرج الندوي إلى المملكة في شهر أيار سنة ١٩٦٢م في الطائرة ضيفا للحكومة السعودية ومستجيبا لدعوة مسؤولي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعد أن اختير عضوا في المجلس الاستشاري لها للمشاركة في جلسته الأولى، وكان يصاحبه في هذا السفر الشيخ محمد معين الندوي، ولما وصل إلى مكة حضر جلسة عقدت لتكريمه والترحيب به، وشرفها بمحاضرته حول الجامعة الإسلامية وما يتعلق بها. وفي نفس الرحلة ألقى محاضرة قيمة في الإذاعة السعودية حول "وفود الأمة بين يدي نبينا ﷺ"، وضممت هذه المحاضرة إلى كتابه "الطريق إلى المدينة".

وعندما كان الشيخ يقضي أيامه هناك منتظرا الحج دعي إلى اجتماع إسلامي ينعقد في القصر الملكي، وتم فيه إنشاء منظمة "رابطة العالم الإسلامي" وعين عضوا من أعضائها المؤسسين، وسنحت له فرصة لإلقاء خطاب قيم في الحفلة الأولى لها حول "الأخوة الإسلامية فوق العصبية".

وبعد الحج عقدت جلسة المجلس الاستشاري في الجامعة الإسلامية، وشارك فيها وقدم أغلى الإرشادات والنصائح والتوصيات حول المجالات المختلفة المتعلقة بالدورات التي سوف تنفذ في الجامعة ومناهجها وأنظمتها. ورجع العلامة الرحالة إلى بلده الأم في الشهر التالي.

وفي السنة التالية (١٩٦٣م) رحل الندوي مع الشيخ محمد الرابع الحسيني إلى الحجاز مستجيبا لدعوة الجامعة الإسلامية للقيام بإلقاء سلسلة الخطابات على تلاميذها، وكان موضوعها "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن". وتيسر له في هذه المرة اجتماع بالملك فيصل في القصر الملكي، وأبدى في هذه المقابلة ما في قلبه من التخوفات والأفكار حول أوضاع البلدان العربية وسيرها الجديد.

وفي عام ١٩٦٩م رحل إلى المملكة للمشاركة في اجتماع المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية، وكان هذا السفر سفرا لا يُنسب بالنسبة إليه، لأنه كان مع الشيخ محمد زكريا الكاندهوي.

وسافر الندوي إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٧م، وأتيحت له فرصة لإلقاء خطاب حول "ميزان الربح والخسارة" على جمع كبير من الرؤساء والأدباء والكتاب والأساتذة والطلاب. وفي السنة التالية (١٩٦٨م) ألقى محاضرة بعنوان "نظامان إلهيان للغلبة والانتصار" في قاعة المدرسة الثانوية في المدينة المنورة على حفل كبير من أساتذة وطلاب الجامعة وبعض سائر المعاهد وأهل العلم والقلم. وفي سنة ١٩٦٩م أيضا أتيحت له فرصة لإلقاء خطاب في نفس القاعة، وكان محور كلامه "ثلاثة دورس من مأساة فلسطين". ومن رحلاته إليها ما قام به في سنة ١٩٧٩م، وكانت هذه الرحلة لحضور اجتماع لجنة وزراء الأوقاف.

ووصل الندوي جدة في مايو ١٩٨٤م، وكان وصوله في هذه المرة من عمان، وكان يريد إحرام العمرة من المدينة ووصولها، ولم تكن هناك جلسات، بيد أن بعض الأساتذة والتلاميذ كانوا يزورونه بغرفته، وكان مجرد مقصده الإحرام بالعمرة وزيارة المسجد النبوي والصلاة والسلام على خاتم النبيين. وبعد أداء العمرة جاءه جمع من الأدباء البارزين بمكة، وأعلنوه بإنشاء منظمة "رابطة الأدب الإسلامي"، وبينوا له أغراضها، وطلبوا منه أن يكون رئيسا لها، حيث يكون مركزها بندوة العلماء، ويكون الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي أمينها العام.

ثم في شهر ديسمبر سنة ١٩٨٤م سافر إلى مكة مع السيد جعفر الحسيني والسيد طارق حسن عسكري لحضور الاجتماع السنوي للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وعقب حفلات الرابطة أقاموا بمكة والمدينة مدة أيام. وفي تلك الفترة قام

الندوي بمحاضرات قيمة، منها ما قام به بمكتبة الملك عبد العزيز مستجيباً لدعوة "نادي المدينة المنورة الأدبي" حول موضوع "دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر"، ومنها ما ألقاه على تلاميذ الجامعة الإسلامية بعنوان "أزمة إيمان عالمية ومسؤولية العلماء المسلمين"، ومنها ما ألقاه في "نادي مكة الثقافي". وحضر الندوي كضيف شرف حفلةً عقدت لاستقباله وتكريمه، حيث شرفها جمع كبير من الشخصيات البارزة في مجال اللغة والأدب والعلم والتعليم والتربية من المملكة بحضورهم.

وأمكن الندوي في هذه الرحلة من زيارة الرياض ملياً دعوة الدكتور عبد الله بن المحسن التركي^(١)، وزار "كلية الدعوة والإعلام"، وحضر ندوة أدبية من الندوات التي كانت تعقد كل أسبوع في بيت الشيخ عبد العزيز الرفاعي، وألقى فيها خطاباً قصيراً، كما حضر جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي التي تم انعقادها في بيت الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا.

وفي اليوم التاسع من شهر أكتوبر سنة ١٩٨٧م سافر الندوي مع الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي إلى مكة المكرمة للمشاركة في المؤتمر المنعقد في "قاعة التضامن الإسلامي" هناك، وشارك في الاجتماع الأول للمؤتمر قبل أداء العمرة، وألقى في الجلسات المتفرقة للمؤتمر محاضرات حول عناوين مختلفة، حيث حضرها حفل كبير من مجالات المجتمع المتنوعة.

وبعد أن انتهى المؤتمر سافر إلى المدينة، ولم تكن هناك برامج خاصة مقررة إلا بعض الحفلات والاجتماعات لمجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي، فاستطاع أن يقضي وقتاً كثيراً في المسجد النبوي. ثم خرج إلى جدة وأقام بها يوماً واحداً، وألقى في مسجد

^١ كان نائب رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ولد في سنة ١٩٤٠م.

منصور الشعبي خطابا بالغا بعد صلاة المغرب، وعقب هذا الخطاب سافر إلى مطار الرياض وطار منه راجعا إلى الهند.

وكانت الرحلة التالية إلى مكة المكرمة في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٨٨م، خرج مليبا دعوة رابطة العالم الإسلامي مع الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي للمشاركة في الجلسة السنوية للمجلس التأسيسي لها، وحضر الجلسة متأخرا بيومين بسبب مشكلة طيرانية، وحضر أثناء هذه الرحلة جلسة علمية عقدها الأستاذ محمد جمال في بيته تكريما له. وتمكن في هذا السفر من الاجتماع بالشيخ محمد صالح القزاز، إذ كان لا يخرج إلى الناس لشيخوخته وتفرغه للعبادات والخدمات الإسلامية، كما تمكن من زيارة الدكتور عبد الله عباس الندوي أيضا.

ثم انتقل إلى المدينة المنورة، وحضر اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي في دار الدكتور عبد الباسط بدر^(١) مع نخبة من العباقرة والدكاترة والأساتذة المشهورين. ومن ثم انتقل إلى جدة وألقى خطابا مختصرا في جلسة عقدها الشيخ عبد الله علي بصفر، وكان مدار هذا الخطاب تفسير سورة العصر. وفي اليوم التالي ألقى خطابا في مسجد الجوهرة بالعزيرية في اللغة الأردية خاطب به أهل الهند والباكستان.

ومن رحلاته إلى المملكة العربية السعودية الرحلة التي قام بها في اليوم الثالث والعشرين في كانون الثاني من سنة ١٩٩٠م ليشارك في دورة يعقدها "المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي" وجلسات "المجلس العالي للمساجد" وجلسات "المجمع الفقهي"، ولكنه لم يقدر على المشاركة في حفلات "المجمع الفقهي" لأشغاله الشاغلة وإلحاح الحاجة إلى الرجوع إلى بلده الأم^(٢). انتقل بعد المشاركة في المجلسين

^١ كان أستاذا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، توفي في ٢٠٢٠م.

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج: ٣ ص: ٦٣

إلى المدينة المنورة مع بعض أصحابه، ومن ثم إلى مكة المكرمة، ثم إلى الرياض، وأتيحت له فرصة للقاء مع صاحب السمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، وسمو الأمير سلمان، وسمو الأمير أحمد. واستطاع أن يقوم بإلقاء محاضرة في جلسة توديعية للطلبة المتخرجين - من خارج المملكة - من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان محور المحاضرة تنبيه الطلبة بمسؤولياتهم الدعوية بعد الرجوع إلى بلادهم وإعلامهم بأهمية امتثالهم شرائع الدين الصحيحة.

ومنها رحلته في سنة ١٩٩٣ م إلى المدينة المنورة - وكان خروجه إليها في هذه المرة من أوروبا - ولم تكن له برامج خاصة هناك إلا زيارة المسجد النبوي والصلاة والسلام على الرسول ﷺ والإحرام بالعمرة. وسافر إلى مكة في اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر مع بعض أصدقائه، وبعد أداء العمرة أقام بها بعض الأيام، وفي تلك الفترة تم اللقاء مع الكاتب الشهير الشيخ علي الطنطاوي حيث كان يسكن بالعزيرية، ومع الدكتور عبد الرحمن نشاط في بيته، ومع الشيخ محمد ناصر العبودي، والشيخ محمد حافظ في بيت الدكتور عبد الله عباس الندوي^(١).

ب) إلى الإمارات العربية المتحدة

ومن أهم رحلات الندوي إلى الإمارات العربية المتحدة رحلته إلى أبو ظبي ودبي مليبا طلب حكومة الشارقة في شهر يناير من سنة ١٩٧٤ م، وكان له خطابان في هذه الرحلة، الأول في مسجد علي بن أبي طالب بعنوان "خليج بين الإسلام والمسلمين"، والثاني في المكتبة العامة بدبي بعنوان "كيف دخل العرب التاريخ؟". أما في رحلته في سنة ١٩٧٦ م فحصل على فرصة إلقاء خطاب تذكاري في الديوان الأميري بأبو ظبي بعنوان "نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة".

^١ نفس المرجع، ج: ٣، ص: ٢٧٥

ومنها رحلته في نوفمبر سنة ١٩٨٣ م ورحلته في نوفمبر سنة ١٩٨٨ م، أما الأولى فكانت استجابة لدعوة أبناء الشيخ عبد الله العلي المحمود بعد وفاته - في آذار سنة ١٩٨٢ م - للمشاركة في الجلسة الافتتاحية للمكتبة العامة في الشارقة، - كانت قبل وفاته مكتبته الشخصية، وقرر أبناؤه بعد وفاة والدهم أن يجعلوها مكتبة عامة - وكانت الجلسة حضرها أبرز الشخصيات وأشهرها من الحكام والوزراء والرؤساء والأمناء. وقال الندوي عنها: "وقد حضر الحفلة حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، وحاكم عجمان الشيخ حميد بن راشد النعيمي، وعدد من وزراء الإمارات وأعيانها، وكان لحسن الحظ معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام للرابطة موجودا بالإمارات في زيارة، فشارك في الافتتاح"^(١). وألقى الندوي أمامهم محاضرة بليغة ضمت لاحقا إلى كتابه "أحاديث صريحة لإخواننا العرب والمسلمين".

وبعد هذه الحفلة قضى في الإمارات مدة أسبوع كامل، وخلالها ألقى بعض المحاضرات في مختلف الجامعات والكليات، منها ما ألقاه بعنوان "أزمة هذا العصر الحقيقية" في جامعة العين، وما ألقاه بعنوان "دور البنات المسلمات في المجتمع الإسلامي" في كلية البنات بجامعة العين، وما ألقاه بعنوان "إلى الإسلام من جديد" في جامع سعد بن أبي وقاس بأبو ظبي، وما ألقاه في جامع عمر بن الخطاب بالشارقة^(٢).

وفي شهر نوفمبر سنة ١٩٨٨ م سافر الندوي من جدة إلى أبو ظبي، وفي هذه الرحلة ألقى خطابا في "المجمع الثقافي" حول موضوع "ترشيد الصحوة الإسلامية". وفي اليوم التالي اجتمع بالشيخ سلطان القاسمي، وقام بإلقاء خطاب في "كلية الدراسات الإسلامية" بدبي، كما قام بعد المغرب من ذلك اليوم بإلقاء خطاب في "قاعة المحاضرات" بالشارقة.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ج: ١، ص: ٤٢٨

^٢ نفس المرجع، ص: ٤٢٩

ج) إلى دولة الكويت

كانت رحلته الأولى إلى دولة الكويت في ٢٤ من يناير سنة ١٩٦٢م، وسنحت له في هذه الرحلة فرص كثيرة لإلقاء خطب عديدة، منها خطب الجمعة وغيرها، كما سنحت له فرصة لإلقاء محاضرة في "الإذاعة الكويتية" حول موضوع "اسمعي يا زهرة الصحراء". وأقام هناك الأيام العشر الأولى من شهر رمضان المبارك، ورافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد معين الندوي، ومحمد الرابع الحسيني الندوي.

ثم رحل إليها في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨م، وكان قد خرج إليها من المملكة العربية السعودية. وقام بإلقاء محاضرة حول "العالم العربي ليس في خطر من إسرائيل، بل من ذلك الضمير الذي ترك عمله وتخلّى عن مسؤوليته"، وكانت المحاضرة في قاعة "جمعية الإصلاح الاجتماعي". ومن أسفاره إلى الكويت ما قام به في ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٨٣م، وكان ذلك من الإمارات العربية المتحدة. وقال عن دواعي وأحداث هذا السفر: "وكننت تلقيت قبل أسابيع دعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في وزارة الإعلام لإلقاء محاضرة بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري، بعنوان: "الإسلام والمدنية الإنسانية"، فأحببت أن يتم هذا في هذه الرحلة الواحدة، ونظم المجلس الوطني الاحتفال العام بهذه المناسبة في ساحة كلية العلوم بجامعة الكويت، ووجه دعوات إلى الحاضرين على نطاق واسع، وألقيت محاضرتي بتاريخ ١٨/صفر ١٤٠٤هـ (٢٣/نوفمبر ١٩٨٣م) بعد صلاة المغرب بعنوان: "الإسلام والحضارة الإنسانية"، وقد طبعت ونشرت"^(١).

وكان سفره الآخر إليها عند الرجوع من لندن إلى الهند في الخطوط الجوية الكويتية في اليوم السادس من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٧م، وقضى هناك مدة يومين. ولم يشارك

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٤٢٩

في برامج خاصة، بيد أنه حضر حفلة غداء عند سعادة الشيخ عبد الله العلي المطوع بإحاحه الشديد عليه مع بعض الزملاء. ومع ذلك شارك في ندوة نظمها "جمعية الإصلاح الاجتماعي".

د) إلى دولة قطر

خرج الندوي إلى دولة قطر في سنة ١٩٧٩م لحضور مؤتمر السيرة الذي انعقد في الدوحة في ٣٠ من شهر نوفمبر، وكان الشيخ عضواً في المجلس الإداري ولجنة الاختيار للمؤتمر، وقد حضرته شخصيات بارزة من أنحاء العالم، رغم أنه لم يُخبر مسبقاً كان عليه أن يلقي خطاب الوفود مرتجلاً. وقدم في فرصته ورقة علمية تعالج صميم موضوع المؤتمر بعنوان "منة البعثة المحمدية على الإنسانية".

رحلته إلى اليمن

وكانت رحلته إلى اليمن في مايو سنة ١٩٨٤م، وكان خروجه إليها من جدة إلى صنعاء، والتي أدته إلى هذه الرحلة دعوة الأستاذ أحمد عبده خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقضى هناك مدة أسبوع ملقياً محاضرات وزائراً أماكن تاريخية ومجتمعاً بأعيان.

وقد ألقى الندوي في هذه الرحلة عدة محاضرات، منها محاضراته في قاعة جامعة صنعاء في ١٥ مايو - ضمت إلى كتاب "نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان" فيما بعد - ومنها ما ألقاه في كلية الطيران، وفي مركز المدرعات، وفي مسجد المشهد، وفي جامع المظفر، وألقى بعض الخطب في الإذاعة والتلفزيون أيضاً.

وفاز الندوي في هذه الرحلة بكثير من الاجتماعات بشيوخ ورؤساء وأمراء، منهم رئيس الدولة علي عبد الله صالح، ورئيس الوزراء عبد العزيز عبد الغني، والقاضي عبد الرحمن محبوب، والقاضي إسماعيل الأكوع، ومحمد علي الأكوع وغيرهم.

وأتيحت له أثناء هذا السفر زيارة بعض الأماكن التاريخية في اليمن، مثل "تعز" و"زبيد" و"الحديدة" وغيرها. وكان رجوعه من صنعاء إلى جدة ومن ثم إلى كراشي في آل الهند.

رحلاته إلى مصر والسودان وفلسطين

رحل الندوي إلى مصر في العشرين من يناير سنة ١٩٥١م، وكانت هذه الرحلة من جدة إلى السويس في سفينة، ومن ثم إلى القاهرة مع معين الندوي وعبد الرشيد الندوي، وكانت له هناك أيضا أنشطة علمية ودعوية من المحاضرات والكتابات وغيرها. ومن أهم محاضراته في مصر ما ألقاه في "دار الشباب المسلمين" حول "العالم على مفترق الطرق" أمام جمع كبير من الأدباء والعلماء والأساتذة، مثل الأستاذ أحمد الشرباصي، والأستاذ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ محمد الغزالي، والأستاذ عبد المنعم خلاف وغيرهم. وحضر جلسة تكريم له عقدها اللواء صالح حرب باشا، وألقى فيها خطابا عالجا خدمات العلماء الهنود في مجال الإصلاح والتجديد، ثم نشر هذا الخطاب بعنوان "الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند". ومن محاضراته ما ألقاه في "مؤسسة دار العلوم" حول موضوع "شعر إقبال ورسالته"، وما ألقاه في جامعة فؤاد الأول بعنوان "الإنسان الكامل في نظر الدكتور إقبال"، وما ألقاه في جلسة الإخوان المسلمين بعنوان "أريد أن أتحدث إلى الإخوان". وحصل الشيخ خلال هذه الرحلة عدة فرص لإلقاء كثير من الخطب في قاعات ومراكز للمنظمات الدعوية المصرية أيضا.

وأتيحت له خلالها فرص عديدة للاجتماعات الكثيرة بكثير من الأدباء المشهورين والعلماء النابغين وبالطلاب الوافدين من أنحاء العالم إلى الأزهر. كما أتيحت له فرص كثيرة لكتابة المقالات حول مختلف الموضوعات، ومن مقالاته التي كتبها أثناء هذا السفر مقالة "اسمعي يا مصر" المنشورة في مجلة "الرسالة" لأحمد حسن الزيات. وقد تم نشر بعض المقالات له في هذه الفترة وهي: "المد والجزر في تاريخ الإسلام"، و"شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال"، و"بين العالم وجزيرة العرب".

ثم انتقل الندوي إلى السودان بعد أن قضى هناك تقريبا من ستة أشهر. وكان ذلك في شهر رمضان المبارك، ومكث بالخرطوم عشرة أيام، أثناء هذه الرحلة استطاع أن يجتمع بكثير من أعيان السودان وعلماءها وأدباءها، مثل علي ميرغني باشا، والحاج محمد موسى سليمان، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري وغيرهم. ورجع منها إلى القاهرة من جديد بعد عشرة أيام.

خلال هذه الرحلة أتيحت له الفرصة للذهاب إلى القدس لزيارة بيت المقدس، وقضاء العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك هناك والمشاركة في صلاة عيد الفطر.

رحلاته إلى الشام ولبنان وتركيا وبغداد

وصل الندوي من القاهرة إلى دمشق في ٢٤ من يونيو سنة ١٩٥١م، وبهذه الرحلة التاريخية اقتدر على توثيق وتوطيد العلاقات مع كثير من الأدباء والكتاب والأساتذة، مثل الشيخ محمد بهجة البيطار، والدكتور مصطفى السباعي، والشيخ محمد سعيد البرهاني وغيرهم^(١)، كما اقتدر على زيارة كثير من المؤسسات التاريخية والمراكز العلمية القديمة التي ساهمت في شهرة دمشق. واستطاع في هذه الرحلة زيارة المسجد الأقصى،

^١ الغوري، سيد عبد الماجد، رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته، دار ابن كثير، بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٧٦

وزيارة بعض الأماكن التاريخية والمدن المسجلة في صفحات التاريخ مثل حمص، وحماة، وحارم وغيرها. وألقى الندوي أثناء هذا السفر عدة محاضرات في مختلف المنصات، منها ما ألقاه في قاعة جامعة دمشق بعنوان "شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين"، ومنها ما ألقاه في حمص حول الإسهامات المرموقة للشام في ترقية العلوم الدينية والأدبية، وألقى في حلب وحماة وغيرها من الأماكن محاضرات قيمة.

رحل الندوي في سنة ١٩٥٦م أيضا إلى دمشق مستجيبا لدعوة الدكتور مصطفى السباعي لإلقاء سلسلة من الخطب في قاعة جامعة دمشق حول الشخصيات البارزة أسهمت في ميدان الإصلاح والتجديد الإسلامي، وكان الخطاب الأول منها في اليوم الرابع من نيسان سنة ١٩٥٦م بعنوان "التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي"، وكان الخطاب الثامن والأخير في ٣٠ مايو سنة ١٩٥٦م. علاوة على هذه الخطب المتسلسلة كان له خطابان في الإذاعة خلال هذا السفر، وكان عنوان الأول منهما "اسمعي يا سورية"، والثاني "محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ".

وحضر الندوي المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بدمشق في يونيو سنة ١٩٥٦م، وكان عنوان محاضرتة فيه "ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي". وبعد أن رجع من الشام إلى الهند اختاره "المجمع العلمي بدمشق" عضوا له. ومن رحلاته إليها ما قام به في أغسطس سنة ١٩٧٣م.

ولمّا كان الندوي بدمشق في إبريل سنة ١٩٥٦م انتهز فرصة أسبوع خال من المحاضرات وسائر المهمات لزيارة لبنان مع بعض أصدقائه، ومكث هناك أربعة أيام، وتمكن خلال هذه الرحلة من زيارة مناطق تاريخية وزيارة أبرز الشخصيات في مجال الدين واللغة والأدب والدعوة، كما تمكن من زيارة طرابلس وقلمون مدينتين تاريخيتين في لبنان تقعان على سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وسافر إليها مع بعض أصدقائه من الحجاز في ٢٩ من يوليو ١٩٧٣ م أيضا، وكان له في هذه الرحلة لقاء مع المفتي الشيخ حسن خالد، وزار معه "أزهر لبنان" ببيروت، واجتمع بالشيخ خليل الميس مديره. ثم زار دار الأيتام الإسلامية بها، واجتمع بالأستاذ محمد مديرها. وطاف بأمكنة لبنان التاريخية، وشاهد آثارها التراثية. ومن البقع اللبنانية التي جال فيها الندوي وأصدقائه أثناء هذه الرحلة طرابلس وصيدا وغيرهما.

وفي هذه الرحلة تمكن من زيارة تركيا أيضا، فزار قبر أبي أيوب الأنصاري، وصلى ركعتين في جامع أياصوفيا - الذي حوِّله كمال أتاترك إلى متحف ومبنى تذكاري ومنع الصلاة فيه - واستطاع أن يشاهد بعض الأمكنة السياحية مثل حديقة "كلمهانة" و"بحيرة باسفورس" وغيرهما. وقام بمحاضرة في جلسة لطلاب الهندسة والطب الأتراك في بيت طالب سوري بإستانبول ، كما قام بمحاضرة في اجتماع انعقد في منزل إدريس - أحد الطلبة من العراق- حول أهمية الدعوة والسماوات التي يجب على الداعي أن يتحلى بها. وشاهد فيها أماكن هامة ذات قيمة تاريخية، وآثارا إسلامية قديمة. ثم انتقل من إستانبول إلى أنقرة فإلى دمشق.

وفي ١٩ يونيو سنة ١٩٨٦ م أيضا خرج إلى إستانبول للمشاركة في جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي مع الأستاذ محمد الرابع الحسني، خلال هذه الرحلة حضر أمسية شعرية شارك فيها كبار الأدباء مثل الأستاذ محمد قطب وغيره، وألقى الندوي فيها محاضرة حول جلال الدين الرومي، كما حضر ندوة أدبية شرفها أديباء كثيرون بكلماتهم، وألقى فيها محاضرة حول الدكتور محمد إقبال. وزار خلال هذا السفر مدينة "بورصة"، وألقى خطابا في جلسة عقدت عند الشاطئ الآسيوي حول "الحياة بعد الموت".

سافر الندوي إلى تركيا في شهر أغسطس سنة ١٩٨٩م أيضا ليحضر الندوة التي عقدتها رابطة الأدب الإسلامي في قاعة مكة بإستانبول حول موضوع "الأدب الإسلامي للأطفال"، والتي شارك فيها أبرز الأدباء من أرجاء العالم. كان الندوي رئيس هذه الندوة. وشارك أثناء هذه الرحلة في جلسة انعقدت في مسجد السلام، وألقى محاضرة تخاطب الدعاة ومدرسي المدارس الدينية وأصحاب جماعة الدعوة والتبليغ.

ثم رحل إليها في أغسطس سنة ١٩٩٣م مع محمد الرابع الحسني ومحمد واضح رشيد الندوي ومحمد عثمان المهندس الحيدرآبادي ليشارك في جلسات لرابطة الأدب الإسلامي.

أما رحلته الأولى إلى بغداد عاصمة العراق فكانت في سنة ١٩٥٦م، ولم يقض هناك إلا ثلاثة أيام لم تكن كافية لزيارة ومشاهدة الأماكن التاريخية كلها.

وسافر في أغسطس ١٩٧٣م أيضا إلى بغداد وحضر عدة برامج دعوية وأنشطة علمية ولقاءات رسمية، منها ما قام به من زيارة "ديوان الأوقاف" و"القصر الجمهوري". وحضر حفلة تكريم له ولأصدقائه الوافدين عقدها ديوان الأوقاف في جامع الشهداء، شرفها عدد كبير من العلماء بمشاركاتهم. وزار خلال هذه المدة جامعة بغداد، واجتمع برئيسه الدكتور سعد الراوي، كما زار "المجمع العلمي العراقي" و"المجمع العلمي الكردي"، واجتمع ببعض الأساتذة مثل عبد الرزاق محي الدين وغيره. وسعد الشيخ في هذه الرحلة بزيارة المتحف العراقي أيضا.

رحلته إلى الأردن

خرج الندوي في ١٢ من أغسطس سنة ١٩٧٣م إلى الأردن، وكان هذا السفر من بغداد إلى البصرة فيلّي عمّان. استطاع في هذا السفر اللقاء مع وزير الأوقاف، والمملك حسين،

والشيخ محمد أمين الشنقيطي الذي كان سفير الأردن في السعودية، والأستاذ تيسير الظبيان الذي كان رئيس رابطة العلوم الإسلامية، والشيخ أمين بروسك وغيرهم من الشخصيات المرموقة. ورأى أثناء الرحلة خيمة اللاجئين الفلسطينيين، وشارك في بعض المؤتمرات مثل المؤتمر الإسلامي انعقد تحت رئاسة الأستاذ كامل الشريف، وشارك في حفلة تكريم عقدها وزير الأوقاف. وألقى خطابا مؤثرا في "السلط"، وفي "إربد" بعنوان "نظرات إلى الإسلام"، وشرف ندوة علمية انعقدت في قاعة الكلية العلمية الإسلامية بكلامه حول "دور الشباب المسلم في المجتمعات المعاصرة".

وتمكن في هذه الفترة من زيارة المستشفى الإسلامي الخيري في عمان تحت إشراف جمعية المركز الإسلامية الخيرية، وزيارة مسجد الجامعة الأردنية، ومديرية أوقاف عمان، ومكتبة الأقصى، ومسجد أحمد قارة، وجمعية المركز الإسلامي الخيرية وغيرها من المعاهد^(١)، كما تمكن من زيارة كهف أصحاب الكهف أيضا. ومن المناطق الهامة التي جال فيها الشيخ إربد، وجرش، والكرك، والبتراء، ومعان وغيرها. ورجع بعد أن أتم هذه الجولة العلمية والدعوية استغرقت أسبوعا كاملا إلى الهند في العشرين من أغسطس.

ومن رحلاته إليها ما قام به في سنة ١٩٨٤ م، وكان سفره هذا من دلهي إلى الكويت ومن ثم إلى عمان في ٢٣ من شهر نيسان، وكان ذلك لحضور المؤتمر السنوي ل"المؤسسة العلمية للبحث والتأليف والتحقيق" انعقد في عمان من ٢٥ إلى ٢٩ من هذا الشهر، وقد حضره مستجيبا لدعوة المؤسسة.

وكان عنوان محاضراته في المؤتمر "المسلمون في الهند ودورهم التاريخي". ومكث هناك في هذه المرة أياما ثمانية، وقام أثناءها بعدة محاضرات في مفترق المنصات، منها ما قام

^١ نفس المرجع، ص: ٣٣٧، ٣٣٦.

به في جامع عمر بن الخطاب بالزرقاء، وما قام به بإربد في قاعة جامعة اليرموك، وما قام به بعمان في كلية العلوم العربية، وما قام به في مركز الدعوة والتبليغ بعمان وغيرها. وزار في هذه المرة أيضا كهف أصحاب الكهف.

رحلته إلى المغرب

خرج الندوي إلى المغرب في ٥ من مايو سنة ١٩٧٦م مستجيبا لدعوة مسؤولي "جمعية الجامعات الإسلامية" للمشاركة في المؤتمر السنوي للجامعات الإسلامية المنعقد في الرباط عاصمة المغرب. وكان خروجه من مطار جدة إلى الدار البيضاء، ومن ثم إلى الرباط في السيارة مع بعض زملائه الوافدين، قبل بداية عمليات المؤتمر زار بعض المعاهد الهامة مثل جامعة القرويين الجديدة، وجامع القرويين، ومكتبة القرويين، كما زار بعض البقع القديمة مثل فاس وأفران وغيرها، واجتمع ببعض الشخصيات البارزة في مجال العلم والدعوة مثل الحاج مصطفى بن هاشم، والشيخ تقي الدين الهلالي الذي كان زائرا إليها وقتئذ، والأستاذ عبد السلام الهراس، والشيخ عبد الواحد العلوي، والأستاذ صالح الأشتري، والأستاذ علال الفاسي، والشيخ مصطفى العلوي وغيرهم. وكتب أثناء هذه الرحلة مقالة حول "نحن الآن في المغرب".

وقام بافتتاح المؤتمر وزير التعليم العالي الأستاذ عبد اللطيف بن عبد الجليل في ١١ من مايو، وألقى الندوي في جلسته الأولى محاضرتة. وتمكن أثناء السفر من الاجتماع بكثير من الأعلام المشهورين مثل عبد العزيز بن عبد الله وغيره. وألقى محاضرة حول "أزمة العالم الإسلامي الحقيقية" في تاريخ ١٤ يوم الجمعة بعد العصر في قاعة المحاضرات التابعة لوزارة الثقافة مستجيبا لدعوة السيدة حبيبة البورقاوي. وزار مراكش المدينة القديمة التاريخية، وشاهد هناك أهم الآثار القديمة المسجلة في صفحات التاريخ.

رحلته إلى الجزائر

سافر الندوي إلى الجزائر في ٢٩ من يوليو سنة ١٩٨٢م لحضور "ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر"، ولم يقدر على الانضمام إلى الجلسة إلا متأخرا يومين. وكان البرنامج في مدينة "تلمسان"، وكان عنوان محاضراته "دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتها"، أما عنوان الأستاذ محمد الرابع الحسيني الرفيق في سفره فكان "لمحات شعورية ونفسية في كلام الرسول ﷺ". وزار في هذه الفترة بعض البقع التاريخية. وكان رجوعه من الجزائر في تاريخ ١٠ من أغسطس إلى باريس فإلى الهند.

ورحل إليها في سنة ١٩٨٦م أيضا للمشاركة في "الملتقى الإسلامي" ملبيا دعوة مسؤوليه، وكان خروجه في هذه المرة من لندن في مرافقة الأستاذ محمد الرابع الحسيني، ولمست طائرته أرض الجزائر في تاريخ ١ من سبتمبر، وكان الملتقى في مدينة "سطيف" من ٢ إلى ٥ من هذا الشهر. وكان عنوان خطابه فيه "دور الإسلام الثوري البناء في مجال العلوم الإنسانية"^(١). وكان رجوعه منها إلى القاهرة، ومن ثم إلى جدة، ثم رجع بعد أداء العمرة ومكث بعض الأيام إلى الهند عن طريق الكويت في ٢٠ من نفس الشهر.

رحلاته إلى أوروبا

كانت رحلة الندوي الأولى إلى أوروبا في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٣م مع الدكتور اشتياق حسين القرشي لحضور جلسات المركز الإسلامي بجنيف - كان الندوي عضوا من أعضاء مجلس المركز الإسلامي الاستشاري - وزار أثناء هذه الرحلة عدة مدن شهيرة وأمكنة تاريخية، وقال عنها: "وقد زرت في هذه الرحلة جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن، وكمبرج، وأكسفورد، وغلاسغو، وإيدامبرا، وفي إسبانيا: مدريد، وطليلة،

^١ نفس المرجع، ص: ٥٥٩

وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة"^(١). وألقى عدة محاضرات في مختلف المنصات هناك، منها ما ألقاه في جامعة إدامبرا، وجامعة لندن، وما ألقاه في إذاعة بي بي سي وغيرها. واجتمع بكثير من الشخصيات المشهورة في مجال العلم والتعليم والتربية مثل الأستاذ محمد أسد والدكتور حميد الله والدكتور زكي علي وغيرهم.

وكانت زيارة الأندلس زيارة لا تنسى بالنسبة إليه، وقال عنها: "لقد كان أهم أجزاء هذا السفر وأحبه إلي هو زيارة الفردوس المفقود: الأندلس (إسبانيا اليوم) ولا أذكر بلدا عاش فيه المسلمون ثم محيت منه آثارهم واندرست ديارهم، وشهرت في زيارته بذلك الأنس والقرب والود والجادبية الفتنة، حتى كأن أجواءها تعانقني وتضميني إلى جوانحها، وتحكي كل ذرة من ذراتها رسالة الحب والأنس، كما شهرت في زيارتي للأندلس، لقد وجدت في الصلوات هناك، ووجدت في ذكر الله من الرقة والتأثير ما لم أجده إلا في أماكن معدودة، زرت أطلال مدينة الزهراء، وآثار الحمراء وسقوفها وجدرانها ونقوشها وجمالها"^(٢).

أما رحلته الثانية إليها فكانت في شهر أكتوبر من السنة التالية (١٩٦٤م) للمشاركة في جلسة مجلس المركز الإسلامي التنفيذي انعقدت في جنيف، ورحل إليها مع الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي، وألقى أثناء هذا السفر محاضرات قيمة، منها ما ألقاه في جلسة حضرها كثير من طلاب الجامعات وشبان الإسلام، وما ألقاه في جامعة الهندسة في برلين.

ورحلته الثالثة إليها كانت في سنة ١٩٦٩م ملبيا دعوة من طرف المجلس التنفيذي لـ"المركز الإسلامي بجنيف" للمشاركة في ملتقاه، وكان مرافقه في هذه المرة الشيخ

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٢٩٠.

^٢ نفس المرجع، ج: ١، ص: ٢٩١.

محمد معين الندوي. وزار أثناء السفر عدة أماكن مثل برمنغم وشيفلد وليدس وغيرها. وألقى محاضرات في شتى المناسبات يخاطب بها طلاب العلم ومدرسيهم.

ثم رحل إلى لندن في شهر يوليو سنة ١٩٨٣م إجابة عن رسالة داعية إياه إلى جلسة تناقش أهمية إنشاء مركز إسلامي في جامعة أكسفورد، أرسلها إليه الأستاذ خليك أحمد نظامي، ووصلها الندوي في ٢١ من هذا الشهر، وحضر تلك الجلسة، وألقى فيها خطاباً بعنوان "الإسلام والغرب". ورجع إلى الهند في تاريخ ٣١ بعد أن قضى هناك بعض الأيام ملقياً الخطابات وزائراً المدن وشاهداً الآثار القديمة.

وفي تاريخ ٨ من أكتوبر سنة ١٩٨٥م رحل إليها ليحضر الحفلة الافتتاحية "للمركز الإسلامي" المذكور، ويحضر ملتقى "المجمع العلمي للدراسات الإسلامية" في "لكسم برغط - كان الندوي رئيسه - وألقى محاضراته المؤثرة أمام حفل متميز بحضور الشخصيات البارزة في شتى الميادين.

وسافر إلى لندن في تاريخ ٢٦ من شهر آب ١٩٨٦م مع الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي للمشاركة في "الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي" بأكسفورد.

عُقد الاجتماع السنوي لأمناء "المركز الإسلامي" بأكسفورد في تاريخ ٢٧ من شهر آب سنة ١٩٨٧م، وكان يجب على الندوي حضوره لثقل مسؤوليته، فخرج مع الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي - كان أميناً من أمنائه - رغم أنه كان يعاني بعض الأمراض والمشاكل الصحية. وكان ممن حضر رجال العلم والقلم والتعليم والتربية، مثل الشيخ عبد العزيز علي المطوع، والدكتور عبد الله عمر نصيف، والدكتور عبد الله عبد المحسن التركي وغيرهم^(١). وكان الندوي أعد ورقة للتقديم في الجلسة بعنوان "دور

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج: ٢، ص: ٢٠٢.

الإسلام التاريخي في نشر العلم النافع الصحيح وقيادة البشرية وإصلاحها عن طريقه"،
وقام بقراءته مستجيبا لطلبه الدكتور فرحان النظامي.

وكانت رحلته التالية إليها في سنة ١٩٨٩م لحضور الملتقى الإداري للمركز المذكور،
وكانت هذه الرحلة من تركيا مع الشيخ محمد الرابع الحسيني الندوي والمهندس محمد
عثمان الحيدر آبادي. وقد حضر هذه الجلسة كبار العباقرة مثل الدكتور عبد الله
عمر نصيف، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور خليك أحمد النظامي وغيرهم.

ومن رحلاته إلى أوروبا ما قام به في سنة ١٩٩٢م ليحضر الدورة السنوية لمركز
الدراسات الإسلامية لجامعة أكسفورد مع صحبة الشيخ محمد الرابع الندوي، وكانت
الدورة في تاريخ ١٠ من شهر سبتمبر. عازمت الجلسة على إنشاء مشروع تذكاري للإمام
البخاري في أذربيجان. وألقى محاضرة في حفلة عقدتها المؤسسة الإسلامية بمناسبة
انتقالها إلى بناء جديد حول "دور الأمة في إنقاذ البشرية وإسعادها"، كما ألقى محاضرة
في "المركز الإسلامي" بلندن بعنوان "واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها
البلاغي والنموذجي".

ومن أهم رحلاته إليها رحلته في أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٩٣م، وكانت هذه الرحلة
من إستنبول، ومن أجل المشاركة في الجلسة الإدارية لـ "مركز الدراسات الإسلامية
بأكسفورد" التي انعقدت في اليوم الأول والثاني من شهر سبتمبر. وتوجه إلى أمريكا بعد
أن قضى هناك خمسة أيام.

رحلاته إلى أمريكا

وكانت رحلة الندوي الأولى إلى أمريكا في سنة ١٩٧٧م من أجل المشاركة في الاجتماع
السنوي لـ "اتحاد الطلبة المسلمين الأمريكيين والكنديين" الذي بدأ في ٢ من مايو. وكان

السفر مباشرا من مومباي إلى أمريكا، وكان عنوان محاضرتة في المؤتمر "العلاقات بين العاملين للإسلام". وكانت له محاضرات في مختلف الجامعات، وقال عنها: "وقد كانت الخطابات التي ألقيتها في هذه الرحلة حوالي عشرين خطابا، وقد ألقيت المحاضرات في هذه الرحلة بخمس جامعات من جامعات أمريكا وهي: جامعة كولمبيا (نيويورك)، جامعة هارورد (كيمبرج)، جامعة درايت (آن آرين)، جامعة جنوب كلي فورنيا (لاس أنجلس)، جامعة أوتا (سالت ليك ستي)"^(١). وكانت له محاضرات في بعض الجوامع أيضا. ووصل راجعا إلى الهند في اليوم التاسع من شهر أغسطس بعد أن زار المدن المشهورة الأمريكية.

ثم سافر إلى أمريكا في سنة ١٩٩٣ م أيضا، ووصلها في تاريخ ٤ من شهر سبتمبر، وكان من مقاصد هذا السفر أن يشارك في المؤتمر العالمي للأديان في شيكاغو. ولكن لم يقدر على المشاركة فيه لأسباب. وشارك في مؤتمر إسلامي أُقيم في قاعة كلية "مالكوم إيلس". وألقى في جلسة عقدت في نفس القاعة بعد المغرب محاضرة بعنوان "رسالة هامة إلى المقيمين في ديار الغرب من الشباب المسلمين". وزار في هذه الرحلة مركز جماعة التبليغ. ورحل إلى نيويورك وألقى في "المسجد المكي" هناك محاضرة في اليوم السابع من هذا الشهر، وبعد الغد توجه إلى جدة.

رحلته إلى بورما وسيلان

كانت رحلة الندوي إلى بورما في أواخر سنة ١٩٦٠ م، وفي الحقيقة أداها إليها ضيق الحال الاقتصادي لدار العلوم بديوبند - كان نائب الأمين العام لها- وتوجيه أخيه الأكبر وعبد الرحمن القاسمي لِسَدِّ الأزمات المالية لها. ووضع قدميه على أرض رنجون (يانغون) في اليوم الثامن عشر من كانون الأول. وقد علم نباً قدومه إليها مع الشيخ محمد معين

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ج: ١، ص: ٣٨١

الندوي أكثر مَنْ يهتم به وبأحوال المسلمين. وقام بإلقاء محاضرات كثيرة أثناء هذه الرحلة التي استغرقت شهرا وبضعة أيام.

أما سفره إلى سيلان (سري لنكا) فكان في سنة ١٩٨٢ م مع السيد سليمان الندوي ملبيا دعوة الشيخ محمد علي الحركان لزيارة الجامعة التنظيمية التي تدرس بها كتبه. وتم وصوله إلى كولومو عاصمتها في اليوم التاسع من شهر مايو. وأسس هذه الجامعة الحاج محمد نظيم - كان تاجرا ثريا لم يدرس في جامعة ولا مدرسة - وكان من بواعث هذا التأسيس كتاب الندوي "ردة لا أبا بكر لها". وألقى الشيخ هناك بعض المحاضرات والخطب في شتى البرامج مثل حفلة توزيع الشهادات.

رحلته إلى بنغلاديش وماليزيا

رحل الندوي إلى بنغلاديش مع نخبة جلييلة من أصدقائه العلماء في اليوم التاسع من شهر آذار سنة ١٩٨٤ م. وامتدت هذه الرحلة إلى اليوم التاسع عشر من هذا الشهر. وزار أثناءها عدة بقع هامة فيها كما قال: "زرنا فيها دكا، وشيتا غونغ، وكوكس بازار، ومومن شاهي (ميمن سنغ)، وسلهت والمناطق الرئيسية بها"^(١). كانت له ولأصدقائه عدة محاضرات هناك، ومن المحاضرات التي ألقاها الندوي في مختلف الجلسات ما ألقاه في الجامعة الإسلامية بفتية شيتا غونغ بعنوان "الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها"، وما ألقاه في فندق "بورباني" في جلسة عقدت للترحيب بهم بعنوان "الفتح للحب الصادق والإنسانية المخلصة"، وما ألقاه في الجامعة الإمدادية بكشور غنج بعنوان "الحاجة إلى براعة علماء الدين في اللغة البنغالية وقيادتهم للشعب المسلم"، وما ألقاه في مسجد "بيت المكرم" الواقع ب"دكا" بعنوان "مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام وهي ملكه الدائم".

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م، ج: ٢ ص: ٤٢، ٤١.

ورحل إلى ماليزيا في اليوم الثاني من شهر نيسان سنة ١٩٨٧م مستجيباً لدعوة بعض الندويين هناك ومسؤولي بعض الحركات مثل "حركة الشباب المسلم"، وكانت هذه الرحلة مع الأستاذ محمد الرابع الندوي، والسيد غلام الحيدر آبادي، وجال في تلك البلدة جولات علمية وتعليمية استغرقت أسبوعاً، وألقى خلالها عدة محاضرات في مختلف المناسبات. وكان وصوله إلى كولالمبور يوم الخميس. وتوجه يوم الجمعة إلى "ترنكانو" وألقى في مسجد كبير بها محاضرة حول "إلى الإسلام من جديد"، وألقى محاضرة في "قاعة زين العابدين" بعد العصر. وخطب في حفلة عقدها مركز "جماعة التبليغ والدعوة" في مسجد كبير بكولا ترنكانو. وفي اليوم التالي خطب في مسجد الجامعة التكنولوجية، وفي الجامعة الوطنية. وكان خطابه في الغد في "قاعة تنكو عبد الرحمن"، وكان برنامجه في يوم الاثنين في "قدح" إذ ألقى هناك محاضرة يخاطب بها المعلمين والمتعلمين، وقام بوضع الحجر الأساسي لقسم من أقسام "المعهد العالي للدعوة"، وكان له خطاب في ذلك اليوم في "مدا". وفي اليوم التالي انتقل إلى كولالمبور وألقى خطاباً في "الجامعة الماليزية"، وخطاباً في مركز جماعة التبليغ، وخطاباً في مركز "حركة الشباب المسلم". وفي اليوم التالي خاطب المستمعين في مركز "الحزب الإسلامي" بكولالمبور، وزار "الجامعة الإسلامية العالمية". وعاد إلى الهند يوم الخميس.

رحلاته إلى باكستان

ومن أهم رحلات الندوي إلى باكستان ما قام به في أواخر شهر حزيران سنة ١٩٧٨م ليشترك في المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي الذي عقد في اليوم السادس من شهر تموز بكراتشي، وكان يرافقه الشيخ معين الندوي. وكان خطابه في الجلسة الأخيرة للمؤتمر. وألقى في هذه الرحلة أيضاً عدة خطب في شتى المنصبات، منها ما قام به في

جلسة عقدت للترحيب في منزل الأستاذ غفور. وأتيحت له في هذا السفر الفرصة للاجتماع ببعض الأدباء، منهم الأستاذ المودودي.

ومنها رحلته إلى كراتشي في اليوم العشرين من مايو سنة ١٩٨٤ م، وخرج إليها من جدة، وكانت مدتها أربعة أيام، وألقى هناك بعض المحاضرات في مختلف الجلسات، منها ما ألقاه في مسجد "بنوري تاون" الكبير حول "الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله والبلاد كلها"، ومنها ما ألقاه في جلسة عقدت للترحيب في أكاديمية بهادرياجنك حول "المجتمع الصالح القوي أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل"، ومنها محاضراته في جلسة عقدت في فندق "متروبول" حول "مسؤولية السلطة الإسلامية الصالحة وبركتها وخيرها"، ومنها محاضراته في جامعة كراتشي حول "شعور الشباب بمسؤوليتهم وسيطرتهم الخلقية على أنفسهم صمام أمن للدولة"، ومنها محاضراته في الجامعة الإسلامية ببانور تاون حول "مسؤولية العلماء في بلد حر مستقل"، ومنها خطابه في برنامج ترحيبي انعقد في مسجد الفرقانية بحيدر آباد كالوني حول موضوع "الحاجة إلى يقظة دائمة وحذر مستمر".

واستطاع الندوي أثناء هذا السفر اجتماعات ببعض أعظم الشخصيات، منهم الجنرال محمد ضياء الحق رئيس باكستان. ورجع إلى الهند في اليوم التاسع والعشرين من هذا الشهر.

ومن هذه الرحلات ما قام به في اليوم الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩٨٦ م، وكان هذا السفر من إستانبول إلى كراتشي مع الشيخ محمد الرابع الندوي، ولم يبق هناك في هذه المرة إلا يومين ونصف يوم. وكانت له أثناء هذه الرحلة أيضا بعض الخطابات في شتى الجلسات، وكان أهمها ما ألقاه في فندق كيتروبول حول "الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي وطريق مقاومتها"، وما ألقاه في المسجد الجامع بحي بنوري تاون

حول "الشكر على النعم". واستطاع في هذه المرة أيضا اللقاء مع الجنرال محمد ضياء الحق. ورجع إلى الهند في اليوم الثلاثين من هذا الشهر.

وقد سافر الشيخ إلى "لاهور" وهو ابن خمس عشرة سنة، ولكن كان ذلك السفر قبل تقسيم الهند في سنة ١٩٢٩ م، وكان مع الأستاذ السيد إبراهيم الندوي مستجيبا لطلب عمته كجائزة على نجاحه في الامتحان السنوي في جامعة لكهنؤ في تلك السنة، وكان هذا سفره الأول إلى بلد بعيد.

رحلته إلى أفغانستان

وصل وفد رابطة العالم الإسلامي المشتغل على الندوي إلى كابل في شهر يونيو سنة ١٩٧٣ م، استقبلته وأصحابه من أعضاء الوفد شخصيات مرموقة في مجال الحكم والتعليم. وزار أثناء هذا السفر عدة معاهد علمية ودينية، منها مدرسة أبي حنيفة في "بكرامي"، ومدرسة دار الحفاظ، ودار العلوم، وكلية الشريعة، ومدرسة ملاي الثانوية للبنات، ومدرسة الاستقلال وغيرها.

واجتمع أثناءها بعدة شخصيات مشهورة، مثل محمد ياسين عظيم وزير المعارف، ومحمد صديق نائب وزير المعارف، والأستاذ عبد الستار سيرت، وسعادة سميع الدين وكيل وزارة العدل، والشيخ عبد الهادي هدايت، والأستاذ كمال شنواري وغيرهم.

وألقي في هذه الرحلة عدة محاضرات في مناسبات شتى، منها ما قام به في مدرسة الاستقلال حول موضوع "المثل الكامل"، وما قام به في ندوة انعقدت في بيت السفير السعودي للنساء، وندوة انعقدت للعلماء، ومنها ما قام به في "جامع كابل"، وما قام به في حفلة تكريم أقامتها السفارة السعودية في "أوتيل كابل" وكان ذلك بعنوان "الأمم تعيش وتسود بالرسالة والشخصية".

رحلته إلى إيران

كانت رحلته إلى إيران من أفغانستان في شهر يونيو سنة ١٩٧٣م كعضو من أعضاء وفد رابطة العالم الإسلامي، وكانت مدتها من الحادي عشر إلى العشرين من نفس الشهر. زار أثناءها بعض المدن الشهيرة مثل طهران، وقم، ومشهد، وأصفهان، وشيراز، وطوس وغيرها. ومن المساجد التي زارها في هذه الفترة كما قاله: "ومن المساجد الأثرية التي زارها مسجد سبه سالار في طهران الذي هو آية الفن والهندسة والنقش والتلوين، ومسجد شاه الذي هو المسجد الجامع في العاصمة، ومسجد "كوهور" في مشهد، ومسجد شاه عباس الصفوي، ومسجد شيخ لطف الله، ومسجد الجامع، ومسجد جهار باغ كلها في أصفهان، ومسجد وكيل في شيراز"^(١).

ومن المعاهد التي زارها الندوي "كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية" في جامعة طهران، ودار التبليغ في قم، ومركز التقريب من المذاهب الإسلامية في طهران وغيرها، علاوة على أنه زار وشاهد كثيرا من الآثار التاريخية. واجتمع بنخبة من الشخصيات المعروفة مثل السيد محمد كاظم شريعة مداري، والشيخ حبيب الله ميلاني، والعلامة المرزا محمد خليل كمره أي وغيرهم.

وألقى عدة خطابات أثناء هذه الرحلة في مختلف المواضع، منها دار التبليغ في قم، وبيوت الشيخ شريعة مداري، والعلامة حبيب الله ميلاني، والعلامة المرزا محمد خليل كمره أي وغيرها من المواضع.

^١ الغوري، سيد عبد الماجد، رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته، دار ابن كثير، بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٢٥٨

رحلته إلى أوزبكستان

رحل الندوي من دلهي إلى تاشقند عاصمة أوزبكستان في اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٩٣ م، مع محمد عثمان المهندس ومحمد الرابع الحسني، للمشاركة في جلسة انعقدت في اليوم الثالث والعشرين والرابع والعشرين بمناسبة إنشاء مركز علمي عند الجامع الذي يقع بقرب قبر الإمام البخاري، تنفيذاً لقرار معزوم عليه في اجتماع المركز الإسلامي بأكسفورد. وكان خطابه في الجلسة الافتتاحية يعالج أهمية النية الخالصة في الأعمال الدينية، وأورد فيه الحديث الأول من صحيح البخاري، وكان عنوان كلامه في اليوم الثاني "الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري ومكانتهما في تاريخ الإسلام والدين والعلم والمكتبة الإسلامية العالمية"^(١).

وزار أثناء هذا السفر أهم الآثار القديمة والمناطق التاريخية، كما زار سمرقند وبخارى وغيرهما من المدن. وعاد إلى الهند في اليوم السابع والعشرين من هذا الشهر.

ثلاثة كتب للندوي في أدب الرحلة

ألف الندوي الرحالة ثلاثة كتب في فن أدب الرحلة، وهي تصوير بليغ لما شاهده من الحوادث، وما زاره من المناطق، وما ألقاه من الخطب، وما حصل عليه من التكريمات، وما اقتدر عليه من أن يجتمع بالعلماء والأدباء والوزراء والحكام وغيرهم، وهذه الكتب هي:

(أ) مذكرات سائح في الشرق العربي

يصور الندوي في هذا الكتاب تجارب رحلاته التي قام بها سنة ١٩٥١ م إلى مصر،

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م، ج: ٣، ص: ٢٨٧، ٢٨٦.

والسودان، وسوريا، وفلسطين، وعمان، استغرقت هذه الرحلة سبعة أشهر تقريبا، حيث بدأت في اليوم العشرين من يناير وانتهت في اليوم الثاني عشر من أغسطس. وفيه كلام عن رحلته إلى لبنان أيضا في سنة ١٩٥٦ م.

ومن ميزات هذا الكتاب أنه ألف كيومية ذكرت التواريخ واحد تلو واحد، فيستحق هذا الكتاب تسمية كتاب في أدب الرحلة أي استحقاق. ومن ميزات المؤلف سجل فيه نظرياته وانطباعاته، وعبر فيه عن مشاعره وخواطره. وقد تم طبع هذا الكتاب أولا في القاهرة عام ١٩٥٢ م.

وقال عن هذا الكتاب في مقدمته: "وقد التزم في هذه الرحلة كلها أن يسجل كل حديث، وكل انطباع في يومه غالبا، وفي أقرب وقت إذا فاتته التسجيل في اليوم، وأن يتحرى الدقة في النقل، والصحة في الرواية، وتسجيل الحديث في لفظ المتحدث ولغته بقدر الإمكان، فجاءت في الكتاب صور من الأساليب والآداب المحلية، يستفيد بها مؤرخ الأدب فيما بعد، ويتمثل القارئ، لهذا الكتاب بعد أن مضى عليه زمن شخصية المتحدث، وسماته الحقيقية، ويتمثل البيئة التي دونت فيها هذه المذكرات، وما كان يجيش فيها من صراع نفسي، واصطراع فكري، واضطراب اجتماعي، وقلق وتدمير، وثورة، وما كان يتمخض به هذا المجتمع من حوادث لم تقع، وشخصيات لم تولد، ومن تطورات لم تتضح، فجاءت هذه المذكرات مجموع صور ناطقة يستطيع القارئ أن يعيش بها في هذه الفترة التي لا تعود أبدا"^(١).

ب) من نهر كابل إلى نهر اليرموك - جولة في غرب "آسيا"

هذا الكتاب عمله الثاني في هذا النوع من الفنون، يشتمل على تجاربه العظيمة في رحلته إلى أفغانستان، وإيران، ولبنان، وسوريا، والعراق، والأردن التي قام بها في سنة

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مذكرات سائح في الشرق العربي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ م، ص: ٦٠٧.

١٩٧٣ م، والتي استغرقت نحو شهر ونصف - كانت بدايتها في اليوم الثالث من شهر يوليو ونهايتها في اليوم العشرين من شهر أغسطس - هذا الكتاب تصوير واضح جميل لما في هذه الجولات في تلك البلاد الستة من الانطباعات والانعكاسات، وما ألقى أثناءها من المحاضرات والخطب، وما زاره من المراكز والمعاهد.

أما تسمية هذا الكتاب فتسمية جذابة بليغة، وقال الندوي عنها في مقدمته: "ولما كانت بداية هذه الرحلة من كابل عاصمة أفغانستان وكانت نهايتها عمان عاصمة الأردن، حلا للمؤلف أن يسمي هذا الكتاب ب"من نهر كابل إلى نهر اليرموك" وهما نهران عظيمان في هاتين المدينتين تكتنفهما حوادث تاريخية إسلامية، وقد وصل بينهما المد الإسلامي في القرن الأول"^(١).

ج) أسبوعان في المغرب الأقصى

هذا الكتاب رسم تجارب رحلته إلى المغرب الأقصى في سنة ١٩٧٦ م، وكان خروجه إليها مع بعض أصدقائه للمشاركة في مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية الذي انعقد في الرباط عاصمة المغرب من تاريخ ١١ إلى ١٧ من شهر مايو. وزار أثناء هذا السفر بعض المدن الهامة التي حظيت عند المؤرخين بمكان ملحوظ مثل مراكش، والدار البيضاء، وفاس، وأفران، والرباط وغيرها.

وقد ألفه الندوي في اللغة الأردية لسد الفراغ في هذا النوع لهذه اللغة، ثم لمعت في قلبه فكرة ترجمته إلى اللغة العربية، وقال عنها: "وقد وضع المؤلف هذا الكتاب في "أردو" لغة مسلمي شبه القارة الهندية بسبب قلة المواد في هذه اللغة وقلة معلومات الشعب المسلم عن إخوانهم المغاربة، ثم رأيت أن نقلها إلى العربية ونشرها في بلاد المغرب وفي

^١ الندوي، أبو الحسن علي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك - جولة في غرب "آسيا"، دار الإيمان بدمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ م، ص: ٥

العالم العربي منير للعقول، وحافز للهمم، فعهدت بنقله إلى العربية إلى الأستاذ نور عالم الأميني الندوي- وهو مترجم قدير وكاتب أديب - فقام بهذه العملية خير قيام، وتناولت الترجمة بالتنقيح والتهذيب، فجاء كتابا مستقلا كأنه أَلَّف في العربية أصالة"^(١).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، أسبوعان في المغرب الأقصى، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م، ص: ٤

الفصل الرابع

رسالات حاول الندوي إنجازها

كانت حياة الندوي مليئة بالنشاطات العلمية، وغنية بالكتابات الأدبية، وثرية بالمحاضرات الدعوية، ومشغولة بالرحلات التاريخية، وقد حاول تنوير المجتمع الإسلامي بالتعليمات الربانية، وتنسيق أفراده في العقود القرآنية، وتوحيد أصواتهم حول العقيدة الإلهية، وبذل جهوده الجبارة لتوثيق الصلة بين الهند والبلاد الأجنبية، وتوصيل شخصيات بارزة إليها من الأوطان العربية، وكان ذلك خلال إحصارهم في الحفلات والمناسبات المنعقدة في دار العلوم.

وقد حرك قلمه الساحر للحث على محافظة القيم الإنسانية، ومتابعة العناصر الأخلاقية، وله تأليف كثيرة تشجع الأطفال الصغار على التعلم عامة، وعلى تعلم اللغة العربية خاصة. وصنف مصنفات عديدة تحرضهم على التسامح والتحمل مستدلاً على مقولته بصفحات تاريخ الأنبياء والمرسلين.

وهناك كثير من الرسائل (Missions) التي حاول الندوي إنجازها بكتاباته المعبرة ومحاضراته المؤثرة، وهناك عديد من المهمات التي بذل أقصى جهوده لإيجادها وإتمامها خلال مداخلته الملحوظة ومشاركاته المشهورة في كثير من الندوات والمؤتمرات التي أقيمت داخل الهند وخارجها. ويعالج هذا الفصل بعضاً من هذه الرسائل والمهمات، وهي:

أ) الحفاظ على الإنسانية

رغم أن الندوي كان مشغولاً بالكتابة والتأليف أدى واجباته تجاه الناس بدون اعتبار جنسهم ودينهم وطبقاتهم ومعتقداتهم، وأعطى الإنسانية مكاناً هاماً، وبث بذورها في

قلوب أبناء الهند، وأنشأ حركة "رسالة الإنسانية" لإنجاز هذه الرسالة، إذ كانت الأحوال والظروف مليئة بالفساد والتطرف، وقال عن الظروف التي أدته إلى إنشائها: "وانتظرت أن يقوم أحد في وجه هذا الفساد، ولكن الحزبية والسياسية لم تدع للناس مجالاً للتفكير في مثل هذه القضايا، وأخيراً قررت رغم شعوري بقلّة بضاعتي ووحدتي وضعف تأثير أن أنزل في الميدان وأخاطب الناس، من دون تمييز بين المسلمين وغيرهم، وأحذرهم من عواقب هذه الحياة المادية المتطرفة..."^(١).

وقال الأستاذ واضح رشيد الندوي في مقالته "الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي وحبّه للإنسانية" المنشورة في مجلة "ثقافة الهند" عن هذه الحركة ورغبة منشئها في إيجاد الإنسانية بين الشعوب عامة وبين الشعوب الهندية خاصة: "لقد أنشأ الشيخ الندوي حركة رسالة الإنسانية لحيه للإنسانية، ولتقويم سلوك الإنسان، وبث المثل الخلقية في المجتمع البشري التي تتفق عليها جميع الأديان، وقد اقتضت ظروف المعيشة التي عزتها المادية الرعناء وحب المال وحب الجاه والمصلحة مثل هذه الحركة، وهي حاجة العصر، لذلك نالت هذه الحركة القبول لدى متبعي سائر الأديان في الهند، واشترك قادتهم في جلساتها، وقد ساعدت هذه الحركة على ملأ الخليج بين المسلمين وغير المسلمين، وإزالة الكراهية المتنامية بينهم للدعاية السامة التي تقوم بها المنظمات المتطرفة..."^(٢).

ب) الحث على التعايش مع الأديان المتنوعة والسلام والتسامح

وكان من مهمات ورسالات الندوي أن يحاول إيجاد التعايش بين الأديان المتنوعة في الهند، وإعدام المحاربة بينها وبين معتقديها، وإيجاد السلام والتسامح بينهم، لكل

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٣٣٨

^٢ الندوي، أ. واضح رشيد، "الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي وحبّه للإنسانية"، مجلة "ثقافة الهند"، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنينو دلهي، المجلد الثاني والخمسون، العدد الرابع ٢٠٠١م، (عدد ممتاز عن الندوي) ص: ٩٨، ٩٩

شخص حرية اعتناق أيّ دين وأن لا يعتنقه، وليس لأحد أن يكره شخصاً آخر على اعتناق دينه، ومع ذلك لكل شخص حرية لدعوة دينه، وليس معنى الدعوة المحاربة والمقاتلة والمعاتبة، وحاول الندوي إيجاد المحبة والمودة وبث الصّبح والسّماح بين أهل الهند بغض النظر عن دينهم وطبقتهم وجنسهم، ولتنفيذ هذه المهمة قضى وقتاً غير قليل خلال دعواته وجولاته، خاصة خلال أعماله المتعلقة بـ "حركة رسالة الإنسانية" المذكورة، وقال هو نفسه عن هذا: "وقد قمت في صدد هذه الحركة بجولات في ولايات بهار، ومدھية براديش، وراجستھان، وھريانة، وبنجاب، وأترابرديش، وعقدت في مختلف الأماكن احتفالات رائعة ناجحة، وكان يحضرها عدد كبير من غير المسلمين من الطبقة المثقفة فيهم، وكانوا يستمعون الخطب والمحاضرات بإصغاء واهتمام، ويبدون تأثرهم وانطباعاتهم الطيبة"^(١).

ج) تقوية حب الوطن

حب الوطن ممزوج بدم كل مواطن، وهو جزء لا يتجزأ عن الإنسان، لأنه ولد وترع به، وشرب لبنانه، وتنفس هواءه، فعلى كل مواطن صون بلده كصون جسمه، وحفظ تراثه كحفظ ذريته، والندوي أحب وطن الهند حبا بالغا، وحث إخوانه المواطنين الهنديين على حبها بكتابات وخطاباته، ولذا قام بجولات ورحلات داخل الهند. ومن أقواله في هذا الصدد التي تحت مسلي الهند على حب بلدهم الأم: "فليس عندي من طريق لحياة العز والشرف للأمة الإسلامية في هذه البلاد إلا بأن يثبت المسلمون نفعتهم وإسعافهم لهذه البلاد، ويملؤوا فراغ هذه القيادة الخلقية الذي لا يزال منذ مدة طويلة، فإنه لا يمكن لأي أقلية أو فرقة في أي بلد أن يعيشوا حياة الكرامة والعز إلا بإثبات فائدتهم

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ٣٣٩

للبلاد وأنهم ضرورتها وحاجتها، وبالقيادة الخلقية والدعوية الإسلامية والإنسانية
الفاضلة"^(١).

ومما قاله الندوي في جلسة انعقدت في حيدر آباد الذي اقتطفه الأستاذ واضح رشيد
الندوي في مقالته: "إن لكل إنسان في هذه الحياة دارين: يسكنها هو وأعضاء أسرته،
ويحرص كل إنسان أن تكون هذه الدار مأمونة، وأن يعيش فيها بسلام، وهناك دار
أخرى وهي أكبر من هذه الدار الشخصية، وهي دار البلاد، ونحن ننسى في غالب
الأحوال أن هاتين الدارين كليهما لنا، وإحداهما صغيرة، فيها أسرة واحدة، والأخرى
كبيرة فيها المواطنون، وهم أفراد الأسرة الوطنية الكبرى، وترتبط مصلحة الدار
الصغيرة بمصلحة الدار الكبرى، فإذا فسد نظام الدار الكبرى فسد نظام الدار
الصغرى"^(٢).

(د) الدعوة إلى وحدة الأمة المسلمة

كان الندوي يحب الوحدة، ويكره التفرق، ودعا المسلمين إلى أن يجتمعوا حول رب
واحد، ونبى واحد، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله جميعا
وألا يتفرقوا، وهذه المفاهيم متناثرة في محاضراته ومؤلفاته. وقال الدكتور يوسف
القرضاوي: "كان منهج الشيخ يتجه إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق، وكان
يتجنب إثارة الخلاف بين المسلمين، ويمس القضايا الشائكة مسارا رقيقا، تتمثل فيه
الحكمة البالغة، والحوار بالتي هي أحسن، وقد وفق في هذا توفيقا قل أن يتوافر لغيره،

^١ نفس المرجع، ج: ١، ص: ٣٣٩

^٢ الندوي، أ. واضح رشيد، مقالة "الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي وحيه للإنسانية"، مجلة "ثقافة الهند"، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو
دلهي، المجلد الثاني والخمسون، العدد الرابع ٢٠٠١ م، (عدد ممتاز عن الندوي) ص: ١٠٢

ذلك لطبيعته السمحة، وصدرة الرحب، وخلق العذب، وقدرته على معالجة المشكلات الصعبة بطريقة سهلة وأسلوب حكيم"^(١).

هـ) المحافظة على القيم الأخلاقية

وقد أدى الندوي أمانته العلمية والدعوية ككاتب مسلم، وأديب مؤمن، وعالم ناصح، إذ بذل أقصى جهوده لإيجاد الخير والفضيلة بغرس القيم الأخلاقية في قلوب مستمعي محاضراته ومطالعي كتاباته، وحاول قلع الرذائل والفجور، وألقى محاضرات عديدة في هذا المقصد، وكتب مقالات كثيرة في هذا الصدد، منها كتابه المشهور "إلى الإسلام من جديد"، وفي الحقيقة هذا الكتاب مجموعة محاضرات، ألقاها في مختلف المنصات والمناسبات في مختلف الأوقات والسنوات قاصدا طرح القيم الدينية والأخلاقية في قلوب أعضاء الأمة المسلمة، ومن جملة هذه المحاضرات محاضرة "أزمة إيمان وأخلاق"، التي ألقاها في مركز جمعية إنقاذ فلسطين ببغداد، في شهر تموز سنة ١٩٥٦ م، وقال فيها: "تسمعون الناس يتحدثون عن الأزمات والمشكلات، - وهذا العصر هو عصر الأزمات والمشكلات - يتحدثون عن أزمات اقتصادية، وأزمات سياسية، ويتحدثون عن أزمات الحكم وأزمات الاجتماع، ولكني أعتقد أن هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هي أزمة الإيمان، وأزمة الأخلاق، فسيحوا في الأرض وشاهدوا الأمم والشعوب، فإنكم سترون أن هذه الإنسانية - بمختلف الشعوب والأقطار في أنحاء العالم كله - تعاني أزمة واحدة هي: "أزمة الإيمان والأخلاق" هي كارثة الكوارث، وهي مصيبة المصائب، وكل مشكلة تحدث الناس عنها، واشتكوا منها ترجع إلى هذه الأزمة،..."^(٢)

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ٦٣

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، إلى الإسلام من جديد، مطابع المختار الإسلامي بالقاهرة، ص: ٩٥

وقال أيضا فيها: "يا أصحاب القلوب المؤمنة، أنتم المجتمع، في قسما ت وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذي نؤمله، فهيئوا نفوسكم تهيئة روحية خلقية علمية إيمانية، هذا هو نداء الوقت، وواجب الساعة، وجهاد اليوم"^(١). وقد ذكر اهتمامَ الندوي بالقيم الأخلاقية وتشجيع الناس عليها غيرُ واحد من العلماء والباحثين، مثل عبد الله بن صالح الوشي إذ قال: "ينطلق الندوي من قاعدة أساسية في تأصيله للتصور الإسلامي للخير والفضيلة، حيث إن الإسلام يقضي أنه إذا هُزمت الفضيلة والأخلاق يجب على المسلمين أن يتنادوا لنصرتها، ولعل هذا التوصيل الذي أفاض فيه الندوي هو نوع من النصرة للأخلاق والخير والفضيلة..."^(٢).

(و) الحفاظ على عفة الكلام عند الانتقادات

وقد عارض الندوي نظريات منحرفة، وناقض آراء باطلة، وردّ على بطلان دعاوي الإمامية الشيعية، وأثبت صحة وصواب موقف أهل السنة والجماعة بالأدلة الثابتة، ودحض معتقدات القادينية، وأزال ستر الأسرار الفاسدة لهم، وأثبت ختم النبوة بالبعثة المحمدية، ولكن هذه كلها كانت بكلام عفيف لا عنيف وأسلوب كريم لا لئيم، لم يكن يطعن في خصمه، ولم يكن يقع في أعراضهم، وكان تفنيده تفنيدا قاطعا لا موجعا، وكان إفحامه إفحاما مُعلما لا مؤلما، وكان انتقاده انتقادا مصححا لا مقبحا، وكان قوله نافذا لينا لا قاسيا خشنا، وكانت دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالأحسن.

وقال الدكتور يوسف القرضاوي عن عفة كلامه عند الانتقادات: "ولا يعني هذا: أنه يداهن في دينه، أو يسكت عن باطل يراه، أو خطأ جسيم يشاهده، بل هو ينطق بما

^١ نفس المرجع، ص: ١٠٠

^٢ الوشي، عبد الله بن صالح بن سليمان، جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي (قراءة تصحيحية) مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص: ٢٩٥

يعتقده من حق، وينقد ما يراه من باطل أو خطأ، لكن بالتي هي أحسن، كما رأيناه في نقده للشيعنة في موقفهم من الصحابة (صورتان متضادتان)، وفي نقده للعلامة أبي الأعلى المودودي، والشهيد سيد قطب^(١). وقال سيد عبد الماجد الغوري عن أسلوب الشيخ النزيه الذي اعتمد عليه في تأليف كتاب "القادياني والقاديانية": "وقد أسس العلامة هذا الكتاب على الموضوعية التاريخية بدلا من الحماس الجدلي، وعلى الشهادات الداخلية والاستدلال القوي، بدلا من الطعن والتجريح والاستهزاء..."^(٢).

وقال الدكتور جابر المتولي قميحة الشاعر والأديب المصري المتوفى سنة ٢٠١٢م في مقالته بعنوان "في مسيرة الحياة- الأبعاد والمنهج": "ونلاحظ أن الشيخ اتسم في نقده - مع شدة لهجته أحيانا- بالوقار والعقلانية، وعفة اللسان، وصونه عن الفاحش من القول والتجريح. ولم يكن نقده منطلقا لتحقيق هدف خاص، أو مصلحة شخصية، بل كان ينطلق من عاطفة دينية قوية، وحرص شديد على تحقيق مصلحة المسلمين في الهند وفي كل مكان"^(٣).

ومما يدل على أن أسلوبه عند نقد الشيعة ومعتقدات "الإمامية" كان أسلوبا موضوعيا تصحيحيا، لا أسلوب مساجلة أو مناظرة قوله: " في ضوء الردود على هذه الأسئلة تتمثل أمام الأعين صورتان متضادتان متوازيتان عرضناهما في الصفحات السالفة، فهناك صورة تتمثل للعالم في ضوء عقائد أهل السنة، وصورة ثانية تتركب بعقائد الفرقة الإمامية الاثني عشرية وتصريحاتها، ومن تصورهما الخاص للإسلام، وتفسيرها لتاريخ الإسلام، وشرحها للدين، وكلتا هاتين الصورتين متنافرتان ومتعارضتان"^(٤).

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٨٢
^٢ الغوري، سيد عبد الماجد، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المري الأديب، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ص: ٧٣٣.
٧٣٤
^٣ قميحة، د. جابر، مقالة "في مسيرة الحياة - الأبعاد والمنهج"، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض، المجلد السابع، العددان السادس والسابع والعشرون ١٤٢١هـ، (عدد خاص عن الشيخ أبي الحسن الندوي) ص: ٨٧
^٤ الندوي، أبو الحسن علي، صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، دار البشير بجدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص: ٩٢

ز) التمسك بالزهد والتواضع والحياة البسيطة

كان الندوي عالماً زاهداً عن الدنيا ومتاعها، والزهد هنا ليس بمعنى تضييع العيال وخذلهم، ولا بمعنى إهمال من يليه من الأهل والأقارب، ولكنه بمعناه الصحيح الإيجابي، فلم يمد عينيه إلى ما متع الله به الآخرين، ولم يرغب فيما عند الناس، ولكنه رغب فيما عند خالق الجن والإنس، وهو خير وأبقى، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية. وكذلك عاش متواضعاً بدون استكبار وبطر، فلم يؤده علمه العميق إلى الكبر، ولم يسقه نسبه الشريف إلى التبختر، وكانت حياته حياة بسيطة، ولم يسع وراء المال وأطماع الدنيا، ولم ينطو في قيود الأغنياء الجاحدين، وكان لا يتسلم ولا يتلقى المكافئات المسموحة المدفوعة إليه عندما يشارك في بعض البرامج في البلاد الأجنبية. وكفينا قول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا المضمرة: "وقد كان يمكنه أن يعيش مرفقاً بحكم منزلته في قومه وفي العالم، وقد عاش فترة من عمره في قصر الأمير نور الدين بن الأمير السلفي صديق حسن خان ملك (بهوبال) المشهور، وهيئت له وسائل التنعم والرفاهية، وكان باستطاعته أن يستمر في هذا اللون من العيش الرغيد، والحياة المريحة لو أراد، واتجهت إليه نيته. ولكنه كان يريد لنفسه حياة غير هذه الحياة، إنها حياة أرباب القلوب من الربانيين الذين يعيشون في الدنيا ولا تعيش الدنيا فيهم، ويملكون الدنيا ولا تملكهم"^(١).

وقال أيضاً: "ومن المعروف أن الشيخ حين أعطي جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وكان مقدارها ثلاثمائة ألف ريال سعودي في ذلك الوقت - على ما أذكر - تبرع بها الشيخ كلها، بعضها لفقراء الحرمين، وبعضها لفقراء الهند ومدارسها الدينية".

^١ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٦١

"وكذلك فعل بكل مبالغ الجوائز التي حصل عليها، مثل جائزة سلطان بروناي في التاريخ الإسلامي، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حين اختير ليكون (الشخصية الإسلامية) لعام ١٤١٩هـ، وقيمة الجائزة مليون درهم، لم يدخل جيبه شيء من قيمة هذه الجوائز، بل أنفقها كلها في سبيل الله"^(١).

ح) الجهود المتواصلة في مجال العلم والدعوة

ساهم العلامة الندوي في إحياء اللغة العربية وإنعاشها بكتابه المفيدة وتأليفه المجدية، ووسع دائرة القراء بأعماله المثمرة، وألف في أكثر الفنون العربية والعلوم الإسلامية، وقد بدأ أعماله العلمية منذ نعومة أظفاره، ووضع خطوته الأولى في مضمار الكتابة وهو ابن أربع عشرة سنة، ولم تتوقف عملياته الكتابية والتأليفية إلا قبيل وفاته، لا غرو في ذلك لأنه وُلد في أسرة ذات إسهامات عريقة في مجال التأليف العلمي، ونشأ في بيئة ذات علاقة عميقة بالكتابة، كان نشيطا في شبابه بالخدمات العلمية، وكان في شيخوخته أيضا يقضي أوقاته بالمحاولات الدائمة والجهود المتواصلة قراءةً وكتابة وخطابة، ولم تؤثر شيخوخته في أعماله الأدبية وأنشطته الدعوية تأثيرا سلبيا، وأنتجت هذه المحاولات وتلك الجهود عددا كبيرا من الكتب القيمة والمقالات الثمينة والرسائل النفيسة والمحاضرات النادرة.

لم يقتصر العلامة الندوي على نوع واحد من الفنون العربية، ولم يركز على فن واحد من العلوم الإسلامية، ولكن توسعت آفاق علومه إلى فنون شتى وعلوم عظمى، وهذا التبهر في العلم يدل على جهوده المتواصلة ومحاولاته المتتابعة في كسب العلم وبثها. ومما يدل عليه رحلاته المتتالية من القارة الهندية إلى أرجاء العالم المختلفة من مشرقه إلى مغربه، زائرا المناطق التاريخية، وملتقيا مع مشاهير العلماء والأدباء والحكماء،

^١ نفس المرجع، ص: ٦٢، ٦٣.

وملقيا المحاضرات المفيدة، يخاطب بها الجماهير المتنوعة، ومشاركاً في الدورات العلمية، والجلسات الأدبية، والمناسبات الدعوية، عقدتها مراكز دعوية، أو منظمات أدبية، أو جماعات دينية. وقال الدكتور محسن العثماني الندوي عن هذه الجهود الجبارة في مقدمة كتاب "يحدثونك عن أبي الحسن الندوي": "وهو مع كل ذلك كان زاهداً عابداً ورعاً تقياً ذميراً مكنوناً في الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة مجاهداً بالقلم يتكبد مشاق الرحلات الطويلة لإعلاء كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، جمع في ذاته العلم والدين، والكتابة والعبادة، والبحث العلمي، والعمل الميداني ومحراب المسجد وساحة الجهاد، وما أقل اجتماع هذه الميزات في شخص واحد"^(١). وكانت هذه الجهود مستمرة حتى في أواخر أيام حياته، إذ أضعفه المرض وأتعبه الكبر، وكان يواظب على نشاطاته الدعوية ويثابر على أعماله التأليفية ويداوم على محاضراته المغذية. وقال الدكتور عبد الباسط بدر في مقدمة كتاب "نظرات في الأدب" للندوي عن هذه الجهود المستمرة: "لقد عرفت المجتمعات الإسلامية في شبه القارة الهندية ومعظم الدول العربية وتركيا وأوروبا وأمريكا الشيخ أبا الحسن داعية إلى الله، يسافر إليهم بين الحين والحين رغم السن والمرض، ويخاطبهم في قضاياهم الصعبة: يشخص الأدواء ويرسم الحلول، فأحبوه ووثقوا به، وتزاحموا للقاءه"^(٢). ومما يدل على اهتمامه بالعلم والرحلات العلمية أن بعض رحلاته كانت مع مشقة قاسية ومشكلة صحية، رغم وجود هذه المعاناة رحل إلى تلك الأماكن البعيدة وشارك في البرامج الكثيرة، منها ما قام به من رحلته في سنة ١٩٨٧م إلى الحجاز للمشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، وقال عن هذه الرحلة: "وقد كنت متردداً وغير جازم بمشاركة في هذا المؤتمر لانحراف صحتي ولتجربتي في أكثر المؤتمرات الكبيرة، أنها لا تنتج ولا تؤدي إلى مخطط

^١ الندوي، د. محسن العثماني، مقدمة كتاب يحدثونك عن أبي الحسن الندوي، بقلم علماء العصر وأدبائه، (كتاب قام بإعداده وجمعه د. محمد العثماني الندوي) دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص: ٥

^٢ بدر، د. عبد الباسط، مقدمة نظرات في الأدب لأبي الحسن علي الندوي، دار البشير بجدة، الطبعة الثانية ١٩٩٧م، ص: ٦

عملي يؤخذ بالتطبيق - إلا قليلا - ، ولكني قررت أخيرا أن أسافر وأشارك في المؤتمر بمناسبة مهمة كهذه تجتمع فيها الشخصيات العلمية الموقرة وعدد من القادة والزعماء والمسؤولين من البلاد الإسلامية^(١). ومنها رحلته إلى أوزبكستان في سنة ١٩٩٣م، وقال عنها: "كان من المقرر أن نقوم بالسفر إلى أوزبكستان بعد أيام من هذه الرحلة، ولما كان السفر بالطائرة من لكهنؤ إلى دلهي، ومن دلهي إلى تاشقند، فترددت كثيرا - نظرا إلى صحي - في القيام بالسفر، وكدت أعتذر عنه، ولكني علمت من دلهي أن مرافقي المحب الأستاذ محمد العثمان الحيدر آبادي قد وصل فعلا من الرياض إلى دلهي لمرافقتي لتسهيل سفري، وإراحة بالي على نفقته الخاصة، فإن ألغيت السفر فإن هذه النفقات التي تحملها سيذهب سدى، وكان من المقرر أيضا أن يرافقني في السفر العزيز محمد الرابع الحسيني الندوي أيضا، وقد وقع عليه الاختيار في اجتماع المركز الإسلامي، فعزمت على السفر، وتوكلت على الله، نظرا إلى أهمية السفر، وللذوق التاريخي والديني الذي ورثتها، وتأهبت للسفر"^(٢).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج: ٢، ص: ٢٠٨
^٢ الغوري، سيد عبد الماجد، رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته، دار ابن كثير، بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ٧١٤

الباب الثالث

أعمال أبي الحسن علي الندوي في السيرة

الفصل الأول: فن السيرة والترجمة عند الندوي

الفصل الثاني: السيرة النبوية

الفصل الثالث: رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الفصل الرابع: إذا هبت ريح الإيمان

الفصل الخامس: الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس

الكاندهلوي ودعوته إلى الله

الفصل السادس: الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا

الكاندهلوي ومآثره العلمية

الفصل السابع: في مسيرة الحياة

الفصل الأول

فن السيرة والترجمة عند الندوي

اهتم أبو الحسن علي الندوي بكتابات سير الأعلام وتراجمهم، وتصوير حياتهم أي اهتمام، وألف مؤلفات عديدة في هذا الميدان، وتولدت من يراعه البارح عدة كتب تعالج أحداث حياة كثير من الشخصيات البارزة، وكان هذا النوع من الكتابة والتأليف أحب نوع وأهم مجال بالنسبة إليه، وهناك سؤال هام، هو ما هي العوامل التي أدته إلى هذه التأليف؟ أو ما هي العناصر التي دفعته إلى هذه الكتابات؟ والجواب سهل جدا، هو البيئة التي نشأ فيها الندوي هي التي أتاحت له الفرص الواسعة لهذه الكتابة والإنشاء والإبداع بعد توفيق الله تعالى، لأن أباه العلامة الطبيب السيد عبد الحى الحسيني كان مشهورا في فن التاريخ، ومهتما بكتابة السيرة والترجمة، ومعروفا بلقب "ابن خلكان الهند"، والذي قاده إلى هذه الشهرة كتابه الموسوعي "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" وغيره من الكتب. وكان جده العلامة فخر الدين بن عبد العلي الحسيني أيضا عالما مؤرخا ذا إسهامات جليلة في التاريخ والسيرة في اللغة الفارسية، فهذه الظروف هي التي فتحت له باب العالم الواسع للكتابة في فن السيرة والترجمة.

وقد قال الندوي نفسه عن هذه الظروف المتميزة في كلام تقديمي لكتابه "شخصيات وكتب": "لقد أراد الله أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ وكتابة التراجم والسير، وأن أولد في أسرة كان فيها مؤرخون ومؤلفون، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال، وطبقات الشعراء والأدباء، وسير العظماء، من المصلحين والعلماء والملوك والأمراء، فكان جدي العلامة السيد فخر الدين الحسيني (١٣٢٦هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هذا ببال كثير من العلماء والمؤلفين في شبه القارة الهندية، وذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تعرف

الموسوعات ودوائر المعارف في الهند حتى في اللغات الأجنبية، فوضع كتابه (مهرجهانتاب) في مجلدين ضخمين، يحتوي المجلد الأول بخط مؤلفه على ثلاث مائة وألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير، وأكثرها تراجم الطبقات للصوفية والعلماء والشعراء، ووفق والدي العلامة السيد عبد الحي الحسني (١٣٤١هـ) رحمه الله تعالى لوضع أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية بتراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، والمساحة المكانية من ممر خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، ومن قُلَلِ كشمير إلى "مالابار" و"كالي كوت" في الجنوب، والأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمسة مائة (٤,٥٠٠) من التراجم، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بآبن خلكان في الدقة والأمانة... وقد قرأت هذه الكتب في سن مبكرة، لأنها كتب كانت في متناول اليد، وكانت الدوافع إلى قراءتها قوية وطبيعية، فحفظت منها الكثير، وقلدت أسلوب المؤلف حين بدأت أشدو في اللغة والأدب، وأمسكت القلم للكتابة والإنشاء"^(١).

وقال أيضا: "لذلك كله كان أدب التراجم والسير من أحب الآداب وأخفها وأسهلها لي، وكانت هوايتي وشغلي الشاغل في سن قلما يتيسر فيها الكتابة لكثير من هواة الأدب والإنشاء، فبدأت أولف في تراجم الرجال وسير النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلا، وبالأردية أكثر"^(٢).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص: ٧-٩

^٢ نفس المرجع، ص: ٩

ومع ذلك كان أخوه الأكبر الحنون الدكتور السيد عبد العلي الحسيني يقوم مقام أبيه الفقيه في صغره، ويشفق عليه شفقا أبويا، ويعتني بأموره التربوية، ويختار له كتباً مفيدة للقراءة، وكان من جملة هذه الكتب كتب ألفت في سيرة النبي ﷺ، منها كتاب "سيرة خير البشر"، وكتاب "رحمة للعالمين". هذه التربية أيضاً حبت إليه فن السيرة عامة، وسيرة النبي ﷺ خاصة.

لم ينظر الندوي إلى كتابة سيرة شخص وترجمته بنظرة ساذجة، ولم يعتبرها مهمة يسيرة، ولكنها عمل يحتاج صاحبه إلى أن يتصف بصفات متميزة، ويتسم بسمات فائقة. وعلى كاتب السيرة والترجمة أن تتوافر فيه مؤهلات تؤهله لتلك المهمة، وأن توجد فيه قدرات تسهل له هذا القيام الثقيل.

واشترط الندوي على من يعالج هذا الفن بعض الشروط، هي:

الشرط الأول: أن يكون عالماً بالشخص الذي يريد ترجمته عالماً بالغا إما بالمصاحبة الشخصية وإما بالدراسة العميقة الصحيحة، قال عنه: "أولها: المعرفة الشخصية الواعية الناقدة، وإذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلا فعن طريق الدراسة الآمينة وتتبع الأخبار، وأن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحث على تتبع الأخبار والتعرف على الخصائص"^(١).

والشرط الثاني: أن تتوافر فيه ملكة التعبير، وعدة المفردات والكلمات، كما قاله: "ويليها الاقتدار على البيان والتعبير وتملك ثروة لغوية وكلمات مميزة فاصلة"^(٢).

والشرط الثالث: أن يكون صادقاً في كلامه وأميناً في عمله، وأن يضع كل شخص موضعه، وألا يذكر إلا ما فيه، وألا يمدحه إلا بما هو أهله، وقال عنه: "ثم يأتي دور

^١ نفس المرجع، ص: ٦

^٢ نفس المكان

الدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية، والقدرة على تفصيل اللباس على قامة المترجم له والمعرف به، فلا يكسوه لباسا سابغا فضفاضا يبدو فيه قزما حقيرا، وينم هذا اللباس عن أنه لباس لغير هذا الإنسان ولقامة أطول من قامته، وللرجال قامات وقيم، وقد تكون الجنائية على القيمة أشنع من الجنائية على القامة"^(١).

والشرط الرابع: أن يكون الكاتب مقبلا على تصوير حياة شخص ما مع الإخلاص التام، وأن تكون الكتابة متدفقة من أعماق فؤاده، وألا يكون متكلفا مصطنعا، وقال عنه: "ومهم كذلك أن يتوفر عند الكتابة في ترجمة حياة أو تعريف بشخصية، دافع نبيل ورغبة ملحة تنبع من القلب، من تجاوب مع فكرة، أو استجابة لنداء الضمير، أو دفاع عن كرامة مهضومة، وحق سليب، أو رد لاعتبار، أو وفاء بفضل، أو إعجاب بجمال أو كمال، فإن الكتابة إذا تجردت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشيب جامد أو وشي وتطريز لمجرد الربح المادي والغرض التجاري، ويكون الكاتب أو الشاعر في ذلك المطرب المحترف أو النائحة المأجورة"^(٢).

والشرط الخامس: أن يعرف المترجم أن لكل كلمة محلها، ولكل محل كلمته، فعليه المحافظة البالغة على إلقاء الكلمات ووضعها حسب السياق والنهزة، وقال عنه: "ويجب أن يعرف أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (Temperature)، فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكان كلمة ذات حرارة منخفضة، فضلا عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة، ولا يسخى بكلمة تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال، والنبوغ والذكاء، أو الخلق الحسن، والسيرة العالية، أو العلم الغزير والذكاء الأمعي،

^١ نفس المكان

^٢ نفس المرجع، ص: ٦٠٧

لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه في طبقته ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات"^(١).

والشرط السادس: يجب على كاتب السيرة أن يجمع المعلومات اللازمة عن الشخص الذي يريد كتابة سيرته حتى يحدد مميزاته بقراءة كتبه وجمع آراء مَنْ صاحَبَه إذا كان عالماً في شتى الميادين وحاشداً أنواع الصفات، وقال عنه: "والمشكلة حين يكون المترجم جامعا بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل، كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطلع على مؤلفاته جميعاً، واطلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه"^(٢).

مزايا الندوي في كتابة السيرة

كتب السيرة في اللغة العربية كثيرة جداً كما ذكر، وقد ألفت بمقاصد مختلفة، وكانت للندوي مقاصد معينة عند الكتابة في السيرة والتأليف في الترجمة، وقد بينها الدكتور الحسين العربي رحمون في مقالته المعنونة بـ "موجز من منهج التراجم ومعالج التجديد عند الشيخ أبي الحسن علي الندوي" المنشورة في مجلة "البعث الإسلامي"^(٣)، وخلصتها:

(أ) اعتنى الندوي عند التأليف في السيرة بما اعتنى به السابقون من المؤرخين وأصحاب سير الأعلام من العناصر، مثل ذكر اسم الشخص المترجم له وكنيته وقبيلته ونسبه وأساتذته وتلاميذه وأعماله العلمية وما إلى ذلك من المعلومات، واعتنى مع ذلك المحافظة على الدرجة العلمية له، ويظهر شخصيته تصلح للاتباع والاقتداء.

^١ نفس المرجع، ص: ٧

^٢ نفس المكان

^٣ رحمون، د. الحسين العربي، "موجز من منهج التراجم ومعالج التجديد عند الشيخ أبي الحسن الندوي"، البعث الإسلامي، ندوة العلماء لكهنؤ - الهند، الأعداد الرابع والخامس والسادس، أبريل ومايو ويونيو سنة ٢٠٠٠م، (عدد ممتاز عن الندوي بعنوان كلمات التعزية) ص: ٢٣٥- ٢٣٧

ب) يصور الندوي حياة رجل من رجال الخير والإصلاح كمادة للعلم لا مجرد تعريفه،
وحقلا للتفكر لا مجرد ذكر المعلومات الأساسية.

ج) تم اختياره من الأعلام للترجمة وكتابة السيرة على أحسن طريق، حيث يتمكن
القارئ من اقتباس واقتطاف الأخلاق الفاضلة والأمور الدينية الراشدة، ولو كان بين
عصورهم أمد بعيد، لأن مقصده فيه خلق رصيف تجتمع فيه عوامل الدعوة الدينية
والأعمال الإصلاحية.

د) كان يفضل البعد الموضوعي على البعد الزماني، كما كان يقدم الوجه العلمي على
الوجه المكاني، حيث كتب سيرة أحد من الصحابة رضي الله عنهم وسيرة شخص آخر
من العلماء المجددين المعاصرين، ويترجم لشخص في البلد الإسلامي وفي نفس الوقت
يترجم لشخص في الهند.

هـ) وأسلوب الندوي رقيق بين سهل ممتع لا يمل القارئ، ليس أسلوب السجع، ولا
أسلوب من لا يحب نشر التعاليم الدينية والإصلاحات الاجتماعية.

و) كتابات الندوي في السيرة تجعل القارئ يتفكر في مصطلح جديد يضم إلى فنون
الكتابة في التراجم.

ز) إظهار مجالات المترجم المشتملة على دروس وعبر ورسائل لطلاب الإسلام وخريجي
المعاهد الدينية، كما قال في مقدمة كتاب "الإمام المحيّد الشيخ محمد زكريا
الكاندهلوي ومآثره العلمية": "ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أنه يختلف عن ذلك
المنهج الذي يسير عليه كتاب السيرة عادة، لأنني أعتقد أنه ينبغي لكاتب السيرة أن يبرز

جوانب صاحب السيرة التي تحمل درسا ورسالة لطلاب العلوم الدينية، وخريجي المدارس الإسلامية^(١).

وهذا الباب يعالج ما ألفه الندوي من الكتب في سير الأعلام وتراجمهم، وله عدة مقالات منشورة في مختلف المجالات تعالج أحداث حياة الشخصيات العملاقة، كما له عدة خطب تبين محاسنهم الخلقية ومناقضهم، منهم الإمام البخاري، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان محي الدين أورنغ زيب، وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، والشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني، والسيد صديق حسن خان القنوجي وغيرهم رحمهم الله، وجمع الأستاذ سيد عبد الماجد الغوري بعضا من مقالاته المنشورة في شتى المجالات حول الأعلام المذكورين آنفا وغيرهم في كتاب "من أعلام المسلمين ومشاهيرهم"، اللهم إلا أن الباحث اقتصر الكلام في هذا الباب على كتبه المؤلفة المفردة لسيرة علم أو أعلام، وهي: "السيرة النبوية"، و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، و"إذا هبت ريح الإيمان"، و"الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله"، و"الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، و"في مسيرة الحياة" سيرته الذاتية. ومن هذه الكتب ما ألفه الندوي في اللغة العربية، وما ألفه في اللغة الأردية ثم نُقل إلى اللغة العربية. أما كتابه "المرتضى" فلا يعالجه هذا الباب، لأن الباب التالي دراسة تحليلية لهذا الكتاب، فترك الباحث الكلام عنه هنا، وسيأتي في موضعه إن شاء الله.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م، ص:

الفصل الثاني

السيرة النبوية

كانت للندوي علاقة أصيلة ثابتة بفن السيرة منذ صغره كما مضى، وكان هذا النوع من الفن ممزوجا بدمه وممشوجا بجسمه، وكانت لسيرة النبي ﷺ عنده منزلة رفيعة واهتمام بالغ، وكان من أهم أسبابه - كما مر - نشأته في أسرة تهتم بهذا الفن، وفي بيئة تنشغل بهذا النوع من الأدب، وقراءته في سنه المبكرة للكتب المؤلفة في سيرة النبي ﷺ، مثل كتاب "سيرة خير البشر" و"رحمة للعالمين" المذكورين وغيرهما من الكتب.

كتاب "سيرة خاتم النبيين" وهذا الكتاب

وللندوي غير واحد من الكتب تعالج هذا الموضوع، ومنها كتاب "سيرة خاتم النبيين" الجزء الخامس من سلسلة "قصص النبيين"، وأقبل على تصنيف هذه السلسلة حين رأى ابن أخيه العلامة محمدا الحسيني في صغر سنه مشغوبا بقراءة قصص الطيور والحيوانات، ورأى أن هذه القصص تؤثر في قلوب الأطفال سلبيا.

الأجزاء الأربعة الأولى منها تشتمل على قصص بعض الأنبياء قبل محمد ﷺ، في أسلوب يجذب قلوب الناشئين، ويثقف نفوس الصغار، أما الجزء الخامس المعنون ب"سيرة خاتم النبيين" فهو جزء خاص بسيرة أشرف الأنبياء والمرسلين، وليس في أسلوب الأطفال الأغرار ولا في أسلوب الرجال الكبار، ولكن تم تأليفه في أسلوب متوسط بين هذين الأسلوبين.

وهذا الكتاب هو السبب الحقيقي لكتاب "السيرة النبوية" ونطفته الأصيلة كما قال هو نفسه في مقدمة "سيرة خاتم النبيين": "وعكف على تأليف هذا الكتاب حتى انتهى

في مدة قريبة، ثم اشتغل بتأليف الكتاب الكبير في السيرة النبوية وقد كان هذا الكتاب الصغير نواة هذا الكتاب الكبير وأساسه^(١). ونشرت هذا الكتاب دارُ الشروق بجدة، وطبعته أولاً في سنة ١٩٧٦ م، ثم تسلسلت له عدة طبعات.

نظرة إجمالية على كتاب "السيرة النبوية"

عالج الندوي في هذا الكتاب الأحوال الاجتماعية، والظروف الدينية السائدة في العصر الجاهلي قبل أن يعالج سيرة النبي ﷺ وترجمته، وعالج الأحوال الدينية في ذلك القرن - القرن السادس الميلادي - الواقعة في أنحاء العالم المختلفة وفي الشعوب العربية. ففي الباب الأول من هذا الكتاب نقاش في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإيرانية، وأحوال الهند، والجزيرة العربية الدينية، وفيه كلام واسع عن اختيار الله تعالى جزيرة العرب موضعاً لبعثة النبي الخاتم ﷺ، وحاول إثبات آراءه فيه بالآيات القرآنية، والمقتبسات من الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى.

وفي الباب الثاني المعنون ب"قبل البعثة" من الكتاب بيان حدود جزيرة العرب، وطبيعتها، ومُدنها، وثقافتها، وطبقات أهلها، وكون اللغة العربية لغتهم أجمع، ووصول إسماعيل عليه الصلاة والسلام إليها، وقبائلها المشهورة، وتاريخ عبادة الأصنام فيها، ومنزلة الكعبة في قلوب قريش، وحادثة الفيل التاريخية.

وفي الباب الثالث قام الندوي بتصوير أوضاع مكة الحضارية، والتجارية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والدينية.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة قصص النبيين، ج: ٥ (سيرة خاتم النبيين)، سنة الطبعة غير مذكورة، ص: ٤

ومنذ الباب الرابع يبدأ الندوي تصوير حياة رسول الله ﷺ، ففيه يتكلم عن والديه وولادته ورضاعته ويَتَمِّمُه، وكفالة جده ثم عمه، ونشأته وتربيته الإلهية وشبابه وزواجه، وأمانته وصدقه وعدالته، وتجرده من الشرك وسائر الأخطاء والردائل.

أما الباب الخامس منه فبيان مفصل عن بعثته نبيا، وبعض الأحداث الواقعة عقبها، وإسلام خديجة وأبي بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهم أجمعين - وغيرهم. كما ألقى فيه الضوء على دعوته الجهرية، ومعارضة أعدائه الشرسة، وتعذيبهم له وللذين آمنوا به ومقاطعتهم، وهجرة المسلمين إلى الحبشة والطائف. وذكر فيه ما حصل عليه المسلمون من القوة الزائدة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، كما فيه عرض واسع عن الحادثين العظيمين الإسراء والمعراج، وبيعتي العقبة الأولى والثانية، والهجرة المشهورة إلى المدينة المنورة.

ويبين الباب السادس والسابع أحوال المدينة الدينية والاجتماعية والطبيعية والاقتصادية، واستقبال أهلها النبي ﷺ وسائر المهاجرين، وإيجاد الأخوة بين أهلها والوحدة بين قبائلها. وفي الأبواب التالية يقص الندوي على القراء قصص غزوات بدر وأحد والأحزاب وبني قريظة وصلاح الحديبية ودعوة الملوك والسادة إلى الدين الحنيف، كما يقص قصة غزوات خيبر ومؤتة وفتح مكة وغزوات حنين والطائف وتبوك أيضا.

وفي الأبواب الأخيرة تفاصيل عن مجيء الوفود إلى الرسول ﷺ أفواجا، وحجة الوداع، ووفاته ﷺ. ولم ينس الندوي تمجيد هذا الكتاب بذكر أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده وحفدته وأخلاقه السامية وشمائله المثالية وعظمة البعثة المحمدية.

أسباب تأليف الكتاب

لم يقصد الندوي في أول الأمر تأليف كتاب مستقل في سيرة أفضل الرسل، ولكن قلبه كان يرغب في وجود كتاب مفرد بهذا الموضوع يحافظ على الأسلوب العلمي الحديث، لا في أسلوب الكتاب الموسوعي، ويحتوي على المحاسن الواردة في الكتب المؤلفة السابقة، ويتفق مع ما ورد في الكتب القديمة من المعلومات، وما ورد في الكتاب والحديث الثابت. على الرغم من وجود هذه الرغبات الشديدة، خاف من التأليف في هذا المجال، لأن كتابة ترجمة خاتم النبيين عمل ثقيل يتطلب دقة بالغة وأمانة ثقيلة وعملا دؤوبا أكثر مما يحتاج إلى كتابة سير سائر الأشخاص. هذه الأفكار جلبته إلى الوراء من هذه المهمة.

ولكن بعض أصدقائه الأعزاء مثل الشيخ محمد محمود الصواف (١٩٩٢م) وغيره حرضوه على التأليف في هذا الفن، وشجعوه على تقديم الخدمات في هذا الميدان، وقال عن هذا في مقدمة هذا الكتاب: "لكل ذلك كنت أتهيب الكتابة في السيرة النبوية والتأليف فيها وأستعظمها وأستصغر نفسي، وقد حثني عدد من الفضلاء وكرام الأصدقاء على أن أولف كتابا في السيرة النبوية في اللغة العربية أراعي فيه عقلية الجيل الجديد وذوقه ومستوى فهمه ونفسيته، وما جد من طلبات وحاجات وأسلوب كتابي ومنهج علمي، فلكل عصر أسلوبه ولغته، ومقادير ترتيبات في الأدوية والأغذية،..."^(١)

وقال أيضا: "وشرح الله صدري أخيرا لهذا التأليف، فعكفت على هذا الموضوع وعشت فيه، أقرأ كتب السيرة والحديث، وكل ما استعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث، وبدأت أكتب معتمدا على أصح ما كتب وألف في هذا الموضوع،..."^(٢).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م، ص: ١٨، ١٧.

^٢ نفس المرجع، ص: ١٨.

واستغرقت عملية التأليف عاما كاملا، كما قال: "وكان هذا الكتاب شغلي الشاغل ما بين شوال ١٣٩٥هـ وشوال ١٣٩٦هـ (أكتوبر ١٩٧٥م - أكتوبر ١٩٧٦م) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطرارا، تتخلل ذلك فترات قليلة من المرض ورحلات طويلة في الشرق والغرب، حتى يسر الله إتمامه في غرة شوال سنة ١٣٩٦هـ، وها هو الآن بين يدي القراء"^(١).

أهداف هذا التأليف

وإن أهداف الندوي في تأليف هذا الكتاب المشهور كثيرة، وهي واضحة في سطره التقديمية له، وقد ذكرها الدكتور محمد حسن الزير في مقالة "السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندوي"، وخلصتها:

(أ) أن يحصل بهذا التصنيف على السعادة، كما يحصل عليها سائر من سلك هذا المسلك.

(ب) أن تكون هذه الكتابة سببا لنيل الخير والأجر يوم القيامة، وأن تكون من الأعمال الثقيلة في الميزان.

(ج) أن يكون هذا الكتاب طريقا جديدا للتعمق في سيرة الرسول ﷺ، وزيادة للمعلومات فيها، والاستفادة منها.

(د) توثيق الإيمان بالرسول ﷺ وتثبيته في قلوب المؤمنين، وإثارة الحب له ولسننه الطاهرة في قلوب المسلمين.

^١ نفس المرجع، ص: ١٩، ١٨.

ه) تعريف الرسول ﷺ وتصوير حياته المقدسة لغير المسلمين الذين يعيشون في بيئة غير إسلامية، وأعان على تنفيذ هذا الهدف نقل هذا الكتاب إلى الأردنية والإنجليزية^(١).

أهم مراجعه العربية

وقد اعتمد الندوي في تأليف هذا الكتاب على عدة كتب قديمة وحديثة، عربية وغير عربية. كان معتكفا على القراءة المكثفة، ومكبا على المراجعة العميقة حيث جنى الثمار اليانعة منها وأخذ المقتبسات المفيدة، ومما اعتمد عليه لتأليفه كتبٌ عربية في التاريخ والترجمة والتفسير والحديث واللغة، وفيها قليل من الكتب الأردنية والإنجليزية، ودُكرت هذه المراجع في أواخر هذا الكتاب تحت عنوان "فهرس المراجع العربية والأردنية"^(٢)، ومن أهم هذه المراجع العربية ما يلي:

اعتمد الندوي في تأليف هذا الكتاب على القرآن الكريم، وعلى بعض تفاسيره مثل تفسير الطبري، وابن كثير وغيرهما، واعتمد على بعض كتب الحديث مثل الصحاح الستة، والموطأ للإمام مالك، وسنن الدارمي، والسنن الكبرى للبيهقي، والمستدرک للحاكم، والشمائيل المحمدية للترمذي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبرزي وغيرها.

ومن كتب شروح الأحاديث التي اعتمد عليها الندوي فتح الباري، وشرح مسلم، وعمدة القاري وغيرها، أما كتب سيرة النبي ﷺ فمنها سيرة ابن هشام، وكتاب الشفاء، والسيرة النبوية لابن كثير، وكتاب الخصائص الكبرى للسيوطي، وخاتم النبيين لأبي زهرة، والسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي وغيرها، ومن أهم كتب التاريخ البداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير، وفتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ ابن خلدون،

^١ الزير، د. محمد حسن، مقالة "السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندوي"، كتاب "الشيخ أبو الحسن الندوي" - بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للبيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م المنعقد في إستانبول، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص: ٥١٤، ٥١٣.

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م، ص: ٥٢٧-٥٣٥.

والإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني، وأسد الغابة لابن الأثير، والأغاني للأصبهاني، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، ووفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى للسهمودي، وأخبار مكة للأزرقي، وتاريخ مكة لأحمد السباعي وغيرها، واعتمد على بعض كتب الشريعة الإسلامية مثل حجة الله البالغة، وفقه الزكاة، وتاريخ التشريع الإسلامي للخضري بك وغيرها، ومن الكتب العربية اللغوية التي اعتمد عليها لسان العرب، وأدب الكاتب، وفقه اللغة، والعقد الفريد، والمخصص وغيرها.

ملاح هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب بملاح كثيرة، وهذه الملاح هي التي أوصلته إلى أوج الشهرة وأذاعت صيته، وجعلته يحظى بالقبول في أنحاء العالم. وكان هذا الكتاب واحدا من أحب الكتب إلى الندوي، قال الدكتور محمد اجتباء الندوي: "سألت سماحة الشيخ رحمه الله قبل وفاته بأربع وعشرين يوما وكان إذ ذاك في حرم ندوة العلماء (لكهنؤ) الهند، أي مؤلفاتكم أحب إلى جنابكم؟ فقال: السيرة النبوية، والنبوة والأنبياء، والطريق إلى المدينة، والأركان الأربعة، وماذا خسر العالم..."^(١). ومن هذه الملاح:

أ) الأسلوب في تصوير الأحداث: الكتب القديمة التي ألفت في سيرة الرسول ﷺ كلها في أسلوب قديم، لأنها ألفت في أسلوب عصرها، ولكن الندوي ألف كتابه هذا في الأسلوب العصري العلمي، يجذب قلوب القراء إلى قراءته والتمتع به، وفي نفس الوقت لم يفسد مضمون ما احتوت عليه تلك الكتب القديمة الأصلية الشهيرة، وقد حاز المؤلف هذه الصفة باعتماد المؤلف لتأليفه على تلك الكتب القديمة كما اعتمد على الكتب الحديثة.

^١ الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمرابي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ١٠٦.

وكذلك هناك كثير من الكتب المؤلفة في أسلوب موسوعي أو معجمي، ولكنه اختار لهذا الكتاب أسلوباً علمياً يسوق القارئ إلى الأحداث المذكورة والوقائع المفصلة فيه، بحيث يصعد مع صعودها، ويهبط مع هبوطها، ويأسر هذا الأسلوب عقول القراء وأذواقهم، وله يد طولى في جعل هذا الكتاب في المكان العالي من الشهرة، وقال الندوي في مقدمة هذا الكتاب: "وقد عاش المؤلف هذه المدة الطويلة وقد ألف عشرات من الكتب لا يفكر في أفراد كتاب في السيرة النبوية، رغم أنه كان يشعر بمسئولية الحاجة إلى كتاب كُتب في أسلوب عصري علمي، استفيد فيه من خير ما كتب في القديم والحديث،..."^(١).

(ب) الروعة في تكوين الجمل واختيار الكلمات: كان الندوي أحد العلماء العارفين باللغة العربية معرفة عميقة حقيقية، وكان يعرف دلالة الألفاظ ومفاهيم الكلمات ومغازي التراكيب، وكان من الشروط التي اشترطها على من يريد الكتابة في السيرة والترجمة- كما مضى- أن يعرف درجات الكلمات والألفاظ، لأن لبعضها حرارة تختص بها، ولبعضها برودة تتميز بها، فلا ينبغي استعمال كلمة ذات حرارة في موضع يحتاج إلى كلمة ذات برودة، كما لا ينبغي استعمال كلمة ذات برودة في موضع يحتاج إلى كلمة ذات حرارة، وتمسك الندوي بهذا الشرط أيّ تمسك. وكذلك تراكيبه وجمله في هذا الكتاب كلها سهلة جداً، حيث أورد الكلمات المألوفة، وتجنب المفردات الغريبة، حتى تسهل القراءة للقارئ وتيسر المطالعة لمن يريد الاستفادة منه.

(ج) مراعاة العناصر التربوية مع العناصر العلمية: ومما لا شك فيه ولا غبار عليه أن هذا العمل التأليفي مآدبة فاخرة علمية في فن السيرة النبوية، ومع ذلك هو ضيافة تربوية رائعة، ومن الطبيعي أن يكون كتاب مؤلف في تصوير حياة شخص من

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م، ص: ١٠.

الأشخاص كتابا علميا يذكر محاسنه ومناقبه ويروي أحداث حياته ووقائعها ويتجاهل الجانب التربوي، ولكن لوحظت في هذا الكتاب الجوانب العلمية والجوانب التربوية قدرا بقدر وسواء سواء، حيث رغب قلوب الكبار والناشئين في السيرة النبوية وحبها إليهم.

(د) المحافظة على المقومات العقلية والعاطفية: وقال محمد فهيم أخطر الندوي في مقالة له: "فلا يكفي أن يكون كاتب السيرة يتعامل من الخارج بالبحث العلمي الجاف والنقد التحليلي المجرد، بدون المشاركة الوجدانية والانفعال بها وتذوقها، لأن الحياة النبوية ليست تجربة وضعية محضة، يتحتم لفهمها الانفصال منها، بل هي بالعكس لا يمكن إدراك أغوارها والاقتراب من صميم أحداثها إلا بالمعايشة الوجدانية معها والاندماج فيها، وقد جمع الشيخ الندوي بين صفحات كتابه وجنات قلبه"^(١).

(هـ) استنتاج نتائج الموضوعات: كما قال الندوي في مقدمة الطبعة السابعة لهذا الكتاب إنه لم يكتف في هذا الكتاب بمجرد سرد الأحداث وروايتها من حياة النبي ﷺ كحال راوية الأخبار، ولم يجعل هذه الأحداث المنقولة كقائمة رُتبت فيها المعلومات، ولكنه استنتج نتائج الكلام، وذكر ما فيه من العبر، وأندر بما فيه من النذر، وبشر بما فيه من البشارات في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، ومن أمثالها ما ذكره في باب "غزوة أحد" من هذا الكتاب تحت عنوان "تربية نفوس المسلمين" ما وقع في تلك الغزوة من المحن والفتن، وخلاصة قوله فيه: حدثت هذه الوقائع والمحن ليمتحن الله بها قلوب المؤمنين، ويصقل بها نفوسهم، ويربهم بها أحسن تربية، فلم يكتف بإيراد حوادث تلك الغزوة، ولكن ذكر بعده من العبر في تلك الحادثة كنتيجة هذا العرض.

^١ الندوي، محمد فهيم أختار، "السيرة النبوية لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي"، مجلة "ثقافة الهند"، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو دلهي، المجلد الثاني والخمسون، العدد الرابع ٢٠٠١م، (عدد ممتاز عن الندوي) ص: ٣٧٥

(و) البيان بالخرائط: الخريطة تبين أحوال البلد أو المكان بيانا واضحا أكثر من البيان بالألفاظ والجمل في بعض الأحيان، إنها وسيلة من وسائل تحديد الظروف الطبيعية والجغرافية لمكان ما أو لبلد ما، ولم ينس الندوي وضع الخرائط في بعض المواضع الهامة من هذا الكتاب- وإن كانت قليلة العدد- وفيه خرائط جزيرة العرب، ومكة المكرمة، ومواقع القبائل الهامة، والغزوات الإسلامية، وهي ترفع القيمة العلمية للكتاب وتقوي الأصالة التاريخية له.

ويرجع الفضل في وضعها إلى أستاذين مشهورين، هما الأستاذ محمد حسن الأنصاري، والأستاذ الدكتور محمد شفيح. وقال الندوي عنهما في مقدمة هذا الكتاب: "وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضل في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية التي زين بها الكتاب، وزاد في قيمته العلمية، كما كان للأستاذ الكبير الدكتور محمد شفيح رئيس قسم الجغرافيا في جامعة "علي كره" الإسلامية ومساعد نائب رئيس الجامعة، وللقسم الجغرافي في الجامعة فضل في تحسينها وإكمالها، والمؤلف شاكر للإخوان جميعا"^(١).

(ز) الاعتماد على القرآن والسنة: لم تكن محاولة الندوي في تصوير حياة محمد ﷺ عملا زائفا، فكانت تأدية أمانة ونصيحة أمة، ففي هذا الصدد أورد فيه آيات قرآنية في كثير من المواضع المناسبة، كما أورد كثيرا من الأحاديث النبوية عند الكلام عن عديد من الحوادث، وكان حريصا على أن تكون الأحاديث التي يرويها صحيحة لا ضعيفة ولا موضوعة، وذلك لنقل العقيدة الصحيحة إلى قلوب القراء، ولإبعاد القصص المفبركة عن عقول الناشئين.

(ح) الاعتماد على أصح الروايات في المؤلفات: ومن خصوصيات موضوع التاريخ والسيرة أن يلحق به ما لم يصح ولم يثبت بمر الزمان وكر الأوان، فالتميز بين الصحيح

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م، ص: ١٩

والضعيف والجيد والرديء عمل شاق لا يقدر عليه إلا من له حظ عظيم ونصيب وافر من هذا العلم، ولا تصلح الكتابة في هذا الفن بمجرد كثرة الروايات والحكايات بدون النظر إلى درجتها من الصحة والضعف. ومما لا شك فيه أن طول الأمد قد أثر في بعض التواريخ والتراجم بشكل سلبي، حتى لا يُعتمد على بعضها. ولكن الندوي قد بذل أقصى جهوده لتصفية الجيد من الرديء، وتمييز الصحيح من السقيم، وواظب على القراءة الواسعة والمطالعة الشاملة في كتب التراجم والأحاديث النبوية، منها كتب ألفت في العصر العتيق وكتب ألفت في العصر الجديد. وكانت بداية كتابته اعتماداً على المؤلفات المشتهرة بصحتها والمعروفة بعدالتها، وقرأ مؤلفات ألفت في هذا العصر في اللغات العربية والأردية والإنجليزية، وأخذ منها ما رآه صحيحاً ثابتاً.

ط) ذكر بيئات جزيرة العرب قبل تصوير الحياة النبوية: بدأ الندوي هذا الكتاب بوصف حقبة ما قبل الإسلام، وتصوير الحياة الدينية والأوضاع السياسية السائدة في العالم عامة وفي جزيرة العرب خاصة في ذلك العصر الحالك تحت عنوان "العصر الجاهلي"، ثم دخل إلى بيان جزيرة العرب وحدودها وطبيعتها وطبقات أهلها ولغتها وشعوبها وقبائلها وما إلى ذلك من المعلومات - كما ذكر - تحت عنوان "قبل البعثة". وعنوان الباب الثالث هو "مكة زمن البعثة وعند ظهور الإسلام". وهذه الأبواب كلها تمهيد الطريق إلى تصوير حياة أفضل البشر وبيئات نشأته وظهور رسالته. وقال السيد أفتاب أحمد في مقالة له منشورة في مجلة "دراسات عربية" السنوية المحكمة: "وهذا الكتاب بيان دقيق لمختلف جوانب حياة النبي الخاتم محمد ﷺ بدءاً من الحياة الاجتماعية والسياسية في المنطقة العربية قبل بعثة نبينا محمد ﷺ"^(١).

^١ أحمد، أفتاب، مقالة "السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي وكتابه باللغة العربية في السيرة النبوية"، مجلة "دراسات عربية" السنوية المحكمة، مركز الدراسات العربية والإفريقية، كلية دراسة اللغات والأداب والثقافات، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند، العدد الثاني ٢٠١٥ م، ص: ٥٨

ي) الترتيب الزمني في عرض الحياة النبوية: وقد حافظ الندوي في عرض الحياة النبوية الطاهرة على الترتيب الزمني والتسلسل العصري - وإن لم يذكر التاريخ واحدا بعد واحد - حتى يدرك القارئ أحداث حياته ﷺ أحسن إدراك دون الشعور بالملل أو الضجر، ويتابع من يريد الاستفادة منها حادثة بعد حادثة وواقعة بعد واقعة دون انقطاع بينها.

كتابه الطريق إلى المدينة

هذا الكتاب عمل يهتم بسيرة النبي ﷺ، ولكنه لا يعالجها مباشرة، أما مضمونه فيصور بعض أحداث حياته ﷺ، وهذا الكتاب مجموعة مقالات منشورة للندوي في شتى المجالات في مختلف المناسبات، وخطب ألقاها في الإذاعات المختلفة. ولم يذكر فيه أحداث حياة النبي ﷺ واحدا تلو واحد، إلا عرضا كلياً لبعضها.

الفصل الثالث

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" سلسلة أربعة أجزاء قيمة، يشتمل على تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام وسير بعض المصلحين والمجددين من القرن الأول الهجري إلى بعض الأعلام الذين عاشوا في القرن الرابع عشر الهجري. وقد تلقى هذا الكتاب قبولا حسنا من قبل محبي الإصلاح وأعلامه وهواة التجديد وأصحابه، ورَحَّبَت به هذه الأمة وأبناؤها ترحيبا حارا في شتى أنحاء العالم. وفي هذا الكتاب - بأجزائه الأربعة - غرض الندوي واضح في اختيار الأعلام لتصوير حياتهم، وعدم عرض حياتهم لمجرد سرد السيرة ورواية الترجمة ومطالعتها فقط، ولكن من أجل إفادة القاري بقراءتها، وإنارة قلبه بنور الإصلاح وضوء التجديد، وإتاحة الفرصة للجيل الجديد للاقتباس من حياتهم ما يصلح للاقتباس، والاقتداء بما يصلح له من إصلاحاتهم.

هذا الكتاب

وفي الحقيقة ترجع قصة تأليف هذا الكتاب إلى محاضرات الندوي التي ألقاها في مُدْرَج الجامعة السورية ملبياً دعوة مسؤولي كلية الشريعة التابعة للجامعة، وكان من مقدمهم الدكتور مصطفى السباعي، وكانت دعوته أولاً أن يكون مُدْرِساً هناك، ولكن الندوي اعتذر منه وأبرز استعداده لإلقاء المحاضرات حول مواد إسلامية، وبعد ما تقررت الأمور وصل الندوي إلى دمشق، وألقى هذه المحاضرات الجليلة أمام الأساتذة والطلبة والطالبات وسائر أعيان تلك المنطقة.

وبدأت المحاضرات في اليوم الرابع من شهر أبريل ١٩٥٦م واختتمت في اليوم الثلاثين من شهر مايو في نفس السنة. وكانت عشر خطب، ولكن صاحبها لخصها ثمانيا بضيق

الوقت، وألقاها كل يوم الأربعاء خلال تلك الفترة. وكان الخطاب الأول حول "التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي"، وكان الخطاب الثامن والأخير حول "حجة الإسلام الغزالي، مصلحا اجتماعيا". وكان مقصده في أول الأمر كما قال: "لقد كان في النية أن أختتم السلسلة الأولى من هذه المحاضرات بمولانا جلال الدين الرومي، وأبدأ الثانية بشيخ الإسلام ابن تيمية، وأختتمها برجال الإصلاح في القرن الثالث عشر الهجري، ولكن وصولي بتأخير، وضيق الوقت قد حالا دون ذلك، فختمتها بحجة الإسلام الغزالي"^(١).

فتكوّن الجزء الأول لهذا الكتاب من تلك المحاضرات العشرة ومحاضرات ضُمت إليها عند نشرها كشكلٍ كتاب. وكانت المحاضرة الأولى فيه حول أهمية عملية الإصلاح والتجديد بعنوان "الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالهما في تاريخ الإسلام"، والثانية حول أعمال عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) الإصلاحية بعنوان "جهود الإصلاح والتجديد في القرن الأول - سيدنا عمر بن عبد العزيز"، والثالثة حول الحسن البصري (١١٠ هـ) وخدماته التجديدية بعنوان "الجهود الإصلاحية في القرن الثاني - الحسن البصري وخلفاؤه"، والرابعة بعنوان "حركة التدوين في الإسلام وتنظيم الحياة على الأسس الدينية"، والخامسة بعنوان "الإمام أحمد بن حنبل"، والسادسة بعنوان "أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه"، والسابعة حول "الانحطاط في علم الكلام، وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد"، والمحاضرات الثامنة والتاسعة والعاشره حول أبي حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) بعنوانين "حجة الإسلام الغزالي - حياته ودراسته"، و"حجة الإسلام الغزالي ناقد للفلسفة ومتكلم"، و"حجة الإسلام الغزالي مصلح اجتماعي" على الترتيب.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م، ج: ١، ص: ٣٣، ٣٤.

أما المحاضرات المضمومة إليها عند نشره ككتاب فهي: اثنتان حول الشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ) بعنواني "الإمام عبد القادر الجيلاني عصره، حياته، صفته، تأثيره"، و"الإمام عبد القادر الجيلاني دعوته، إصلاحه، فضله، وفضل خلفائه في تجديد الإيمان والدعوة إلى الإسلام". ومنها "غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام"- وفي الحقيقة هذا فصل من فصول كتاب الندوي الأردني المعنون ب"تاريخ دعوة وعزيمة"، ثم ضم إلى هذا الكتاب في سنة ١٩٦٩م عند الطبعة الثالثة، -كما ذكره سيد عبد الماجد الغوري- ومنها ثلاث محاضرات عن جلال الدين الرومي (٦٧٢هـ) بعنوانين "مولانا جلال الدين الرومي عصره، وترجمة حياته"، و"مولانا جلال الدين الرومي مفكر مبتكر، ومؤسس علم كلام جديد"، و"مولانا جلال الدين الرومي داع إلى الحب والعاطفة، واحترام الإنسان والإنسانية".

أما الجزء الثاني لهذا الكتاب فهو جزء مستقل بتاريخ حياة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي (١٢٦٣ - ١٣٢٨م) وإسهاماته الإصلاحية والتجديدية الجلية في الإسلام، وفي الحقيقة هذا الجزء ترجمة عربية للجزء الثاني لكتابه في الأردية "تاريخ دعوة وعزيمة" المذكور آنفاً، والذي قام بترجمته إلى العربية الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي -رئيس التحرير ل"البعث الإسلامي" حالياً- ثم فتشه الندوي ونقحه وهذبه وأضاف إليه ما شاء أن يضيفه وحذف منه ما شاء أن يحذفه. والذي حرص الندوي على التفكير في وجود ترجمة عربية لهذا الكتاب هو رواج وشهرة وقبولية ترجمته إلى الإنجليزية التي تمت في عام ١٩٧٤م، وقال عن ذلك: "ورحبت بالترجمة الإنجليزية الأوساط العلمية، والمشتغلون بالدراسات الإسلامية، والبحوث التاريخية ترحيباً كبيراً، وأبدى عدد من الباحثين والمعنيين بالفكر الإسلامي، وحركات الإصلاح والتجديد في الإسلام، إعجابهم الكبير بهذا الكتاب، وكان أول كتاب يصدر في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية في اللغة الإنجليزية بهذا التفصيل والتحقيق".

" كان كل ذلك كافيا لانتهاز أول فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغة العربية"^(١).

يحتوي هذا الجزء على ثلاثة أبواب، الباب الأول هو "سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وميزاته وخصائصه"، وتندرج تحته سبعة فصول تناقش الحاجة إلى من يقوم بالإصلاح والتجديد، وخصوصية عصر ابن تيمية، وميلاده ونشأته وحياته ووفاته، وخصوصياته الشخصية والتأليفية، وما إلى ذلك من الأمور. والباب الثاني هو "الدور الإصلاحي والتجديدي لشيخ الإسلام ابن تيمية"، وتندرج تحته أربعة فصول، وهي تبحث فيما قام به شيخ الإسلام من الأعمال التجديدية لترسيخ التوحيد الخالص في قلوب الناس، وما قدم من المساهمات والمحاولات لدحض الشرك، وتفنيد الأفكار الفلسفية والمنطقية وغيرها من الجوانب.

أما الباب الثالث والأخير فهو "تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء"، وتندرج تحته أيضا أربعة فصول، وهي تعالج أربعة تلاميذ له، الذين اشتهروا بعلمهم الراسخ وخدماتهم التأليفية، وهم الحافظ ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، والحافظ ابن عبد الهادي المقدسي (٧٤٤هـ)، والحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ)، والحافظ ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ).

الجزء الثالث من هذه السلسلة جزء مستقل بسيرة مجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي- منسوباً إلى عمر الفاروق رضي الله عنه- (١٥٦٤-١٦٢٤م) وتاريخ حياته وأعماله، كانت للندوي علاقة أصيلة بتاريخ حياته منذ صغره، لأن أخاه الأكبر الموقر كان يأمره بمطالعة "رسائل الإمام السرهندي" وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ونشأ حبه له مع نشأته، وقرأها مرارا في مختلف أطوار حياته- وإن لم يكن في أول الأمر مشغولاً بقراءتها، ثم بالمطالبة المستمرة من جهة أخيه اضطر إلى القراءة - ولماً واظب

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج: ٢، ص: ٤٢٠.

عليها ازداد حبا به ورغبة في سيرته، وبعد أن مضت مدة قليلة جعل يجمع المواد والبيانات المتكررة فيها، ويعنهما، ويضع فهرس مضامينها. ثم بعد مُضي بضع سنوات جعل يكتب مقدمات لكل فصل من فصولها، ويجعل الموضوعات المتكررة فيها في مكان واحد تحت عناوين لائقة، ويكتب في جوانب صفحاتها وحواشيها ترجمتها الأردية، وتخريج الأحاديث وما إلى ذلك من المعلومات اللازمة.

ولما بدأ تصنيف هذه السلسلة - رجال الفكر والدعوة في الإسلام- أراد أن يفرد جزءا في سيرة الإمام السرهندي، هكذا تكون هذا الجزء الثالث لهذا الكتاب. ألفه في اللغة الأردية ثم نقله الشيخ السيد سلمان الحسيني الندوي إلى العربية. وقال عن دوافعه إلى تأليف هذا الجزء في مقدمته: "هذا في جانب، وفي الجانب الآخر كُتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق، ومن النتائج الباهرة المستمرة، ما يندُر نظيره في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام، كان ذلك يحُثني على وضع هذا الكتاب".

"كما أن إلحاح القراء لسلسلة "رجال الفكر والدعوة" والمقَدِّرين لفضلها بلغ من الجِد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن، بل إن كثيرا من أصدقاء المؤلف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمق فيه، كانوا يشيرون عليّ بأن أتفرغ لهذا الموضوع تفرغا كاملا وأقدمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى"^(١).

يتكون هذا الجزء من ثمانية أبواب رئيسية، الباب الأول هو "العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري"، فيه يعالج المؤلف ظروف العالم السياسية والدينية والعلمية والفكرية والعقدية السائدة في هذا القرن. والباب الثاني هو "فتنة القرن العاشر

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج ٣ ص: ١٧

الهجري الكبرى". والثالث "عهد الملك أكبر، والفترتان المتعارضتان في حياته"، والمراد بهما فترة إسلامه وديانته المتواضعة، وفترة عداوته للإسلام ونظرية الدين الإلهي الأكبري. والرابع "قصة حياة مجدد الألف الثاني الإمام السرهندي"، وهذا الباب يعالج نسبه وأسرته وولادته وأهم أحداث حياته. والخامس "تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية نقطة تجديد الإمام السرهندي وإصلاحاته الأساسية". والسادس "وحدة الوجود أو وحدة الشهود". والسابع "جهود الإمام الدؤوبة الصامته في توحيد الدولة إلى الإسلام من جديد". والثامن والأخير "قيام خليفتي الإمام السرهندي وأصحابهما، بتوسيع نطاق عمله التجديدي وتكميله"، هما الشيخ محمد معصوم، والشيخ السيد آدم البنوري.

الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب جزء مستقل بسيرة الإمام شاه ولي الله الدهلوي مجدد القرن الثاني عشر الهجري (١٧٠٣ - ١٧٦٢ م) وكان تأليف هذا الكتاب أيضا في اللغة الأردية، وقام بترجمته ونقله إلى العربية الأستاذ السيد سلمان الحسيني الندوي، نفس الشيخ الذي قام بترجمة الجزء الثالث من هذه السلسلة، يشتمل هذا الكتاب على أبواب ثلاثة، الباب الأول هو "العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري"، وتندرج تحته أربعة فصول، وهي تعالج الأحوال السياسية في العالم عامة، والدولة العثمانية والأحوال السياسية في الحجاز واليمن وإيران وأفغانستان خاصة، وتعالج الظروف العلمية والدينية في العالم، والظروف الخلقية والاجتماعية والعقدية عامة، كما تعالج الحال السياسي والعلمي والروحي والخلقي والاجتماعي والعقدي في الهند خاصة.

ومن الباب الثاني المعنون ب"سيرة الإمام الدهلوي" يبدأ تصوير حياة الإمام وبيان أحداث أيامه، تحت هذا الباب ثلاثة فصول، وهي على الترتيب "أجداد الإمام ووالده"،

و"حياة الإمام الدهلوي بإيجاز"، و"مؤلفات الإمام الدهلوي"، وفي هذا الفصل الأخير قائمة أعمال الإمام التأليفية حسب الحروف الهجائية.

والباب الثالث والأخير هو "مآثر الإمام الدهلوي التجديدية"، وتندرج تحته سبعة فصول مفصلة، وهي على الترتيب: "إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن"، و"القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة، والدعوة إلى التوفيق بين الحديث والفقه، والجهود في سبيله"، و"عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنًا متسقًا، والكشف عن مقاصد الأحكام الشرعية وأسرارها وحكمها في ضوء حجة الله البالغة"، و"الحاجة إلى نظام الخلافة وفوائده وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وعظيم منتهم على الأمة في ضوء كتاب إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء"، و"دور الإمام الدهلوي القيادي في عهد الفوضى السياسية، واختصار الدولة الموغولية"، و"الحسبة على مختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير"، و"القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح".

أهداف الكتاب

لماذا ألف الندوي هذه السلسلة القيمة التي حازت شهرة ترفرف في أجواء محبي اللغة العربية وسير الأعلام العباقرة؟ والجواب بيّن مما سبق من سياق تأليفها، ولكن يجدر هنا بذكر بعض الأهداف وراء القيام بهذا العمل الجاد، ومن أهمها:

(أ) إصلاح الأمة وتجديدها.

(ب) إعادة الأمة المسلمة إلى شرب من معين ماضيها العذب.

قال سيد عبد الماجد الغوري في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب: "وقد أراد المؤلف -رحمه الله- من صناعة كتابه هذا: إصلاح الأمة، وضرورة عودتها السريعة للنهل من

تاريخها العتيق، وورود ينابيع الإسلام في إشراقتة عبر العصور، وبذا يأخذ الكتاب لقطات مختلفة من بطون التاريخ، ويعرضها في سير رجال عظام، قدموا كل مفيد، فكانوا زعماء الإصلاح الإسلامي"^(١).

ج) تقديم هدية عالية أو رسالة نشيطة للقرن الخامس عشر الهجري خلال تصوير حياة الإمام السرهندي.

د) إيجاد وثيقة تاريخية لأعمال السرهندي.

وقال الندوي في مقدمة الجزء الثالث: "رأى المؤلف أنه إذا تم هذا العمل (الكتاب) بإخلاص وصفاء نية موفقة فإنه لا يكون عملا نافعا مستمرا فحسب، بل سيكون -إذا قدر الله تعالى- هدية قيمة أو رسالة حية للقرن الخامس عشر الهجري، ووثيقة تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين، قام بها في دأب وصمت، وتواضع وخشوع، ولم يقتصر تأثيرها على قرن واحد، بل امتد حتى شمل الألف الثاني كله"^(٢).

ه) تعريف الناس بأن الإسلام جديد دائما، وأن شجرتها مثمرة كل وقت، ويكون فيه أعلام مجدودن في كل حين.

وقال في مقدمة الجزء الرابع: "وها هي الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية، يسند بعضه بعضا، وكلها مترابطة متناسقة، تدل على أن شجرة هذا الدين تؤتي أكلها كل حين، وعلى أن خليته لا تنقطع عن التعسيل، وكنانته لا تنفذ ولا تخطئ سهامها"^(٣).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج: ١، ص: ٦

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج: ٣، ص: ٧

^٣ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام- الإمام الدهلوي، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ج: ٤، ص: ٢٤

هذا الكتاب في نظر أدباء وعلماء

لقد أبرزت شخصيات بارزة مشهورة في العالم آراءهم الجديرة بالملاحظة والانتباه في هذا الكتاب وانطباعاتهم القيمة عنه، وقد أظهر علماء كثيرون إعجابهم به وتأثرهم بمضمونه، وبَيَّن العديد من الكتاب داخل الهند وخارجها قوة تأثيره في المجتمع، ومدى نفوذه في قلوب الناشئين وعقول المعتنين بأمور الإصلاح في الدين والتجديد في الأمة. وهذه الآراء والانطباعات تتضح هيبة هذا الكتاب والقبول الذي حصل عليه، ومنها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

(أ) قال العالم الدكتور محمد اجتباء الندوي (٢٠٠٨ م): "إنها السلسلة الذهبية التي وصلت جواهرها ريشة الشيخ الندوي رحمه الله، الرشيقة الشيقة، قدمتها أولاً باقة جميلة جذابة إلى طلبة كلية الشريعة وأساتذتها وأعيان البلد ومفكره والمعنين بتاريخ التجديد والمجددين في الإسلام، بالجامعة السورية (جامعة دمشق) ثم أتمها باسم رجال الفكر والدعوة في الإسلام"^(١).

(ب) قال سيد عبد الماجد الغوري: "وهذا الكتاب -رجال الفكر والدعوة في الإسلام- سار بين الناس كالهواء والنور، فكان متنقِّساً للورى، حيث يجدون في صفحاته تاريخ الأمة مرسوماً بكلمات معبرة، ويلحظون زبدة الأفكار تمهادى بين طياته، ولقاح الألباب يَشْرَبُ بعنقه، تيّها بتلك الفرائدة [كذا] المتألقة التي نجبت، وضاء شعاعها، فكانت بلسماً للجراح، وغذاء للفكر والروح، وحروفاً من نار ونور على جبين التاريخ"^(٢).

(ج) قال الدكتور مصطفى السباعي (المتوفى سنة ١٩٦٤ م): "وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم لقراء العربية صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي، وميوله الإصلاحية، ولفهمه

^١ الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ٩١
^٢ الغوري، سيد عبد الماجد، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن علي الندوي، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م، ج: ١ ص: ٥٦

العميق للتاريخ الإسلامي ولروح الإسلام الصافية المشرقة، وما علق بها - في العصور الأخيرة- من غبار، وما أصابها من انحراف، وبذلك يسد هذا الكتاب ثغرة في دراسة التاريخ الإسلامي، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها، إذ يتحدث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صورا واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي منذ العصر الأموي"^(١).

(د) قالت الكاتبة الشهيرة السيدة مريم جميلة (١٢٠٢ م) في رسالة أرسلتها إلى الندوي في ١٩ من شهر أكتوبر ١٩٧٤ م، واقتبس قولها د. محمد اجتباء الندوي في كتابه: "وأما كتابكم فهو كامل ومحتوٍ على الموضوع مع رشاقة القلم وإمتاع الأسلوب، وخاصة بحثكم حول الهجوم التتري على العالم الإسلامي شيق وممتع جدا.

فالحقيقة أن تأليفكم هذا مؤثر وممتلئ بالحماس، ويشعل العاطفة ويصور التاريخ الإسلامي والأفكار الصحيحة تصويرا دقيقا ويعرضها عرضا صادقا"^(٢).

(هـ) قال نذر الحفيظ الندوي الأزهري (٢٠٢١ م): "قراءة هذه السلاسل الذهبية لتاريخ رجال الفكر وأصحاب الدعوة في الإسلام تعيد ثقة المسلم بصلاحية الإسلام وخلود رسالته وقدرته على حل المشاكل في كل عصر ومصر.

"قراءة هذا الكتاب تجدد عاطفته الجياش، وتجعل إرادته قوية قادرة على الصمود والتصدي أمام هجمات الأعداء"^(٣).

^١ السباعي، د. مصطفى، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن علي الندوي، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م، ج: ١ ص: ٨

^٢ جميلة، مريم، رسالتها إلى الندوي بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٧٤ م، اقتبسها د. اجتباء الندوي في كتابه "أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل"، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م، ص: ٩٣

^٣ الندوي الأزهري، نذر الحفيظ، الأستاذ أبو الحسن الندوي كاتبا ومفكرا، دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م، ص: ٢٤

و) قال العالم السوري الدكتور مصطفى سعيد الخن (٢٠٠٨ م): "إن الكتاب الذي نقدمه اليوم لقراء الشيخ، فيه عرض لصفات تحلى بها أرباب الفكر والدعوة إلى الله تعالى في هذا العالم الإسلامي، الذي أكرمه الله بوجود هؤلاء الأفاضل الذين يحاول أعداء الله أن يطمسوا معالم حياتهم"^(١).

ز) قال العالم المشهور الدكتور يوسف القرضاوي (٢٠٢٢ م): "الجزء الأول من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) وهو كتاب يعتبر نسيجاً وحده"^(٢).

وقال أيضاً: "وقد أعدها [المحاضرات اشتمل عليها الكتاب] الشيخ الندوي إعداداً جيداً، وبينت مدى عناية الشيخ بالتاريخ الإسلامي، ومراحلته المختلفة، وعمق معرفته بخصائص الرجال المجددين للدين، والمؤثرين في الأمة، وأن كلا منهم جاء في أوانه، وسد ثغرة في جانب من الجوانب لم يكن ليسدها غيره"^(٣).

^١ الخن، د. مصطفى سعيد، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن علي الندوي، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م، ج:

١ ص: ١٢

^٢ القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ٢٢

^٣ نفس المكان

الفصل الرابع

إذا هبت ريح الإيمان

يسلط هذا الكتاب أشعة ذهبية على حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١هـ- ١٢٤٦هـ) وأصحابه، ويحتوي على تاريخ مفصل للدعوات الإسلامية الواقعة في القارة الهندية في القرن الثالث عشر الهجري، أما سبب تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم فهو إلماح إلى ما قام به السيد أحمد بن عرفان الشهيد من الأعمال التاريخية، لأنه إذا هبت ريح الإيمان في مكان وجد أهله أموراً معجبة، وشهدوا مشاهد مدهشة من ازدهار الإيمان والتوكل، وتسدد النشاطات والأعمال، واتصاف الناس بالجود والكرم، واتسامهم بالصدق والإقدام، ووجود الإنصاف والعدل، وغياب الخداع والخذل، وحلّت هذه الرياح الهوجاء بالهند وهبت بأرضها شدة، تدمر الفساد، وتزيل الفتن، وتبث الخير، وتطفئ نار الظلم، في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، والذي تزعم هذه الحركة وترأسها السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد. وقال الندوي عنه في مقدمة هذا الكتاب: "وقد هبت هذه الرياح في الهند في فجر القرن الثالث عشر الهجري، وتجددت ذكريات القرون الأولى يوم قام الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بدعوة التوحيد والتجديد والجهاد"^(١).

وكانت للندوي علاقة حميمة بالشهيد ومحبة نفسية له منذ شرح شبابه ومنتقل عمره، ولذا دخل مضمار الكتابة العربية بكتابة ترجمته، حيث كتب في مجلة "المنار" المصرية أصدرها السيد رشيد رضا في عدد مايو سنة ١٩٣١م، في عمره السادس عشر كما ذكر في الباب الماضي. ثم تم نشر هذه المقالة من مصر رسالةً مستقلةً، وقد ذكر ذلك الأستاذ نذر الحفيظ الندوي الأزهري في مقدمة هذه الرسالة نشرها بعد سنين

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب إذا هبت ريح الإيمان، دار القلم بالكويت، ١٩٧٤م، ص: ٧

"مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية" برائي بريلي- الهند: "فلما تم إعداد المقال إذ جاء الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي إلى دار العلوم ندوة العلماء لتدريس اللغة العربية فيها، فعرض الشاب الناهض هذه الترجمة على الأستاذ الهلالي، فتناول بعض المواضع بالتصحيح، وقال له: إذا أحببت ابعث بهذه الترجمة إلى العلامة رشيد رضا ينشرها في مجلة "المنار" ولكن خذ بالك أنه دقيق النقد وأن مستوى الصحة عنده عال جداً، فإنه يستخرج الأخطاء من مقالات الكتاب الكبار، فأبدى التلميذ اليافع رضاه، وبعث الأستاذ بهذه الترجمة مع رسالة للتعريف بالمترجم، ولم يقتصر العلامة السيد رشيد رضا على نشرها فحسب، بل كتب إلى الأستاذ الهلالي أن صاحب المقال لو أحب أن ننشره في رسالة مستقلة لفعلنا، لم يمض كثير وقت حتى جاءت تلك الرسالة من مصر بعنوان "ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد مجدد القرن الثالث عشر"، وأي فخر ومكرمة لشاب هندي ناهض أكبر من أن تنشر رسالته على يد عالم جليل مثل العلامة السيد رشيد رضا، والشاب لم ينيف على السادسة عشرة من عمره"^(١).

وله مقال مطول في سيرته بعنوان "الإمام الذي لم يُوف حقه من الإنصاف والاعتراف"، وأبدى في مقدمته ما كان في قلبه من الرغبة في كتابة خاصة بسيرته، حيث قال: "وكان كاتب هذه السطور يرى أمانة في عنقه منذ زمن طويل أن يُعرف هذه الشخصية إلى قراء العربية ويؤدي الشهادة لله، فقد مكنه ظروفه الخاصة من دراسة سيرته وحياته والاطلاع على جوانب عظمته، ظروف لم تهيأ لكثير من زملائه ومعاصريه- على فضل علمهم وعلو مكانتهم- وما شب عن الطوق إلا وتناول هذا الموضوع دراسة وكتابة وتأليفا وترجمة، ومكنه الاشتغال بمطالعة تاريخ الإصلاح والتجديد وترجمة رجال

^١ الندوي الأزهرى، الأستاذ نذر الحفيظ، مقدمة رسالة ترجمة السيد أحمد بن عرفان الشهيد مجدد القرن الثالث عشر، مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية برائي بريلي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ص: ٤-٦

الفكر والدعوة في الإسلام، من معرفة طبقات الرجال ودرجاتهم وخصائصهم ومكانتهم في تاريخ الفكر الإسلامي والجهاد الإصلاحي.

فحتم كل ذلك عليه أن يقدم إلى قراء العربية موجزا عن جهاد هذا الإمام تكون مقدمة وتمهيدا لكتاب كبير يوفق له من يكتب الله له هذه السعادة، وما هذه الصفحات التي تطالع القراء إلا محاولة متواضعة في هذا الاتجاه، ولفتة تاريخية للدارسين لهذا الموضوع والمؤلفين والمؤرخين، والعاملين لمجد الإسلام ونهضته وإدالته من الجاهليات التي تداعت عليه وأحاطت به"^(١).

وكان له قبل هذا التأليف كتاب في نفس الموضوع في مجلدين ضخمين بعنوان "سيرة السيد أحمد شهيد" باللغة الأردية، اشتهر هذا الكتاب أيضا بين قراء تلك اللغة الهندية. كما كتب سلسلة مقالات باللغة العربية في مجلة "المسلمون" الصادرة من القاهرة في عام ١٩٥٣م، وهي أيضا اشتهرت شهرة عجيبة، ثم ألف هذا الكتاب بعد عشرين سنة من نشر تلك المقالات في سنة ١٩٧٤م.

فحوى الكتاب

يشتمل هذا الكتاب على خمسين فصلا، وفي نهايته فصل خاص في سيرة السيد الشهيد بعنوان "لمحة موسعة عن حياة الشهيد"، أعده ولخصه السيد محمد الثاني الحسني، ونقله إلى العربية السيد واضح رشيد الحسني الندوي، ويتكون الكتاب من ٢٤٠ صفحة، نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت، ودار القلم بالكويت في سنة ١٩٧٤م.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة مقال الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف، المجمع الإسلامي العلمي، مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ، الهند، ١٩٨٩م، ص: ٩١٠

يجدر هنا بذكر مضمون بعض الفصول لتعريف طبيعة الكتاب وشخصيته على سبيل المثال لا الحصر، الكلام التقديمي هو "السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي"، وفيه تصوير سريع ورسْم موجز لحياة الشهيد وأهم أحداثها، من الولادة في سنة ١٢٠١هـ والنشأة والتعلم والديانة والسفر للحج والهجرة والاستعداد لمحاربة الأعداء والاستشهاد في سنة ١٢٤٦م وهو ابن خمسة وأربعين عمرا. وفيه كلام عن أهم أصحابه وأهم كتبهم ومن بايعوه.

ثم في الفصل الأول المعنون ب"سموه باسمي" بيان موجز لتاريخ دعوته الدينية وأعماله الإصلاحية لتصفية النفوس وتطهير الأخلاق، وأعمال أصحابه الدعاة الدعوية والتجديدية، وفيه كلام عن إسلام بعض الناس، وسمى السيد واحدا ممن أسلموا باسمه أحمد، وإليه يشير عنوان هذا الفصل.

والفصل الثاني هو "توبة نصوح"، يحكي هذا الفصل قصة السيد في لكهنؤ، إذ جاءه جمع كبير من أشْر الناس وأخبثهم وسمعوا خطبه المؤثرة في قلوبهم، فتركوا سيئاتهم وخلعوا لباس ذنوبهم وأنابوا إلى الله، وتابوا إليه توبة نصوحا.

"من الترف إلى الشظف" هذا هو الفصل الثالث من هذا الكتاب، فيه تاريخ "ولاية علي" ابن العالم الكبير الثري الشيخ فتح علي، إذ جاء الشيخ محمد أشرف اللكهنوي مع تلميذه هذا إلى السيد أحمد بن عرفان لامتحان علمه، ولما تبين له علمه العميق وفهمه الواسع بايعه وبايع معه تلميذه، ثم لزم التلميذ السيد، وكان يمتن مهنة ساذجة، وترك العيش الفاخر وعاش عيشة الفقير.

وفي الرابع من هذه الفصول المعنون ب"مجتمع إسلامي متجول" يرسم الندوي ما قام به السيد أحمد بن عرفان من تشجيع الناس على الخروج لأداء الحج لما أفتى بعض العلماء الذين مزجوا علمهم بالعلوم العقلية بسقوط فريضة حج البيت عن الهنديين،

لأنه لا يتوافر لهم شرط استطاعة السبيل إليه، فشجع السيدُ الناسَ على الحج، وخرج مع جماعة كبيرة إليه، ثم تواصل الخروج منها كل عام.

وفي الفصل الخامس المعنون بـ "روح التطوع والخدمة" نقل حادثة حدثت في ضفة النهر بـ "مرزابور"، إذ كان السيد وأصحابه يسرون إلى كلكتة للتوجه منها إلى مكة في سفينة للحج، ووصلوا إلى الشاطئ فكانت سفينة مشحونة واقفة عليه، وكان صاحبها ينتظر الجمالين وهم غائبون، وكانت سفينة الحجاج تنتظر دورها بعد مغادرة هذه السفينة، ولما أُخبروا بهذا الخبر جعلوا يحملون هذه الأعباء الثقيلة على رؤوسهم وأكتافهم، ونقلوها إلى المكان الذي قصده صاحب السفينة بدون مقاضاة أجر ما.

وصور الكاتب في الفصل السادس تحت عنوان "المساواة الإسلامية" ما قام به السيد من الجهود الجبارة لإزالة ما بقي في قلوب بعض مسلمي الهند من آثار الجاهلية مثل التمييز بين الطبقات، والعصبية، واستئلال بعض المهن، وما إلى ذلك من بقايا العصور الحالكة.

و"التائب من الذنب كمن لا ذنب له" هذا هو الفصل السابع الذي يتكلم عن توبة امرأة خاطئة عند السفر.

والفصل الثامن هو "لقد هبت ريح الإيمان والتوبة" يقص تاريخ تجديد إيمان أهل قرية وتوبتهم، لما عبر السيد وأصحابه للحج قبل الوصول إلى "كلكتة"، جاءهم كثير من الناس، فنصحهم ووعظهم وعلمهم الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص وحذرهم من آفات الشرك والبدع، فجددوا إيمانهم وتابوا إلى الله.

والفصل التاسع هو "من النافلة إلى الفريضة" الذي يشتمل على حادثة ملاقات السيد في "عظيم آباد" (بهار) مع جماعة من أهل "تبت" الفقراء الذين لا يجب عليهم الحج،

كانوا ينتظرون مجيئه والذهاب معه للحج بمساعدته المالية، فردهم إلى بلدهم ووكلمهم الدعوة السديدة واستخلفهم في تبليغ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلمهم أن الحج ليس واجبا عليهم، أما الدعوة فهي واجبة، فرجعوا إلى بلدهم، ونشروا دين ربهم، واهتدى بهم عباد كثيرون بعد فهم الإيمان الصحيح.

أما الفصول الأخرى فهي تتناول ما قام به من الدعوات والإصلاحات والأعمال التجديدية، كما تتناول هجرته في سنة ١٢٤١هـ من "رائي بريلي" إلى حدود الهند الشمالية الغربية، ووصوله إلى أفغانستان، وتاريخ بعض الحروب مثل ما وقع في "أكوره"، و"حضرو"، و"شيدو"، ووصوله إلى "بنجاب"، وحروب "زيده"، و"مايار"، و"بيشاور"، وهجرته من هناك إلى "كشمير"، وحرب "بالاكوت" وشهادته بها في سنة ١٢٤٦هـ.

مزايا الكتاب

يتميز هذا الكتاب بعدة أمور منها:

أ) أسلوبه الأدبي القصصي: كتب الندوي هذا الكتاب ككتابات القطع الأدبية القصصية، وأسلوب سائر كتبه في السيرة والترجمة أسلوب علمي تاريخي، عرض فيها الموضوعات عرض الواقع. أما في هذا الكتاب فقد قدم الموضوعات كلها في شكل قصة جذابة، حتى لا يمل القارئ ولا يلحق به الضجر، ولكنه حافظ على مراعاة المجال العلمي والتاريخي حتى لا يفقد قيمته التاريخية عند تقديم هذه المأدبة في صحن قصصي، وقال عنه في مقدمة هذا الكتاب: "وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) لأن أختار روايات من هذا التاريخ العجيب، فأصوغها في العربية في أسلوب أدبي، قصصي شائق، لا يشوبه شيء من المبالغة فضلا عن الكذب، تدل على مكانة

قائد هذه الحركة العبقري، وما أوتي من مواهب عظيمة، وعناصر قوية، وعلى مدى نجاحه في تربية النفوس وتزكيتها، وعلى إخلاصه وتجرده للغاية التي كان يسعى لها، وتفانيه في دعوته، وتدل على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد، وخلقه، ومبلغ تأثير الدعوة الإسلامية، والتربية الإيمانية في نفوس تلاميذها"^(١).

ب) وضع العناوين الجذابة: إن للعناوين تأثيرا غير قصير في جلب نفوس القراء إلى أية قطعة أدبية، واهتم الندوي بوضع العناوين الجميلة الجذابة للجلابة لكل قصة من قصص هذا الكتاب، وهذه العناوين دالة على مضمون المواد تحتها أيضا، ويتضح هذا الجمال فيما ذكر أنفا من العناوين التسعة، ومن جملة تلك العناوين الجذابة فوق هذه التسعة: "وداعا أيها الوطن العزيز"، و"لماذا سحبت اسمي؟"، و"بأي ذنب قتلت"، و"مشهد بالكوت" وغيرها.

ج) محاولة نشر العقيدة الصحيحة: يحاول الندوي خلال عرض تاريخ حياة الشهيد زرع بذور العقيدة الصحيحة وغرس الإيمان السديد في قلوب القراء، وفي هذا الصدد يروي كثيرا ما حاوله الشهيد من إزاحة المعتقدات الفاسدة والخرافات المضلة، ويدعو الشيخ عبر سرد هذه القصص إلى التمسك بالكتاب والسنة.

د) عرض أحوال مسلمي الهند: حاول الندوي خلال هذا الكتاب عرض أحوال مسلمي الهند في القرن الثالث عشر الهجري، وتصوير ما كان في أغلبهم من بقايا الجاهلية مثل التمييز بالطبقات، والعصبية، واستئلال الناس بمهنتهم وغيرها.

هـ) تحقيق أمنياته الكبرى: تحققت بإتمام عملية تأليف هذا الكتاب أمنية قديمة كبرى كانت في قلب الندوي من تصوير حياة الإمام الشهيد، وقد ألف في عمره السادس عشر مقالا ونُشر في مجلة المنار الصادرة من مصر، وقال فيها مؤكدا ثقته به: "وأرجو أن

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب إذا هبت ريح الإيمان، دار القلم بالكوت، ١٩٧٤م، ص: ٩

يكون السيد الإمام أحمد بن عرفان مجدد القرن الماضي، وأنا على ثقة وبصيرة إن شاء الله، فمنه كان عصر النهضة الإسلامية، وإليه يرجع فضل النشأة الحاضرة"^(١).

(و) محاكاة أسلوب "الأغاني": حاكي الندوي في تأليف هذا الكتاب كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، وقال الندوي في المقدمة: "وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الأسلوب [أسلوب الأغاني] في هذه القصص، التي اخترتها على عجل، من تاريخ الإصلاح والتجديد في الهند، فإن لم يتحقق لي نجاح الأصبهاني وغيره -وأنى يدرك الضالع شأو الضليع- فلا تفوتني فائدة التقليد لأسلوب ساحر، ولا تفوتني نية القاصد، وأجر العامل"^(٢).

(ز) الاعتماد على كتاب والده: اعتمد الندوي لكتابة الكلمات التقديمية حول السيد الشهيد فيه على كتاب والده "نزهة الخواطر" لتسليط ضوء ساطع على سيرته، وقال عنه في المقدمة: "ورأيت من المناسب أن أضم إلى هذه الشذرات التاريخية تعريفا موجزا بإمام هذه الجماعة، وقائد الحركة، حتى يكون القارئ على بينة من أمره، وإمام بسيرته وحياته، ووقع اختياري على ما جاء في المجلد السابع لنزهة الخواطر، لوالدنا العلامة السيد عبد الحي الحسيني لاختصاره واحتوائه على المعلومات الأساسية، وجعلته مقدمة لهذا الكتاب"^(٣).

(ح) وضع التعليقات: علق الندوي على بعض الكلمات الغريبة الواردة في هذا الكتاب لتفهيم الطلاب وتيسير القراءة لهم، وقد قال عنه: "وقد بدا للمؤلف أن يتناول بعض الكلمات الغريبة أو التي يلتوي فهمها على الطالب المتوسط في مدارسنا بالشرح

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقالة "السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد مجدد القرن الثالث عشر"، جمعها الأستاذ سيد عبد الماجد الغوري في كتاب "من أعلام المسلمين ومشاهيرهم"، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص: ٩٩

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب إذا هبت ربح الإيمان، دار القلم بالكويت، ١٩٧٤م، ص: ١٠

^٣ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب إذا هبت ربح الإيمان، دار القلم بالكويت، ١٩٧٤م، ص: ١٢

والإيضاح، فعلق على بعض الكلمات عسى أن ينتفع بالكتاب في الأوساط الدراسية
وتربية الناشئة الإسلامية"^(١).

ط) شهرة الكتاب: حاز هذا التأليف قبولا حسنا عند محبي الأدب العربي والإسلامي في
البلاد العربية وفي القارة الهندية.

^١ نفس المكان

الفصل الخامس

الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي

ودعوته إلى الله

يعدّ هذا الكتاب من جملة أشهر كتب الندوي في سير الأعلام وتراجمهم، وهو يتناول أحداث حياة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (١٨٨٥م - ١٩٤٤م) منشئ "جماعة التبليغ والدعوة" وملاحم دعواته وأعمال جماعته، يتكون هذا الكتاب من ٢٤٣ صفحة، ومن سبعة أبواب. والذي قدمه هو الشيخ محمد منظور النعماني. وفي الواقع هذا هو الكتاب الأول في سيرة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، كما قال سيد عبد الماجد الغوري في هذا الصدد: "يتحدث هذا الكتاب عن حياة الداعية الكبير، والمجدد العظيم، الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وعن منهج دعوته إلى الله، وهو أول كتاب ألف فيما نعلم- في هذا الموضوع سواء أكان بالأردية أو بالعربية..."^(١)

لما كان الشيخ الكاندهلوي في أيامه الأخيرة مريضاً مرض وفاته جعل الشيخ محمد منظور النعماني يتفكر في حاجة تأليف كتاب في ترجمة الشيخ ومناهج دعوته وخصوصيات جماعته، فزار الندوي وقتئذ مركز الشيخ وكان أيضاً يتفكر في تأليفه، بل بدأ جمع المعلومات اللازمة لإنجاز هذه المهمة، وقال النعماني عن هذا في مقدمة الكتاب: "لقد شعرت من خلال تلك التجارب والمصالح الدينية المتعددة بضرورة التأليف في سيرة الشيخ وتاريخ دعوته وحركته أثناء مرضه الشديد الذي لم يكن يرجى البرء منه، وكان فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي نازلاً بالمركز في آخر أيام مرض الشيخ، فلما أبديت له مكنون ضميري ألفيته يحمل هذا الهم ويفكر هذا

^١ الغوري، سيد عبد الماجد، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ص: ٧٤٥

التفكير، بل قد بدأ يسجل بعض المواد المهمة، ثم ما لبث الشيخ أن ارتحل إلى رحمة الله الواسعة، وقوي هذا الاقتراح، وأصبح أمراً مبرماً^(١).

استحقاق الندوي لهذا التأليف

إن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي حقيق بهذا التأليف، لأنه كانت بين أسرتهما علاقة دينية متينة، وكان بها في منزل الثقة ودرجة الأمانة، ومع ذلك كان الندوي يقوم مقام مترجم له في عامة الناس وخاصتهم، وكان مبلغ بعض أفكاره ونظرياته، علاوة على ذلك كان قد جمع رسائل الكاندهلوي الكثيرة في كتاب مستقل، وقال النعماني عن هذا في مقدمة الكتاب: "والمؤلف -حفظه الله- كان من أجدر الناس وأقدرهم على تأليف كتاب في حياة الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس -رحمه الله- فقد كان موضع ثقته وعطفه الخاص، لوجود روابط دينية ودعوية بين أسرة الشيخ وأسرة الشيخ أبي الحسن، وكان يقوم في كثير من الأحيان بدور المترجم والمعبر عن فكرته ودعوته بالخطابة في الجماهير، والحديث إلى العلماء ورجال التعليم الديني، والمثقفين بالثقافة العصرية، وقد جمع رسائله في كتاب مفرد واطلع الشيخ على ما كتبه الشيخ أبو الحسن في التعريف بمبادئه وأسس دعوته فارتضاه، ولذلك جاء هذا الكتاب في مكانه وأوانه وصدر عن قلم خبير، وكاتب بصير"^(٢).

جمع المعلومات لتأليف هذا الكتاب

جمع الندوي المعلومات لتأليف هذا الكتاب من عدة طرق، منها جمعها من أقرباء الشيخ الكاندهلوي ورفاقه وأصحابه، كان يطرح أمامهم أسئلة هامة متعلقة

^١ النعماني، محمد منظور، مقدمة كتاب الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله، لأبي الحسن علي الندوي، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص: ٦.

^٢ نفس المرجع، ص: ٨، ٩.

بالموضوع، ويطلب منهم توضيحات الأصول وتفصيل الفروع، ومنها جمع رسائل الشيخ الكثيرة من مركز الدعوة ب"نظام الدين- دلهي" كتبها إلى رفاقه وأنصار حركته وأعضاء جماعته، وكان من جملة تلك الرسائل ما يبين خصوصيات دعوة الشيخ ومنهجها وأصولها، وكان هذا النوع أفضل شيء وأثمنه لدى الندوي عند هذه الدراسة، وكانت لديه رسائل هامة أخرى أرسلها الشيخ الكاندهلوي إليه نفسه، يوضح فيها أصول جماعة التبليغ والدعوة.

وكذلك أعانه كثير من أصدقائه على هذه المهمة بإرسال الرسائل التي أرسلها الشيخ إليهم، منهم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حيث نصره نصرًا مؤزرًا بإرسال ما جمعه من المعلومات الزائدة حول الشيخ، وقال النعماني عن هذا في المقدمة: "وأنت أكبر مساعدة وأنفعها في هذا الصدد من العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي -رحمه الله- فقد جمع المواد التاريخية المتعلقة بحياته بجد واهتمام وتحقيق، حتى صرفت أحيانا الأيام والليالي في البحث عن سنة أو تاريخ لحادث والتحقيق فيه، واستخراج الأشياء والحلقات المفقودة في مذكراته، وأوراقه وكتاباته القديمة، وهكذا استكمل هذا الكتاب"⁽¹⁾.

بعد ما فرغ الندوي من تأليف الكتاب عُرض على رفاق الشيخ وأنصار حركته للتوثيق والتصحيح والتهذيب والتفتيش، وطبع أخيرا بعد أن كملت هذه العمليات المهمة.

محتوى الكتاب

كما يتضح من اسم هذا الكتاب فهو تصوير لحياة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، ورسم أعماله الدعوية وعرض نشاطات حركته "جماعة الدعوة والتبليغ". هذا كتاب في السيرة والترجمة شكلا وضمنا، يتركب من سبعة أبواب قيمة رئيسية.

¹ نفس المرجع، ص: ٨

الباب الأول هو "مولده ونشأته، وأسرته وبيئته، ودراسته وتربيته". هذا الباب كما يدل عليه عنوانه يحتوي على معلومات لازمة متعلقة بالمرحلة الأولى من حياته، مثل ولادته في سنة ١٣٠٣هـ، وأسرته ووالده الشيخ محمد إسماعيل ووالدته السيدة صفية، وتعلمه في الكُتّاب وميوله في تلك السن المبتكرة إلى الأمور الدينية، وإقامته بـ"كنكوه" وبيعته للشيخ الكنكوهي وتربيته، ومعاناته من صداع في الرأس حتى لا يستطيع أن يحني رأسه خلال تلك الفترة التعلّمية. وفيه كلام عن وفاة الشيخ الكنكوهي في سنة ١٣٢٣هـ، وانتقاله إلى "ديوبند" ومواصلة دراسته هناك على الشيخ محمود حسن، واتصاله بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري ومبايعته. ويتحدث عن اهتمامه بالعبادات ومحافظته على فرائضها وسننها، وما كان له من المنزل بين العلماء والأساتذة، وأعماله التدريسية في مدرسة "مظاهر علوم" بسهارنفور، وعن زواجه من بنت رؤوف الحسن، وحجته الأولى، ووفاة أخيه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي.

وقال الندوي عن تعلمه في أيام طفولته: "تعلم الشيخ محمد إلياس في الكُتّاب، وقرأ القرآن الكريم، كعادة الأطفال في أسرته، ثم حفظ القرآن في صباه، وكان تحفيظ القرآن عرفا متبعاً في الأسرة، حتى ما كان يوجد في الصلاة بالجماعة في صف ونصف صف في المسجد المجاور غير حفاظ القرآن الكريم إلا المؤذن وحده.

"كانت توجد فيه منذ الصبا مسحة من روح وفاء الصحابة وولائهم، وقلق واضطراب، واحتراق للدين والدعوة"^(١).

والباب الثاني هو "الإقامة في بستي نظام الدين في دلهي، والعمل التدريسي، وإدارة المدرسة"، يعالج الباب ما حدث من وفاة أخيه الشيخ محمد في سنة ١٣٣٦هـ، وانتقاله

^١ الندوي، أبو الحسن علي، الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص:

إلى "نظام الدين" حسب اقتراحات وآراء الإخوان، واشتداد مرض "ذات الجنب" به عند الانتقال، وعباداته وولوعه بالتدريس وتربية التلاميذ.

قال الندوي عن أسلوبه في التدريس: "كان له رأي خاص، وأسلوب شخصي في التعليم والتربية، يركز على المطالعة والتحضير، ويقول لا بد أن ينظر الطلاب في الدرس قبل القراءة على الأستاذ نظرة عميقة حتى لا تبقى حاجة إلى وضع الأصبع والتصحيح، أو الإرشاد والتوجيه، ويبدل اهتماما كبيرا بإتقان اللغة العربية وأدائها وتنفيذ قواعدها ومبادئها من الصرف والنحو عمليا، وما كان يتقيد بالمقررات الدراسية في عامة المدارس في الهند، فقد يدرّس كتابا لا تتداولها مدارس أخرى، ويختار أساليب جديدة مفيدة، تقرب الفهم والإساعة إلى الطلاب، وتيسر عليهم مهمة الحفظ والاستظهار"^(١).

والباب الثالث هو "بداية عملية الإصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ في منطقة ميوات"، فيه بيان مفصل عن أمة "ميو" وأحوالها الدينية وظروفها الخلقية وأوضاعها العقدية ومزاياها القومية، وفيه كلام عن اتصال الشيخ بهذه الأمة. وكان يرى أن التعليم الديني هو الطريق الوحيد والعلاج الناجع لإصلاح أهلها. ويتحدث الندوي فيه عما قام به الشيخ إلياس الكاندهلوي من تأسيس مدارس دينية ومعاهد إسلامية وكتاتيب تربوية لإنجاز مهمته التعليمية والتربوية، وكان يبدأ هذه الأعمال التأسيسية كلها بأمواله نفسه، وكان يتحمل تكاليفها، وينفق ما كان يملكه من المال الطائل الموروث أو الموهوب.

وقال الندوي عن نظرية الشيخ في أن التعليم الديني هو العلاج الوحيد لترقية قوم "ميوات": "كان الشيخ محمد إلياس يرى أن الطريق الوحيد لإصلاح "ميوات" هو بث التعليم الديني في المجتمع الميواتي، حتى يطلع الميواتيون على أحكام الإسلام وتعاليم

^١ نفس المرجع، ص: ٣٤

القرآن، ويزول الجهل المخيم ويتبَّج الصبح الصادق، وينسحب الليل الغاسق، الذي أعمى عقولهم وأبصارهم.

"وسلك الشيخ محمد إسماعيل من قبل نفس الطريق، فقد أدخله كثيرا من أبناء الميواتيين في مدرسته ب"نظام الدين"، وفقَّههم في الدين، وأرسلهم إلى "ميوات" دعاة هداة يُعلِّمون الآخرين ما تعلموا، وإلهم يرجع الفضل فيما أشرق من نور الإسلام في هذه المنطقة، وظهرت من بوادر الخير والميل إلى الدين هنا وهناك"^(١).

الباب الرابع هو "الحركة الشاملة في "ميوات" لإثارة الإيمان وإشعال جمرة الحب والحنان"، يتحدث الندوي فيه عن يأس الشيخ الكاندهلوي من غياب نجاح تام بالمعاهد المؤسسة، لأن الدارسين هناك هم أطفال صغار لم يبلغوا الحنث، وتفكر في علاج آخر، ويتحدث فيه عن رحلة الحجة الثانية والثالثة والرابعة الأخيرة التي قام بها الشيخ، كما يتحدث عن نشاطاته العلمية بالجولات الدعوية وإدارة الجماعة الدعوية للمراكز الإسلامية، وعن توجه جماعة الدعوة والتبليغ إلى "كاندهله" و"رائيفور"، وعن وأعماله الدعوية المهمة في "ميوات".

ويتكلم هذا الباب عن دعوة الشيخ في الحرمين الشريفين خلال حجته الرابعة والأخيرة. وقال عن بداية جولات الشيخ: "وبعد عودته من الحج، بدأ يقوم بجولات دعوية، ودعا الآخرين أيضا إلى القيام بتلك الجولات، ودعوة الجماهير إلى تعليمات الإسلام الأولية، وفرائضه كالتوحيد، والصلاة، وكانت مثل هذه الدعوة غير معهودة لدى الناس، وكان لهج عامة الناس بدعوة الدين مما يستغرب، ولكن بعض الناس قاموا بهذا العمل على خجل وحياء"^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ٤٥، ٤٦

^٢ نفس المرجع، ص: ٥٤، ٥٥

والباب الخامس هو "رسوخ جذور العمل الدعوي في "ميوات"، والقيام بالدعوة خارج ميوات"، وفيه يتحدث الندوي عما قام به الشيخ الكاندهلوي من الأعمال الدعوية بعد ما عاد إلى الهند عقب الحج، وعن انطباعاته النفسية، والأسباب التي دفعته إلى هذا العمل الدعوي، ويتحدث عن مكث أهل "ميوات" بدلهي، وعن إقباله على العلماء بهذا القصد، وعن أسس النشاطات الدعوية في المراكز الإسلامية، وشروطها التي تجب المحافظة عليها، وعن قلة قبول العلماء لأعماله الدعوية وأسبابها وما عاناه من شدة الحزن وغاية الألم بهذا السبب.

ويصور المؤلف فيه خروج أنصار الجماعة التبليغية إلى "سهارنפור" و"مظفر نكر" وجولاتهم الدعوية فيهما. ثم يتكلم في هذا الباب المطول عن إجراءات الشيخ لتنظيم أعمال الجماعة في دلهي، وتأثيرها في نفوس تجارها، وقبول هذه الدعوة من قبل العديد من أغنياءها. وذكر أن الشيخ كان لا يقبل منهما أموالهم، وكان يقول لهم: "إننا لا نحتاج إلى أموالكم، وإنما نحتاج إلى أنفسكم أنتم". وذكر أن الكاندهلوي كان لا يقبل إلا معونة من يسهم في العمل إسهامات عملية.

ثم يتناول هذا الباب ما أقامه الشيخ في بلدة "نوح" من الجلسة الدعوية العظيمة، كما يتناول خروج الجماعة إلى بعض ولايات أخرى. وقال الندوي عن نظرية الشيخ الفلسفية عن الدين والدنيا: "وكان يشبه الدين بلعاب الفم الذي بدون كمية قليلة منه لا يجد الإنسان لذة في الطعام والشراب، ولا يستطيع أن يسيغها، وتلك الكمية من اللعاب موجودة عند كل إنسان، وكذلك هذا القدر الضروري من الدنيا موجود لدى كل مسلم، وإنما الحاجة إلى أن يخرجها في أشغاله، وعلائقه الدنيوية حتى تطيب دنياه، ويستقيم دينه"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ٨٢

والباب السادس هو "مرض الوفاة، والأيام الأخيرة من الحياة"، كما يشير إليه هذا الاسم هذا الباب موضع عرض مرض الشيخ الأخير، ولقائه هاذم اللذات، وأحداث أيامه الأخيرة من حياته. ففيه يتحدث عن ضعف جسمه منذ صغره، أما جهوده المتواصلة ومحاولاته المستمرة فأضعفته وأعيته، وقد كان لازمه مرض أمعائه منذ سن مبكرة، وأصابه الإسهال في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣م الذي بقي إلى أن توفي في السنة التالية. وفيه كلام عن وفود كثير من الجماعات لعيادته، كما فيه نقاش حول علاقته بالعلماء واتصاله بأصحاب العلم والثقافة، وعنايته بفرق المسلمين وزعمائها.

ثم يتكلم الندوي عن اشتداد سقمه وكثرة عيادة العلماء والأحباء من مختلف الأنحاء. ويتحدث عن أوضاع "نظام الدين" الدينية، والجلسات المنعقدة بها إطناباً، وعن خروج بعض الجماعات التبليغية إلى شتى الأماكن، وولوع الشيخ بالأمر الدعوية وإرسال جماعته للتبليغ رغم وجود مرضه المؤلم وتعبه الشديد. وكذلك يتحدث الندوي في هذا الباب عما كان الشيخ يهتم به من الأمور في أيامه كلها بشكل عام وفي أيامه الأخيرة على وجه الخصوص، مثل حث الناس على ذكر الله، وتعلم الدين، والتراحم والتعاطف مع المسلمين بغض النظر عن طبقاتهم الاعتقادية والخلقية والعلمية، والاهتمام بتعليم الناس كيفية تأدية الزكاة والصدقة في رضا الرحمن حسب تعليمات الدين، والعناية بالبريد حيث كان يطلب ممن حوله قراءته جهراً إذا كان متعلقاً بالدعوة والتبليغ.

وفي آخر الباب تصوير لحظات حياته الأخيرة، وفراقه هذه الدنيا القصيرة، وتجهيز جنازته الموقرة. ويختتم المؤلف هذا الباب بذكر أخلافه وورثته. وقال عن لحظاته الأخيرة: "وفي الساعة الثانية عشرة غشيتة إغفاءة من الإغماء والانزعاج، فدعي الطبيب هاتفياً، فحضر، وأعطاه حبات، وظل لا يردد طول الليلة: الله أكبر، الله أكبر،

وفي السحر طلب ابنه الشيخ محمد يوسف، والشيخ إكرام الحسن، وقال للشيخ يوسف: تعال نلتقي، فلا بقاء بعد هذه الليلة، فإني مرتحل. وانتقل إلى رحمة الله قبل أذان الفجر، وانتقل المسافر المكدود -المجهود، الذي ربما لم يكتحل عبر حياته بنوم هادئ - إلى نوم عميق، لأنه قد وصل إلى منزله ومستقره^(١).

والباب السابع من هذا الكتاب هو "مزاياه الشخصية، ومنابع دعوته ونشاطاته"، ففي هذا الباب الأخير كما يتبين من عنوانه، يعرض المؤلف ملامح أخلاق الشيخ وتجلياتها، وخصوصيات شخصيته وسماتها، وذكر أن الشيخ الكاندهلوي كان متصفا بصفات مثل الإيمان، والاحتساب، والدلالة على الخير، والمحافظة على حقوق الناس ورعايتها، والإحسان، والصبر على المشقات في طريق تبليغ الرسالة الدينية، والحلم، والأناة، والتواضع، وعلو الهمة، والحماسة الإسلامية، والغيرة الدينية، والتمسك بسنة الرسول ﷺ، والعفو، والسماحة، والاستقامة، والدعاء، والتوبة إلى الرحمن.

وضم المؤلف في هذا الباب بعض رسائل الشيخ المرسله إلى شخصيات شتى تحت عنوان "الشيخ محمد إلياس في ضوء رسائله"، وأورد هذه الرسائل في قصد إثبات صفاته المتميزة.

وقال المؤلف عن حلم الشيخ وتواضعه: "وكان غاية في الحلم والأناة إلى جانب غاية إرهاف الحس، ورقة الشعور، وكم كان يشق عليه أن يسمع أو يرى شيئا لا يمس الهدف مسّا، ولا يتصل بالغرض اتصالا، ولكنه يتحمل كل ذلك ليله ونهاره نظرا منه إلى طبيعة وخطورة العمل، الذي حمل عبأه، وإدراكا منه أن ذلك العمل إلى المخالطة الشاملة والاحتكاك بالناس أحوج منه إلى شيء آخر، وظل يستخدم قوة احتمالته،

^١ نفس المرجع، ص: ١٦١، ١٦٢.

طيلة العمر، حتى في المرحلة الأخيرة من حياته، أيام كاد يترك عليه الضعف، والتفاني في الغاية، هذه القوة: قوى الصبر والاحتمال"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ٢١٨

الفصل السادس

الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي

ومآثره العلمية

ومن الكتب الشهيرة لأبي الحسن علي الحسيني الندوي في سير الأعلام كتابه "الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، يعرض فيه أحداث حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (١٨٩٨م - ١٩٨٢م)، صاحب كتاب "أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك"، ونشاطاته العلمية، وأعماله الدعوية المتعلقة بجماعة التبليغ والدعوة، وتأليفه الفريدة. وفي الواقع هذا الكتاب ألفه باللغة الأردية، ثم قام بنقله إلى اللغة العربية السيد جعفر مسعود الحسيني الندوي.

قصة تأليف هذا الكتاب

ترجع قصة تأليف هذا الكتاب إلى حياة السيد محمد الثاني الحسيني (١٤٠٢هـ) - هو ابن أخت أبي الحسن علي الندوي - الذي ألف كتاباً في سير الشيخ محمد يوسف، والشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ محمد هارون، وكانت هذه التأليف امثالاً لأوامر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ونال السيد محمد الثاني الحسيني ثقة الكاندهلوي بهذه الجهود الرائعة والأعمال المتقنة، فأبدى لـ "الثاني" ما في قلبه من الرغبة في أن يؤلف كتاباً في سيرته وتولى هذه المهمة، ولكنه توفي قبيل وفاة الكاندهلوي.

ولما تولى السيد محمد الثاني من قبل تأليف كتاب "الشيخ محمد يوسف حياته ومنهجه في الدعوة" امثالاً لأمر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كان عليه أن يصور في ذلك الكتاب حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي للصلة الشديدة والعلاقة المتينة

بينهما، فأبدى الكاتب له ما وقع في الترددات المتعبة والصراعات النفسية بتأليف سيرة الشخصية الحية الناشطة في ميدان الدعوة، واقترح عليه مع الإكرام والاحترام أن يُؤكّل هذه المهمة إلى الشيخ أبي الحسن علي الندوي، فتولاه وكتب الجزء الذي يتناول حياة الشيخ محمد الكاندهلوي من هذا الكتاب. فكتاب "الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية" شكل موسع لذلك الجزء وتأليف مكمل له. وقال عنه: "ولذلك فإن هذا الكتاب الذي بين أيديكم تكملة لذلك الجزء وتأليف مكمل له. وقال على رغبته واشتمل عليه كتابه عن سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ويرى الفضل فيه"^(١). وقال أيضا: "والواقع أن هذا العمل الجليل لو لم يتحقق في ذلك الوقت بفضل من الله لكان من العسير لي فيما بعد أن أقوم به بهذه الدقة والثقة والسهولة، وأنجزه بهذه الصورة، وإذا تم ذلك العمل فلا يتم بتلك الدقة التي تم بها من قبل ولا يستحق من ينظر إليه بعين الاعتبار والثقة كما ينظر إليه الآن"^(٢).

قصة ترجمته إلى العربية

الشيخ جعفر مسعود الحسني الندوي هو الذي نقل هذا الكتاب- كما أشير إليه أنفا- من اللغة الأردية إلى اللغة العربية، وخطرت فكرة الكتابة في سيرة الشيخ الكاندهلوي في قلب الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي عقب وفاة الشيخ، ولكن لم تأذن له شواغله الشاغلة بها إلا بكتابة مقال في مجلة "الفرقان" التي تصدر من لكهنؤ بعنوان "الإمام محمد زكريا المحدث"، ولكنَّ خاطره لم يطمئن به لعمق علاقته به التي يحافظ عليها منذ زمن طلبه.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص:

١٥

^٢ نفس المرجع، ص: ١٦

ثم كتب ابنه الدكتور ولي الدين الندوي مقالة علمية أكاديمية في مجلة "الأحمدية" الصادرة من دبي حسب توجيه من أبيه. وألح عليه شخصيات كثيرة بتأليف مستقل في سيرة الشيخ، وأخيرا اختار كتاب أبي الحسن علي الندوي المؤلف في اللغة الأردية في غاية الجمال والدقة لنقله إلى العربية، وكلف هذه المهمة السيد جعفر مسعود الحسني تحقيقا لأمنيته، وإنجازا لرغبته، وتجاوبا مع طلب الطلاب والباحثين، وكان هذا النقل أيضا في غاية الدقة والروعة، وكان الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي يعطيه التوجيهات والإرشادات وكان الناقل يقبلها بكل سرور وحفاوة، ومما يدل على اهتمام تقي الدين الندوي بدقته قراءته ثلاث مرات، وطلبه من أبي السيد جعفر مسعود الندوي الشيخ واضح رشيد الندوي قراءته، ففعله وأعطى ابنه المترجم بعض التوجيهات من جانب التنقيح والتهذيب.

وحذف المترجم عند الترجمة بعض الأبيات الأردية والفارسية وبعض الاستعمالات الهندية الخاصة بظروف الهند، ويصعب فهمها للقراء غير الهنديين، وقال عنه: "كان من نيتي حين أمرني أستاذنا الفاضل بنقل هذا الكتاب إلى العربية أن أنقله نقلا حرفيا، لكنني اضطررت إلى العدول عن الترجمة الحرفية وحذف بعض الأبيات الأردية والفارسية، التي كان يزدان بها الكتاب بالأردية، كذلك بعض التعبيرات الخاصة بالبيئة الهندية ليجيء الكتاب مفهوما لدى إخواننا العرب، ولا يثقل عليهم فهمه لاختلاف أسلوب اللغة الأردية عن أسلوب اللغة العربية، وتباين الذوق الهندي عن الذوق العربي"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ١٠.

ملاح الكتاب

يتميز هذا الكتاب بملاح، منها:

أ) أظهر المؤلف فيه جوانب خاصة، فيما دروس ورسالات لطلاب الشريعة كسائر كتب العلامة الندوي.

ب) اعتمد المؤلف لتأليفه على السيرة الذاتية للكاندهلوي المشتملة على أجزاء سبعة، وبعض كتبه الأردنية، وما دونه من الحوادث خلال أسفاره إلى خارج الهند.

ج) جمع كثيرا من المعلومات لهذا التأليف من الرسائل كتبها له أصحابه إلى محبيه وأتباعه وأنصاره وأنصار حركته من المدينة المنورة في أيامه الأخيرة.

د) أخذ المعلومات المتعلقة بأسرة الشيخ من كتاب الشيخ محمد الثاني المذكور آنفا، ومن كتاب الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، ومن المقال المنشور في مجلة "الفرقان" بقلم الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي.

هـ) حصل على معلومات زائدة عن أسرته من الأستاذ محمد الشاهد المظاهري.

و) ساعده على إكمال هذا التأليف ما أرسله الكاندهلوي إليه من الرسائل الكثيرة إذ كانت تربطهما علاقة وثيقة قديمة تمتد إلى أكثر من أربعين سنة.

ز) لم يزين هذا الكتاب بالتجملات القصصية المدهشة، ولكن عرض فيه حقيقة حياته عرضا صادقا.

ح) حافظ على مراعاة بث أخلاقه الفاضلة وشخصياته المفضلة عبر سرد أحداث حياة الشيخ، وقال عن هذا "حاولت في هذا الكتاب أن يطلع القراء من هذه الطبقة المثقفة على ما يمتاز به الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من جامعية ومنزلة علمية

رفيعة، ومكانة عالية مرموقة في مجال البحث والدراسة وشغفه بالعلم وحرقته على أحوال المسلمين، وحرصه على نشر العقائد الصحيحة، والعلوم الدينية، واتباعه للشريعة، وهيامه بالدعوة إلى العمل بالسنة وبذل الجهد لها، وتضرعه إلى الله وابتهاله إليه، وعلاقته الوثيقة بالمدارس الإسلامية، وكيفية تعامله مع الآخرين، واحترامه للعلماء والمعاصرين له، وزهده وورعه، وثقته بالله، واهتمامه بأداء ما يجب عليه من الحقوق، لتثور في نفس القراء عواطف تحملهم على العمل بالشريعة، وتدفعهم إلى الاقتفاء بأثر شخصية كهذه الشخصية، وينشأ فيهم الشعور بالضعف، والتقصير في القيام بالأعمال الصالحة، وتتوق نفوسهم إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة والاتصاف بعلو الهمة وسعة القلب، ودقة النظر، وتشتعل فيهم الرغبة في اكتناز قدر كبير من الأعمال الصالحة النافعة في الدنيا والآخرة"^(١).

ط) ضم الشيخ جعفر مسعود الندوي حسب اقتراح الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي في آخر الكتاب مقالا مفصلا لابنه حول حياة الكاندهلوي بعنوان "المحدث الشيخ محمد زكريا وآثاره في علم الحديث".

نظرة إجمالية على هذا الكتاب

تم تأليف هذا الكتاب في اللغة الأردية سنة ١٩٨٤م، ولكن تمت ترجمته إلى العربية سنة ٢٠١٠م ويتكون من اثني عشر بابا قيما. الباب الأول هو "أسرته وجده وأبناؤه"، ويتضمن معلومات أساسية متعلقة بأسرة الشيخ الكاندهلوي ومنازلها وشهرتها وبعض الشخصيات المشهورة فيها.

^١ نفس المرجع، ص: ١٨

والباب الثاني هو "من مولده إلى استكمال دراسته"، يتحدث هذا الباب عن مولده في "كاندهله" في شهر رمضان سنة ١٣١٥هـ، وعن بعض أحداثه في طفولته وبداية دراسته في الكتاب، وتعلمه اللغة العربية في "سهارنفور"، وتفرغه للدراسة العميقة في العلوم اللغوية والدينية ودراسة الأحاديث النبوية. وفيه كلام عن صبره وتحمله على وفاة أبيه سنة ١٣٣٤هـ، ووما ساعد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري على تأليف كتابه "بذل المجهود في حل سنن أبي داود".

والباب الثالث هو "اشتغاله بالتدريس والتأليف، وتعرضه للمحن، وعقد قرانه، ورحلاته للحج، والاستئذان والمغادرة"، يتكلم هذا الباب عن تعيينه مدرسا في مدرسة "مظاهر العلوم"، ومساعدته المتواصلة على تأليف "بذل المجهود"، وقال الندوي عن هذه المساعدة: "كان منهجه في التأليف أن الشيخ خليل أحمد يشير عليه بمراجعة بعض كتب الحديث وشروحه فيطالع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تلك الكتب، ويقتني منها المواد المتعلقة به ثم يعرضها على الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ويختار منها الشيخ خليل أحمد ما يشاء، ويقوم بترتيبه ثم يملي على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ويكتب الشيخ ما يملى عليه، ويزداد بذلك قريبا منه يوما فيوما"^(١). وفيه حديث مطول عن زواجه الأول من بنت الشيخ رؤوف الحسن، وزواجه الثاني من بنت عمه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي سنة ١٣٥٦هـ بعد وفاة الأولى بإلحاح مستمر عليه من طرف عمه في هذا الزواج. وفيه كلام مفصل عن حجته الأولى في سنة ١٣٣٨هـ، والثانية في سنة ١٣٤٤هـ.

^١ نفس المرجع، ص: ٥٣

والباب الرابع هو "إقامته الدائمة بمدينة "سهارنفور" وانقطاعه إلى التدريس والتأليف، واشتغاله بالإرشاد والتوجيه، ورحلاته للحج والعمرة، وأحداث مهمة أخرى وقعت في حياته".

والباب الخامس هو "اهتمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بشهر رمضان، والأعمال التي يقوم بها عادة في هذا الشهر، والاجتماعات التي تعقد فيه"، يصور الندوي في هذا الباب كما يدل عليه هذا العنوان كيفية اهتمام العلماء الإسلاميين بهذا الشهر المبارك عامة، وأعمال الشيخ الكاندهلوي فيه خاصة.

والباب السادس هو "الإقامة الدائمة بالمدينة المنورة، والرحلات العديدة إلى الهند، وشهر رمضان المبارك، ورحلته الأخيرة والإقامة الدائمة"، يصور هذا الباب ما كان للشيخ من التصميم والخطوات والجدول للأعمال في المدينة المنورة خاصة، والحجاز عامة، كمقيم دائم بها، ويصور ما قام من الرحلات إلى الهند وباكستان حسب الترتيب الزمني.

والباب السابع هو "رحلاته الدعوية والتربوية لبريطانيا وجنوب إفريقية"، يناقش هذا الباب سفره الأول إلى إنجلترا سنة ١٩٧٩ م ملبياً دعوة الشيخ يوسف متالا، وتأسيس مدرسة إسلامية عربية باسم "دار العلوم" في مدينة "هولكب بري"، وسائر أعماله الدعوية هناك، ورحلته إلى جنوب أفريقيا، ونشاطاته الدعوية وانطباعات الرحلة وأحداثها. وفيه كلام عن سفره الثاني إلى بريطانيا سنة ١٩٨١ م، وقال الندوي عن هذه الرحلة: "في (٢٥ أغسطس ١٩٨١ م، الموافق ٢٤ شوال ١٤٠٢ هـ) غادر الشيخ "لوساكا" إلى "بريطانيا"، وكانت هذه الرحلة هي الرحلة الثانية لبريطانيا، وكانت تسير مئة وخمسون سيارة خلف السيارة التي كانت تقل الشيخ رحمه الله إلى المطار، وتتقدمها سيارات رجال الشرطة وأجهزة الأمن، وهبطت الطائرة على مطار "لندن" الدولي

بسلامة معرجة على مطار "تونس"، حيث أدى المرافقون له في هذه الرحلة الصلاة مع الجماعة، وكان من المقرر أن يتوجه الشيخ من هنا إلى "مانجستير" بالطائرة، وكان قد استأجر الإخوة طائرة تضم خمسين مقعدا للقيام بهذه الرحلة مقابل مبلغ (١٨٠٠) جنهما^(١).

الثامن من هذه الأبواب هو "مرضه ووفاته"، هذا من أهم أبواب هذا الكتاب، لأنه يتحدث عن مرضه الأخير ووفاته. جاء من المدينة المنورة إلى الهند في تاريخ ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٨١م وهو يعاني مرضا شديدا وتعبا قاسيا، وأدخل المستشفى ثم رجع إلى المدينة المنورة في ١٦ من يناير سنة ١٩٨٢م وهو مريض. وفي الباب كلام زائد عن أيامه الأخيرة ووفاته في تاريخ ٢٤ مايو سنة ١٩٨٢م بالمدينة.

ثم صور فيه الندوي أخلاقه الفائقة وصفاته الفاضلة. ويختتم المؤلف هذا الباب ببيانات عائلته من الأولاد والإخوة وغيرهم. ويصور فيه اجتماعه الأخير بالشيخ الكاندهلوي بقوله: "سافرت خلال هذه الفترة في (٢٩ ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ، المطابق يناير سنة ١٩٨٢م) إلى مكة المكرمة للمشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، وكان يرافقي في هذه الرحلة الشيخ معين الندوي نائب الأمين العام لندوة العلماء، وكان الشيخ يقيم بمنزل الأخ سعدي في مكة المكرمة في تلك الأيام، ونزلنا نحن في منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي، وهو يقع على بعد عشرة أقدام من منزل الأخ سعدي، فزرنا الشيخ فقابلنا بعطف وحنان بالغين حسب عادته، وأعرب عن ارتياحه على قدومنا إليه، لكن النقاهة كانت بادية عليه، ولكن ذهنه كان متيقظا كما كان، وعاملني نفس المعاملة التي كان يقوم بها خلال إقامته بالمدينة المنورة، قال للأخ أبي الحسن: عليك أن تطعمه يوميا ذلك المعجون الذي كنت تقدمه إليه في المدينة المنورة،

^١ نفس المرجع، ص: ١٣١

ويستفسره عن الماء البارد الذي كنت أعتاده، فيسأل عنه مرة بعد مرة، ويأمره بإحضاره، والأمر الذي كان يستولي على مشاعره في تلك الأيام، هو قضية دار العلوم بديوبند، كلما حضرت إليه يسألني عن ذلك، ويعرب عن قلقه وحزنه على الخلافات التي تشهدها تلك الفترة بين العلماء، وقدمت إليه رسالة كتبها بإحضاره العزيز محمد الثاني الحسيني، وعرضت عليه أن يستمعها إذا سنحت له الفرصة، فقال لي: لا، أنا أسمعها الآن، فقرأ عليه تلك الرسالة نجله الكريم محمد طلحة، فقال: سأجيب على هذه الرسالة، وكان لا يدري أحد أن المرسل والمرسل إليه كليهما ينتقلان إلى رحمة الله عز وجل بفارق شهرين^(١).

والباب التاسع هو "فضائله الموهوبة، وخصائصه الطبيعية النادرة"، وهذا الباب كما يدل عليه عنوانه بيانات صفاته التي شاهدها فيه الندوي من علو الهمة والجمع بين رجال ذوي طبائع مختلفة والحب الخالص والتواضع والغيرة الدينية والاهتمام بالتعليم الديني وإكرام الضيوف وحب الأدب العربي والشعر وغيرها.

والباب العاشر هو "إطلالة على كتبه وبحوثه"، هذا الباب بيان اهتمامه بتأليف الكتب، وتعريف أشهر أعماله التصنيفية مثل "أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك"، و"الأبواب والتراجم للبخاري"، و"المؤلفات والمؤلفون"، و"الوقائع والدهور"، وغيرها. وفيه كلام خاص بأسلوب الشيخ الجامع بين الأسلوبين الدعوي الإصلاحية والأسلوب العلمي والتحقيقي، وقال عنه: "إن الذين يتعودون الأسلوب العلمي والمنهج التحقيقي لا ينجحون عادة في وضع كتب أو رسائل بأسلوب دعوي بحت ومنهج إصلاحي وأسلوب سهل يفهمه العامة، وكذلك الذين يتعودون الأسلوب الدعوي والإصلاحي العام لا ينجحون في اختيار الأسلوب العلمي بأسسه وخصائصه ومعاييرها، ولكن الشيخ يمتاز

^١ نفس المرجع، ص: ١٣٦

عن أقرانه ومعاصريه في هذا المجال، وهو جامع بين الأسلوبين الأسلوب الدعوي الإصلاحي والأسلوب العلمي التحقيقي، ونجح في الجمع بينهما أيما نجاح^(١).

والباب الحادي عشر هو "مواظب ونصائح"، جمّل الندوي هذا الباب القصير ببعض مقتطفات نصائحه وآرائه عن شتى الموضوعات والمواد، مثل قيمة الوقت والطاعة والمعاصي والذنوب وغيرها. والباب الثاني عشر والأخير هو "مقتبسات من كتبه"، أورد الندوي في هذا الباب بعض أقوال الشيخ، جمعها من كتبه المختلفة حول موضوعات متنوعة. وفي آخر الكتاب ملحق خاص بحياته وإسهاماته في علم الحديث، وهو في الواقع مقال كتبه الدكتور ولي الدين الندوي بعنوان "الإمام المحدّث الشيخ محمد زكريا الكندهلوي وأثاره في علم الحديث الشريف"، كما أشير إليه سابقا.

^١ نفس المرجع، ص: ٢٠١

الفصل السابع

في مسيرة الحياة

المؤلفات المعرّفة في الفصول السابقة كلها في السيرة الغيرية للندوي، أما "في مسيرة الحياة" فهو ترجمته الشخصية وسيرته الذاتية، يتكون هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ضخمة جسيمة قيمة. وفي الحقيقة ألفه المؤلف باللغة الأردية، ثم قام بنقل الجزأين الأول والثاني إلى اللغة العربية السيد سلمان الحسيني الندوي، أما الجزء الثالث فنقله إلى العربية السيد جعفر مسعود الحسني الندوي، وألفه المؤلف في اللغة الأردية في أجزاء سبعة، ولكن ضُم الجزء الثاني إلى الأول عند النقل والطباعة، كما ضُم الجزء الخامس إلى الرابع، فكان الجزء الأول والثاني في الأردية الجزء الأول في العربية، والجزء الثالث في الأردية الجزء الثاني في العربية، والجزء الرابع والخامس في الأردية الجزء الثالث في العربية، ولم يتم نقل الجزئين السادس والسابع إلى العربية بعد.

دوافع تأليف الكتاب

رغم إلحاح محبيه وأصدقائه وقراء كتبه الشديد عليه في تأليف كتاب في سيرته الذاتية لم يكن يهتم به في أول الأمر ولم يرغب في هذا النوع من التأليف لأسباب هامة، السبب الأول: تواضعه واستصغار نفسه وفكره في ضعفه بالنسبة إلى من اشتهر بكتابة سيرتهم الذاتية من السياسيين والأدباء وغيرهم، وقال عنه في مقدمة الجزء الأول: "وقد كان لذلك أسباب عديدة، منها تلك الكلمة الماثورة الحكيمة (ما هلك امرؤ عرف قدره) التي كنت في ضوءها أستصغر نفسي في مجال التنويه بها وأتضاءل أمام الرجال الذين كتب في سيرتهم وتراجمهم، أو تناولوا تقييد المذكرات لحياتهم، فلم أكن يوما سياسيا بارزا، ولا قائدا مُحَنَّكا، ولا صاحب شهرة وجاه عريض، أو تربية وإرشاد، ولا

نابغة من نوابع العلم والفن، لم يكن شيء من ذلك حتى يسوغ لي التأليف عن نفسي"^(١).

والسبب الثاني: يجب على من يكتب في هذا النوع من الفن أن يفصل أحداث حياته وخطوات عيشه وقصص أصدقائه، فخاف من السقوط والوقوع في الغرور بنفسه، وإدخال الغم في قلوب محبيه، إما بتقليل الكلام وإما بتكثيره، وقال: "ثم إنه ليس من الممكن المضي في هذا التأليف خطوة أو خطوتين بدون ذكر أحداثي ووقائعي، وقصص رفقتي وزملائي ومعاصري- التي لو خلت منها قصة حياة لكانت قصة باردة ميتة مجردة عن الحيوية، بعيدة عن الطبيعة البشرية - ويخشى فيها في كل موضع من المواضيع [كذا] من الزلات والهفوات، وخداع النفس والغرور بالذات، كما يخاف فيها من الإساءة إلى الأصدقاء والزملاء، وتجريح شعورهم بعدم توفيتهم حقوقهم، أو من المغالاة في تقريظهم، والمبالغة في الثناء عليهم"^(٢).

والسبب الثالث: يجب عليه أن يصور حياته مع بيان أحوالها وظروفها والمنظمات والجماعات التي انضم إليها وكان من أنصارها ودعاتها، خاصة إذا كان هذا الشخص الكاتب عاملاً في المجال الديني ومساهماً بإسهاماته المتواضعة في بث شريعة الله الغراء. إلا أن بعض الدوافع غلبت على تلك الأفكار، ففكر في عمل تأليفي في تصوير حياته ورسم حوادثها، ومن تلك الدوافع ما يلي:

(أ) التفكير في أنه إذا ألف كتاباً في سيرته الذاتية وجد فرصة للتفكير في قول الله تعالى: "سَأْتِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"^(٣)، ويجد تفسيرها في حياته، ويتفكر فيما خلقه الله فيه من الآيات.

(ب) الرجاء في أن لو قدم أمام الناس حياته وأحداثها كشكل كتاب في السيرة الذاتية لكانت عبرة لهم وحثاً على علو الهمة والاعتماد على الرغبة في الله. وقال في هذا الصدد:

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة "في مسيرة الحياة"، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١، ص: ١٩٠، ٢٠.

^٢ نفس المرجع، ص: ٢٠.

^٣ سورة فصلت، الآية: ٥٣.

"قلت في نفسي: إنه لو مرت بالقراء ضمن قصتي المتواضعة هذه الحقائق الجليلة لكانت زادا للعبرة والعظة، ودافعا إلى علو الهمة والطموح، وتعليق الرجاء بالله تعالى وحسن الظن به، وإنه لا يتيسر تلقين هذه الحقائق والعظات والعبر في مقال علمي رزين أو خطاب ديني جليل كما يتيسر في قصة ساذجة وحكاية مرسلّة عن النفس وأحداثها ووقائعها"^(١).

(ج) فهمه أن بيان كثير من المواد والوقائع والمعاهد والمنظمات والرجال والبلدان والثقافات يتطلب العديد من الصفحات بل المجلدات والجهود الشاقة، أما تصويرها في ضوء تجاربه عند زيارته المتتالية وانطباعاته عن رحلاته المتواصلة فشيء أسهل من ذلك نسبيا، -وليس معناه أن هذا التصوير للحياة الطويلة والرحلات الشاقة والأحداث الكثيرة شيء بسيط، ومما لا شك فيه ولا غبار عليه أن هذه الضيافة التأليفية تحتاج إلى جهد كبير وعمل كثير وسعي مثابر- ويقدر الطالب على استفادة غزيرة من هذه التجارب العظيمة أكثر مما يستفيد من كتاب تاريخي تقليدي.

(د) كون وسيلة لإبراز آرائه ونظرياته ومعتقداته وتقديم كتاباته وخطاباته مختصرة، وقال عنه: "وقد كان من الدوافع إلى هذا التأليف أنني سوف أجد عن طريقه فرصة طيبة ضمن بيان عقليتي وتفكيري، وتطوراتي، وتاريخ الإنشاء والكتابة والتأليف في حياتي، وأهم الأحداث والوقائع، والحركات والدعوات في عهدي، لعرض آرائ وأفكاري، ومشاهدتي وانطباعاتي، ودعوتي ومنهجي بصورة مختصرة، وعرض النطاق الأساسية الرئيسية من كتاباتي ومؤلفاتي، وتقديم مقتطفات مهمة منها، وهي منشورة مبثورة في كثير من مقالاتي ومحاضراتي ومؤلفاتي، التي بلغت أكثر من خمسة وسبعين مؤلفا، ليس من اليسير أن يقف عليها من يريد الاطلاع على آرائي فيها في وقت واحد"^(٢).

(هـ) وجود وقت واسع كاف لهذه الكتابة بعد أن فرغ من عمليات تأليفية متواصلة في ديسمبر سنة ١٩٨٢م، وقال عنه: "وصادف أن انتهيت في ديسمبر عام ١٩٨٢م من

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة "في مسيرة الحياة"، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١ ص: ٢٢

^٢ نفس المرجع، ص: ٢٥

ثلاثة أو أربعة أعمال تأليفية، كانت قد استقطبت منذ شهور كل عنايتي واهتمامي، ولم يكن يمكن لي قبل إكمالها أن أتوجه إلى موضوع آخر، وليس أشد وأشق وأجهد علي من بقائي عاطلا، لا شغل لي من كتابة أو مطالعة، فهو نوع عذاب وعقاب، خطر لي في أثناء هذه الفرصة السانحة التي كانت تبدو مدتها قليلة محدودة جدا، ولم تكن قد تهيأت لدي أسباب البدء في عمل تألفي مهم آخر، أن أشرع في الكتابة حول هذا الموضوع"^(١).

مزايا هذا الكتاب

يتميز جميع الكتب المؤلفة بيد العلامة الندوي بمزاياها الخاصة وملامحها الفذة من بين سائر الكتب، و"في مسيرة الحياة" أيضا يتميز بمزاياه الفريدة، منها:

(أ) هذا كتاب في فن السيرة الذاتية كما هو معروف، ولكنه لا يقوم بنقل المعلومات التاريخية وسرد الأحداث الشخصية وقصص الأحوال الاجتماعية فقط، بل يشتمل على رسائل هامة ونصائح نافعة ترفع النفس والمجتمع وتطهر القلوب والشعوب.

(ب) يحتوي على كثير من وقائع تاريخية، فهو يشبه سجلا تاريخيا اجتماعيا، حيث يصور فيه المؤلف العديد من الأماكن التي زارها وشاهدها، وهو كتاب ينقل قدرا كبيرا من العلم والأدب من العلماء الذين اجتمع بهم وشاركهم في الجلسات العلمية والأدبية المتنوعة، وهذا ما قاله الشيخ علي الطنطاوي في مقدمة الجزء الأول: "كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سردا لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند"^(٢).

(ج) يقوم الكتاب بتعريف أكثر المؤسسات والمعاهد الهامة في القارة الهندية، وكثير منها في البلاد الخارجية، وقال الندوي واصفا هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة: "... من حيث أنها

^١ نفس المرجع، ص: ٢١

^٢ الطنطاوي، علي، مقدمة "في مسيرة الحياة" لأبي الحسن علي الندوي، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج: ١ ص: ٩

تقدم صورة حية ناطقة متحركة للمراكز والمؤسسات المهمة في بلادي الهند بصفة خاصة، وفي العالم العربي والإسلامي بصفة عامة^(١).

(د) يتميز بكونه كتابا شاملا الأحداث الهامة المتعلقة بزمان التأليف، إذ ينقل بعض الكتب في هذا الصنف جماليات الطبيعة من الأشجار والجبال والأنهار والسواحل والغابات وغيرها من المناظر المعجبة والمدهشة، ولكن الندوي لم يقصد هذا الجانب من التصوير بهذا التأليف.

(هـ) يعرض الكتاب ما وقع في القارة الهندية في النصف الثاني للقرن العشرين من الحوادث والوقائع وانقلاب الأحوال والظروف، وتحول الأحاسيس والعواطف، وما كان من المشاكل والاضطرابات، وما إلى ذلك.

(و) يعرض المؤلف فيه أمثلة لأسر عانت من آلام عصر الهبوط وآلام المسغبة والحرمان وبكاء أعضائها عندما حل بهم الاحتلال والاستعمار، كما عرض الدفاع وحصول النجاح، وقال عن هذه النقطة الدكتور عبد الباسط بدر عضو مشاورة التحرير لمجلة "الأدب الإسلامي" الصادرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية في مقالته "جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في خدمة الأدب الإسلامي" التي ضمها السيد محمد واضح رشيد الحسيني الندوي إلى كتابه "المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي": "... لذلك نجد في هذه السيرة نماذج لعائلات وأفراد عانوا آلام عصر الهبوط، ونجد مواجهات قوية لأزمات الفقر والجهل والمرض والخوف والاستعمار، ونجد النجاح والإخفاق، ونجد النماذج البشرية العالية الهابطة، ونجد بعد الرؤية وقوة الأحداث، ونستمتع بسلاسة العبارة وعذوبة الأسلوب"^(٢).

(ز) اتخذ الندوي في تأليف هذا الكتاب المنهج السرد التأملي، كما قاله الدكتور جابر المتولي قميحة الأديب الناقد المصري (٢٠١٢م) في مقالته: "وهذا المنهج الأخير

^١ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج: ٣، ص: ٨.

^٢ بدر، د. عبد الباسط، مقالة "جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في خدمة الأدب الإسلامي"، كتاب "المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي"، (كتاب قام بالجمع والترتيب السيد محمد واضح رشيد الحسيني الندوي) مكتبة رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة بلكهنؤ - الهند، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص: ٢٥٢.

[المنهج السردى التأملى] هو المنهج الذي أخذ الشيخ نفسه به في سيرته الذاتية التي سماها "في مسيرة الحياة". وهو منهج يتسق مع طبيعة الشيخ في الالتزام الصادق بالإسلام...^(١).

ح) يتميز الجزء الثالث من هذه الأجزاء بتشبهه بذكريات، لأن المؤلف عرض فيه الوقائع حسب الترتيب السنوي، ووضع العناوين ذكريات عام ١٩٨٨م، وذكريات عام ١٩٨٩م مثلاً، ولكن في الأول والثاني من تلك الأجزاء وضع عناوينها حسب المضامين مع مراعاة الترتيب الزمني في أكثر مواضعها.

مضمون الكتاب

الجزء الأول: هذا الجزء كما ألمح إليه سابقاً ترجمة عربية لما كتبه الندوي في الأردية في جزءين، والذي قام بها السيد سلمان الحسيني الندوي. يتكون هذا الجزء من ٣٢ فصلاً هاماً، ومن ٤٦٣ صفحة، يتناول هذا الكتاب سيرة الندوي الشخصية وأحداث حياته المضيئة. ويبدأ بنقاش بيئة أسرته ووطنه، ويختم بأحداث حياته في ديسمبر سنة ١٩٨٣م.

الفصل الأول هو "الأسرة، والوطن، والبيئة، وآثار وانطباعات عن عهد الطفولة"، يقدم المؤلف في هذا الفصل بيانات أسرته الحسنية القطبية - نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وإلى الأمير السيد قطب الدين محمد المدني (٦٧٧م) أول من دخل الهند من أجداده - وبيانات تراث أسرته العظيم، ويذكر فيه بعض من أشهر في هذه الأسرة مثل السيد أحمد بن عرفان الشهيد وغيره. وفيه كلام غير قصير عن أخواله وأعمامه، وعن داره وبيئتها وأحوالها قبل ميلاده، وبعض أحداث أيام طفولته.

^١ قميحة، د. جابر، مقالة "في مسيرة الحياة - الأبعاد والمنهج"، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض، المجلد السابع، العددان السادس والسابع والعشرون ١٤٢١هـ. (عدد خاص عن الشيخ أبي الحسن الندوي) ص: ٨١

والفصل الثاني هو "بعض الأحداث المهمة في الطفولة والإقامة بلكهنؤ، وعالم الكتب، وحركة الخلافة"، يتحدث هذا الفصل عن أيامه في الطفولة في رائي بريلي وفي لكهنؤ، وعن لحظات الحياة السارة مع والده، وعن صفاته واهتمامه وعنايته بالعلم والمطالعة والكتابة. وفيه كلام مديد عن دراسة المؤلف في داره ودراسته النظامية، وعن نشاطات حركة الخلافة وتأييد أسرته لها.

والفصل الثالث يتناول حادثة وفاة السيد عبد الحي الحسني والد الشيخ في تاريخ ٢ من شهر فبراير سنة ١٩٢٣ م وهو ابن تسع سنين، وكفالة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني وعطفه عليه، وتربية أمه، وتعلم اللغة العربية على الشيخ خليل بن محمد، وأحداث متعلقة بهذه الدراسة، وما أُتيح له من الفرص الكثيرة لقراءة الكتب الأردية. ويرسم فيه المؤلف احتفال ندوة العلماء التاريخي المنعقد في نوفمبر سنة ١٩٢٦ م بكانفور، وحياته مع أستاذين ماهرين، هما الأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي، والشيخ السيد محمد طلحة الحسني، ثم فيه كلام عن التحاقه بجامعة لكهنؤ سنة ١٩٢٧ م.

منذ الفصل الرابع يدخل الندوي في تصوير أحداث حياته المملوءة بالأنشطة التعلّمية، وما قام به من الرحلات العلمية وغيرها، ففي هذا الفصل يتحدث عن رحلته التاريخية إلى لاهور مع الأستاذ السيد إبراهيم الندوي ولقائه مع الدكتور محمد إقبال، والأستاذ محمد شفيق عميد الكلية الشرقية بها وغيرها في سنة ١٩٢٩ م، ورحلته إليها أيضا في سنة ١٩٣٠ و ١٩٣١ م للتعلم على الشيخ أحمد علي اللاهوري، وفي سنة ١٩٣٢ م كطالب في مدرسة "قاسم العلوم".

وفيه كلام عن حضور دروس الشيخ المحدث حسن خان الطونكي في الحديث التي ابتدأت في سنة ١٩٢٩ م بدار العلوم ندوة العلماء، وعن قدوم الأستاذ تقي الدين الهلالي إليها وتعيينه مدرسا فيها. والحادثة الكبرى التي كانت نقطة تحول في حياته المعالجة في هذا الفصل هي قصة كتابة مقالته الأولى بعنوان "ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد" في مجلة "المنار" وهو ابن ستة عشر عمرا. وفيه كلام مفصل عن إتاحة الفرصة الذهبية له قضاها بمطالعة المجلات والصحف العربية.

ومن الأحداث الهامة المعالجة في الفصل الخامس تعيينه مدرسا في دار العلوم بناء على اقتراح الشيخ مسعود علي الندوي في سنة ١٩٣٤م وهو ابن عشرين سنة، وزواجه في نوفمبر من نفس السنة من السيدة طيب النساء بنت خاله السيد أحمد سعيد الحسني، ودعوة الدكتور أمبيدكر إلى الإسلام. والفصل يعرض كثيرا من تجاربه الجديدة بحياته التعليمية، ويفصل موضوعات الدروس وموادها التي درّسها في دار العلوم.

والفصل السادس يعبر عن تأليف كتاب "سيرة السيد أحمد الشهيد"، وطبعه في سنة ١٩٣٩م في اللغة الأردنية، وعن مجيء الشيخ العالم أشرف علي التهانوي إلى لكهنؤ في قصد العلاج والمداواة في نفس السنة، وعقد جلسات علمية تحته وحضور الندوي هذه الجلسات مع أخيه الأكبر. وفي الفصل كلام عن اجتماعه الأخير بالدكتور محمد إقبال في سنة ١٩٣٧م، وكان ذلك في رمضان. ويندرج تحت هذا الفصل كلام عن قصة تأليف كتاب لإدراجه في المنهج الدراسي لقسم الدراسات الدينية في الجامعة الإسلامية بعليكراه في سنة ١٩٣٨م، ويتحدث الفصل عن طلوع مجلة "الندوة" في سنة ١٩٠٤م وتوقفها، وصدورها من جديد في سنة ١٩١٤م وتوقفها في ١٩١٦م، وصدورها للمرة الثالثة في سنة ١٩٤٠م وتوقفه بعد سنتين بسبب أزمات اقتصادية.

والفصل السابع موضع عرض لبعض إسهاماته التأليفية من أجل إدراجها في المناهج الدراسية بدار العلوم، ففيه كلام عن قصة تأليف كتاب "مختارات من أدب العرب" و"القراءة الراشدة" (سنة ١٩٤٠م) و"قصص النبيين" - كانت بداية تأليف في هذه السلسلة الكتابية حوالي ١٩٤٣-٤٤م، وظهر الجزء الخامس في سنة ١٩٧٥م بعد أن مضى أكثر من ثلاثين سنة- ويتحدث فيه عن بعض المحاضرات والخطب ألقاها أمام طلابه في دار العلوم ندوة العلماء في السنة الدراسية ١٩٣٨-٣٩م حول الموضوعات القرآنية، ثم نشرها في مجلة "الندوة" في عام ١٩٤٠م.

ومن أهم محاور الفصل الثامن توجهه إلى آفاق القراءة الواسعة ورفرفته في سماء المطالعة العميقة، كانت قراءته محدودة في بعض كتب التفاسير والأحاديث والتواريخ

في أول الأمر كمدرس، ولكن توسع مدى قراءته توسعا عجيبا، فقرأ الكتب الأدبية العربية والإنجليزية، والكتب السياسية وكتب السيرة الذاتية لكثير من العلماء، منها "البحث عن الحق" لغاندي، و"قصتي" لجواهر لال نهرو وغيرهما. ويتحدث فيه عما قام به من الزيارات العلمية للمراكز الدينية داخل القارة الهندية، وعن المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الملكية بعنوان "الدين والمدنية" في سنة ١٩٤٢م، ثم نقلت هذه المحاضرة الأورودية إلى العربية والإنجليزية.

ومن الأحداث الهامة التي يحتوي عليها الفصل التاسع بدء كتابة مقالات عربية متسلسلة في المجلات، ومنها تأليف كتابه المشهور "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي أسهم إسهاما كبيرا في تبليغ صيته وصوته إلى أنحاء العالم، وكان تأليفه في فترة ١٩٤٣-٤٧م، ثم يتكلم الندوي في هذا الفصل عن هذا الكتاب وشهرته، كما يتكلم عن مقالته بعنوان "إلى ممثلي البلاد الإسلامية" المعدة للإلقاء في المؤتمر الآسيوي المنعقد بدلهي سنة ١٩٤٧م، إلا أنه لم تسنح له الفرصة للإلقاء لضيق الوقت، ثم تم نشرها كرسالة مستقلة. ومنها كلام عن تأسيس مركز لنشر التعليمات الدينية سنة ١٩٤٣م، وإصدار جريدة "تعمير" سنة ١٩٤٨م.

ويتحدث العاشر من هذه الفصول عن زيارة الندوي من زيارة للشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس حركة جماعة التبليغ والدعوة، وعن أعماله الدعوية وجولاته التبليغية وعلاقته بهذه الحركة ووفاته أميرها الكاندهلوي سنة ١٩٤٤م.

يرسم الفصل الحادي عشر ما قام به الندوي من رحلتين للحج، الأولى في سنة ١٩٤٧م، والثانية في سنة ١٩٥٠م، وبعض الأحداث الهامة خلال هذه الأيام، وما ألقى من الخطب والمحاضرات في الجلسات والإذاعة السعودية. والفصل الثاني عشر يناقش رحلته التاريخية إلى مصر والشرق العربي سنة ١٩٥١م، التي استغرقت أكثر من ستة أشهر، ويعرض فيه المؤلف نبذة مختصرة عن تاريخ مصر، وبيانات ما ألقاه من المحاضرات، وما استطاع من الاجتماعات بطلاب الجامعات، وما اقتدر عليه من زيارة السودان ودمشق وبيت المقدس وحمص. والثالث عشر من هذه الفصول يناقش

أحداث حياته خلال فترة ١٩٥١-٥٦م موجزا، وما استطاع خلالها من إلقاء المحاضرات والخطب. وكان من أهم الأعمال التي تمت في هذه الفترة تأليف سلسلة كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، ويقص المؤلف قصة هذا التأليف قصصا مطوّلاً.

والفصل الرابع عشر يركز على ما قام من الرحلة إلى الشام ولبنان وتركيا وبغداد في سنة ١٩٥٦م، وفيه صفحات تبين ما ألقى في قاعة جامعة دمشق من سلسلة المحاضرات التي تسببت في تأليف كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، والمحاضرات في الإذاعة السورية، والمشاركة في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بدمشق. وفي الفصل الخامس عشر يلخص الندوي الوقائع المهمة في فترة ١٩٥٦-٦٢م، منها بعض أعماله التأليفية ضد القاديانية، ومنها ما قام بالرحلتين، الأولى إلى بورما في ديسمبر سنة ١٩٦٠م، والثانية إلى دولة الكويت في يناير سنة ١٩٦٢م. وفيه كلام عن تأسيس "المجمع الإسلامي العلمي" بدمشق في سنة ١٩٥٩م، وعن مشاركته في المؤتمر التعليمي الديني الذي انعقد في مدينة "بستي" الهندية، كما فيه تعبير يهز القلوب عن وفاة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني في ٧ مايو سنة ١٩٦١م.

ومن نقاط النقاش في الفصل السادس عشر تاريخ تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ومشاركته فيه، وتأسيس رابطة العالم الإسلامي، وإصدار جريدة "ندائي ملت" سنة ١٩٦٢م، والقيام بإلقاء سلسلة المحاضرات التي بدأت في تاريخ ٣٠ مارس ١٩٦٣م، واجتماعه بالملك فيصل وغيرها من الحوادث.

والفصل السابع عشر يشتمل على ملخص أحداث حدثت في فترة ١٩٦٢-٦٦م، منها وفاة الشيخ أحمد علي اللاهوري (٢٣ فبراير ١٩٦٢م)، والشيخ عبد القادر الرائي بوري (١٦ أغسطس ١٩٦٢م). ومنها رحلته إلى أوروبا ونشاطاته الدعوية والعلمية خلالهما، الأولى سنة ١٩٦٣م، والثانية سنة ١٩٦٤م. وفيه كلام مفصل عن الاضطرابات الطائفية الشنيعة حدثت في المناطق الصناعية الهندية والمناطق الشمالية في ١٩٦٤م، ومحاولاته لإخماد نار الفتنة الغاشية، كما فيه حديث عن عمليات الجراحة تمت في عينه، وعن مشاركته في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة في أبريل ١٩٦٥م.

والفصل الثامن عشر يقول فيه المؤلف عن بعض أعماله التأليفية، ويتكلم عن سياق وتاريخ تأليف كتب "الأركان الأربعة"، و"الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية"، و"الطريق إلى المدينة"، و"نحو التربية الإسلامية الحرة"، كذلك قام بطبع الجزء الثامن من كتاب والده "نزهة الخواطر" - لم يطبع هذا الجزء من قبله - بعنوان "الهند في العهد الإسلامي" في سنة ١٩٩٢ م.

وفي الفصل التاسع عشر يذكر المؤلف أربع حوادث وهي: حادثة خطيرة بالسيارة التي سافر فيها حتى انقلبت وكان سقفها تحتها وعجلاتها فوقها، ولكن الندوي ورفاقه في السفر نجوا سالمين، وكانت الحادثة في نوفمبر عام ١٩٦٧ م في الشارع بين الطائف ومكة المكرمة. ومنها وفاة أمه سنة ١٩٦٨ م، ورحلته إلى الحجاز من جديد في أبريل سنة ١٩٦٩ م، ورحلته إلى إنجلترا للمرة الثالثة.

وفي الفصل العشرين كلام مفصل عن استيلاء إسرائيل على القدس وانتهزام مصر سنة ١٩٦٧ م، ثم ما وجدت مصر قيادة جديدة. وفيه ذكر رحلاته إلى الحجاز سنة ١٩٦٧ م والسنة التالية. وذكر ما ألقاه خلالهما من الخطب في شتى المنصات، وذكر رحلته إلى دولة الكويت في ١٩٦٨ م، والمحاضرة التي ألقاها في قاعة جمعية الإصلاح الاجتماعي، وذكر غيرها من الخطب والمحاضرات. وفي الفصل كلام مفصل عن مقابلة صحفية مع مندوب جريدة "الندوة" في مكة المكرمة.

الفصل الحادي والعشرون القصير يتناول الاهتمام بقضايا الهند القومية والإسلامية والجهود الميدانية. والفصل الثاني والعشرون يعالج نشاطات حركة رسالة الإنسان، ودواعي تأسيسها ومقاصدها. والفصل الثالث والعشرون يتناول أحداثا مثل الحرب بين الهند وباكستان سنة ١٩٧١ م، وما وقع في باكستان الشرقية من الاضطرابات العصبية واللغوية والثقافية وغيرها.

ويعرض الفصل الرابع والعشرون انطباعات رحلاته المتميزة إلى أفغانستان وإيران ولبنان وعمان والشام وبغداد، وكانت هذه الرحلات ما بين يونيو ١٩٧٣ م وأغسطس من نفس السنة. ويعرض سفره إلى أبوظبي ودبي في يناير ١٩٧٤ م، والنشاطات العلمية

التي شارك فيها. والفصل الخامس والعشرون تصوير رائع للمهرجان العالمي لدار العلوم ندوة العلماء بمناسبة مرور ٨٥ سنة على تأسيسها في ما بين ٣١ أكتوبر و٣ نوفمبر سنة ١٩٧٥ م. وفيه كلام عن وفاة أخت الشيخ أمة الله تسنيم في ٢٨ يناير ١٩٧٦ م.

يذكر الندوي في الفصل السادس والعشرين ما استطاع من مقابلة رئيسة الوزراء "إندرا غاندي" في سنة ١٩٧٦ م، وما كتب إليها من الرسالة المفتوحة، وحالة الطوارئ وانقضائها، والانتخابات العامة في سنة ١٩٧٧ م، وقدم إنديرا غاندي إلى بيت الشيخ، وبعض الأوضاع السياسية التي كانت في الهند آنذاك.

ومن الموضوعات الهامة في الفصل السابع والعشرين رحلته إلى المغرب للمشاركة في جلسة رابطة الجامعات الإسلامية، التي كان مقرها بالرباط، -وكان الشيخ عضوا فيها- في مايو سنة ١٩٧٦ م، ورحلته إلى أمريكا في إبريل ١٩٧٧ م للمشاركة في المؤتمر السنوي لـ "اتحاد الطلبة المسلمين الأمريكيين والكنديين".

من المحاور المهمة في الفصل الثامن والعشرين رحلته إلى كراتشي (باكستان) في يوليو سنة ١٩٧٨ م للمشاركة في المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي، ومساهماته العلمية في ذلك المؤتمر، ووفاة الأستاذ محمد الحسني، وإسحاق جليس الندوي، وكانت الثانية بعد ثلاثة أسابيع من الوفاة الأولى.

وفي التاسع والعشرين من فصول هذا الكتاب يتكلم الندوي عن واقعة أدت إلى الاضطرابات الشديدة في الحرم المكي عقب الحج في سنة ١٩٧٩ م، وهي ادعاء محمد عبد الله القحطاني وزعمه أنه المهدي، وجعل الناس يبايعونه. ويتكلم فيه عن مشاركته في مؤتمر السيرة المنعقد في الدوحة عاصمة دولة قطر في نوفمبر من نفس السنة، كما يتكلم عن اختياره لجائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٨٠ م وتسلمها نيابة عنه الأستاذ عبد الله عباس الندوي.

وفي الفصل الثلاثين يتحدث عن احتفال دار العلوم المئوي سنة ١٩٨٠م، وعمّا وقع في مراد آباد وعليكراه وغيرهما من المدن الهندية من الاضطرابات القومية أو الطائفية في شهر أغسطس من نفس السنة مع ألم شديد وحزن عميق، وعن مؤتمر رسالة الإنسان في أكتوبر من تلك السنة، لإخماد تلك الفتنة.

والحوادث الهامة التي ورد ذكرها في الفصل الحادي والثلاثين هي: الندوة العالمية للأدب الإسلامي بدار العلوم في إبريل سنة ١٩٨١م، وما كرمته جامعة كشمير بمنح شهادة الدكتوراه الفخرية في أكتوبر من نفس العام، ووفاة الشيخ السيد محمد الثاني في يناير ١٩٨٢م، ومؤتمر "الإسلام والمستشرقون" بأعظم كره في ما بين ٢١ و ٢٣ فبراير سنة ١٩٨٢م، ورحلته إلى الجزائر للمشاركة في ملتقى الفكر الإسلامي.

وفي الباب الثاني والثلاثين يتحدث عن رحلته إلى سريلانكا في مايو سنة ١٩٨٢م، وأعماله الدعوية والعلمية هناك، ومأساة بيروت في أكتوبر من نفس السنة، وإنشاء المركز الإسلامي بأكسفورد في السنة التالية، وإلقاء المحاضرات فيه، وسفره إلى دولة الكويت والإمارات العربية المتحدة في نوفمبر من تلك السنة.

الجزء الثاني: وفي الحقيقة لم يقصد الندوي في أول الأمر تأليف هذا الجزء الثاني - الجزء الثالث بالأردنية- ولكنه اضطر إلى تأليف لأسباب، منها لما طبع الجزء الأول من دار القلم طبع على غلافه غلطا "رقم الجزء الأول" لظن الناشر أن الجزء الثالث سوف يصدر، وقال عنه في مقدمة الجزء الثاني: "وقد اعتذر الأستاذ محمد علي دولة [صاحب دار القلم بدمشق] إلى المؤلف لهذا الخطأ، مع إبداء رغبته في إكمال هذه السلسلة ووضع المجلد الثالث بالأردنية، الذي يلي المجلد الأول بالعربية، لأن ذلك يوهم القراء بأن الكتاب ناقص، لم تستكمل أجزاءه، يبقى المقتنون للمجلد الأول في انتظار للمجلد الثاني"^(١). علاوة على ذلك كان هناك كثير من الوقائع والحوادث في العالم عامة وفي حياة الشيخ خاصة، لو لم تسجل لا يصل أكثرها إلى الجيل التالي في شكله الصحيح، فأقدم على تأليف هذا الجزء.

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة "في مسيرة الحياة"، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج: ٢، ص: ٥

يتكون هذا الكتاب -الجزء الثاني- من أربعة عشر فصلا ومن ٢٩٩ صفحة، ويشتمل على بعض الحوادث الهامة والوقائع الملحوظة في فترة ما بين سنة ١٩٨٤ و١٩٨٨م. الفصل الأول يحتوي على تصوير رحلاته إلى شرق الأردن والحجاز واليمن، وإلقاء المحاضرات، وزيارات الأماكن التاريخية فيها، والاجتماعات بالشخصيات البارزة في شتى الميادين. وهذا الفصل بأكمله تصوير أحداث الشهرين إبريل ومايو من سنة ١٩٨٤م.

والفصل الثاني يعالج الأحداث التي وقعت في مارس من تلك السنة مثل رحلاته إلى بنغلاديش وباكستان، ومحاضراته هناك، واجتماعه بالجنرال محمد ضياء الحق رئيس باكستان. وفيه قصة تأليف الجزء الرابع من سلسلة كتب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" عن حياة الإمام شاه ولي الله الدهلوي، حيث فرغ من تأليفه في مايو ١٩٨٤م. والفصل الثالث يشتمل على بعض الأحداث المهمة التي وقعت ما بين إبريل من سنة ١٩٨٤م ونوفمبر من سنة ١٩٨٥م، منها ما وقع في تلك الفترة من الاضطرابات السياسية والفتن القومية، وقتل إندر غاندي، وجولاته في داخل الهند لإطفاء شعلة الفتن، ومنها رحلاته إلى الحجاز ولندن للمشاركة في بعض الجلسات المهمة، وفيه كلام عن وفاة الشيخ محمد الحسن.

وعنوان الفصل الرابع هو "حركة الحفاظ على قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، ومنحة جديدة للأمة الإسلامية الهندية، وحركة شاملة للهند، وتدخّل محكمة الاستئناف في قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين ومقاومته، ونجاح المسلمين"، وهذا الفصل يوضح ما وقع في الهند من الاضطرابات والانقلابات التي أشار إليها العنوان في فترة ما بين سنة ١٩٨٣ و١٩٨٦م. والفصل الخامس يتحدث عن رحلة الشيخ في يونيو سنة ١٩٨٦م إلى تركيا للمشاركة في جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي، وعن المحاضرات التي ألقاها خلال هذه الرحلة. ويتحدث عن زيارة إستانبول وكراتشي، والاجتماع الأخير بالجنرال محمد ضياء الحق رئيس باكستان.

والفصل السادس يقص قصة ما بين ٢٧ أغسطس سنة ١٩٨٦م و١ نوفمبر من نفس السنة. وفي هذه الفترة قام بالرحلتين، الأولى إلى لندن للمشاركة في الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي بأوكسفورد، والثانية إلى الجزائر للمشاركة في ملتقى الجزائر. وفيه كلام طويل عن المحاضرات التي ألقاها الشيخ. ويتحدث عن وفاة الشيخ محمد عمران خان الندوي، وقدم إمام الحرم السابق الشيخ محمد عبد الله السبيل إلى ندوة العلماء. ويتحدث المؤلف في الفصل السابع عما كان في الهند من الاضطرابات والفتن القومية والسياسية، ومحاوراته ومحاضراته المرتبطة بهذا الموضوع ومحاولاته لحل تلك المشاكل.

والفصل الثامن يعطي بيانات اجتماعين لرابطة الأدب الإسلامي، الأول مؤتمرها العالمي في ندوة العلماء في يناير ١٩٨٦م، والثاني ندوتها الأدبية انعقدت بـ"جي فور" في يونيو من نفس العام. والفصل التاسع فصل خاص ببيان رحلته إلى ماليزيا، وما قام خلالها من إلقاء الخطب والمحاضرات، خرج إليها في ٢ أبريل ١٩٨٧م ورجع إلى الهند في ٩ أبريل. والعاشر من هذه الفصول يبرز ما كان في إيران من الثورات الشيعية وتأثيرها، ونقده إياها ومعتقداتها، وقصة تأليف كتابه "صورتان متضادتان"، ينتقد فيه الفرقة الاثني عشرية ونظرياتها مبتعدا عن أسلوب المناظرة والمجادلة.

الفصل الحادي عشر يصور الاضطرابات الطائفية حدثت في ميرت سنة ١٩٨٧م، ورحلته إلى لندن لحضور الجلسة السنوية للأمم المتحدة للمركز الإسلامي بأوكسفورد في ٢٧ أغسطس من نفس السنة، ورجوعه منها إلى الكويت في ٦ سبتمبر، ومن ثم إلى الهند بعد أن مكث هناك يومين. الفصل الثاني عشر يرسم رحلته إلى الحجاز في ١٩٨٧م للمشاركة في المؤتمر العام الثالث لرابطة العالم الإسلامي بمكة انعقد في فترة ١١ و١٥ أكتوبر، ويتحدث عن زيارة المدينة وجدة، ومشاركته في جلسات رابطة الأدب الإسلامي، وما ألقى من المحاضرات خلالها.

وفي الفصل الثالث عشر إشارة إلى بعض أهم الأحداث الواقعة في فترة ما بين نوفمبر ١٩٨٧م ونوفمبر ١٩٨٨م. منها ندوة أدبية لرابطة الأدب الإسلامي بدار العلوم في ١١

١٢ نوفمبر، وندوة علمية حول شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني الدمشقي في الجامعة السلفية ببنارس في ٢٢ و ٢٣ في نفس الشهر. ومنها قصة تأليف كتاب "المرتضى" وتدشينه بلكهنؤ في نوفمبر ١٩٨٨م. الفصل الرابع عشر يبين رحلته إلى الحجاز لحضور الجلسة السنوية للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة في نوفمبر ١٩٨٨م، ومن ثم إلى الإمارات، يفصل ما قام بإلقاء المحاضرات هناك. وفي الفصل كلام عن الجلسة الأولى لمؤتمر "رسالة الإنسانية" انعقدت بحيدر آباد في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٨٨م.

الجزء الثالث: يحتوي هذا الجزء على أحداث هامة تتعلق بحياة الندوي بشكل مباشر أو غير مباشر، فسرد المؤلف في هذا الجزء الأحداث حسب ترتيب الأعوام التي وقعت فيها تلك الحوادث. أما في الجزئين السابقين فكان يسرد الوقائع تحت عناوين موضوعية مع ذكر سنواتها ومع محافظة الترتيب السنوي. ولكن هنا رتب تحت عنوان "ذكريات ١٩٨٨" - مثلا- أهم الأحداث الواقعة في تلك السنة، هكذا رتب الأحداث من سنة ١٩٨٨م إلى ١٩٩٣م سنة سنة. وقد كرر بعض الحوادث الواردة في أواخر الجزء الثاني تحت عنوان "ذكريات ١٩٨٨" لأنه ينتهي بذكر أحداث هذه السنة.

الباب الرابع

المرتضى – دراسة تحليلية

الفصل الأول: معلومات أساسية عن كتاب "المرتضى"

الفصل الثاني: ملخص الكتاب

الفصل الثالث: تقييم الكتاب

الفصل الرابع: تقييم الوسائل التي حقق بها المؤلف

غرضه

الفصل الأول

معلومات أساسية عن كتاب "المرتضى"

"المرتضى" كتاب ألفه الندوي في ترجمة أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يتكون من ٢٨٤ صفحة، وعشرة فصول تصور أحداث حياته مع مراعاة الترتيب الزمني، ويتحدث فيه عن الأبعاد المتنوعة المتعلقة به، وعن الأحوال والظروف التي قضى فيها حياته، حيث بدأ من بيئته الأسرية ونسبه المعروف. وتم تأليفه في مايو سنة ١٩٨٨ م. وهذا هو الكتاب الوحيد الذي أفردته الندوي بتصوير حياة صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ.

الحاجة إلى هذا الكتاب

حظي هذا الكتاب بمكان رفيع عند محبي فن السيرة والترجمة عامة، وعند محبي السيرة الصافية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وتاريخ حياته المنقحة، وتلقاه الناس بكل سرور وحبور، كأنهم كانوا ينتظرون عملا بديعا مثله منذ زمن سحيق، ويتوقعون كتابا رائعا في هذا الموضوع منذ أمد بعيد، خاليا من الإضافات ونائيا عن الزيادات ومنتحيا عن التقصير. وهناك عدة أمور تدل على الحاجة إلى هذا الكتاب، منها:

أ) سد ثغرة في هذا المجال: لقد صُنفت في سيرة علي رضي الله عنه مصنفات عديدة، وكثير منها محاولة تبرير نظريات المصنف المذهبية، ودعم مواقفه الطائفية، فكانت الحال تطلب تأليف كتاب لتفصيل حياته يجمع إثبات المعلومات اللازمة، والرد على من شأن سيرته الطاهرة وشوه ترجمته النقية، ويمنع سرد ترجمته ممزوجة بالقصص الواهية والإضافات الخيالية والزيادات الشيعية، وكان هذا الفراغ واقعا في المكاتب الإسلامية والأدبية، فظهر "المرتضى" يسد هذا الفراغ.

وكذلك أُلّف في الهند بعض الكتب حتى في اللغة الأردية في سيرة الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه باسم "الصدّيق"، وفي سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه باسم "الفاروق"، وفي سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه باسم "عثمان غني"، وكانت الحاجة ماسة إلى وجود كتاب في سيرة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والثغرة موجودة في ميدان الترجمة، فجاء هذا الكتاب يسد تلك الثغرة، وقال الدكتور محمد اجتباء الندوي عن هذه الحال: "وكانت قد صدرت مؤلفات قيمة عن الخلفاء الراشدين الثلاثة حتى في اللغة الأردية، فقد أُلّف العلامة شبلي النعماني رحمه الله كتابا فريدا عن سيدنا عمر بعنوان (الفاروق)، وأُلّف العالم الجليل والثري السري السيد حبيب الرحمن الشرورني عن الخليفة الأول سيدنا أبي بكر الصدّيق كتابا سماه (الصدّيق)، وكذلك أُلّف العالم والمفكر والكاتب الجليل الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي (صدّيق أكبر)، وكتابا عن الخليفة الثالث سيدنا عثمان بعنوان (عثمان غني) وحظيت هذه الكتب بالقبول"^(١).

ب) إزاحة الأعباء المتراكمة على سيرة علي بن أبي طالب: إن كثيرا من الشخصيات البارزة في التاريخ بُدّلت سيرتها تبديلا ظالما، وحُرّفت ترجمتها تحريفا خطيرا، حتى لا تسنح للأجيال المتأخرة الفرصة لتلقّيها على وجه صحيح، ويدرسها في شكل قويم، ويقتطف منها مقتطفات تزدهر بها الحياة وتعلو بها النفوس وتسمو بها الهمة. وهناك عديد من الدواعي إلى هذا التبديل والتحريف، منها الحزبية المذهبية، والحرص على دعم الفرق الطائفية وغيرهما.

ومن جملة هؤلاء الرجال الذين تعرضت سيرتهم للتحريف الظالم والتبديل الغاشم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث اتهمه الشيعة بكثير من التهم، وقبحت وجهه

^١ الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص: ١٣٣

الصحيح وشوهرته. وحاول الندوي القيام بتنقيح سيرته مما علق بها من غبار الكذب، وتصفية ترجمته مما امتزج بها من أكاذيب التهم، معتمدا على ما رآه أصح الروايات وأهم المؤلفات. وقال الدكتور محمد اجتباء الندوي: "لقد أبان المؤلف عن وقائع سيرة الإمام علي رضي الله عنه، وأزاح الغيوم المتراكمة، وأزال التهم والافتراءات والأوهام والأباطيل والخزعبلات التي أحاطت بشخصيته الجليلة الربانية الطاهرة"^(١).

دوافع تأليف الكتاب

إن هناك كثيرا من الأمور التي دفعت الندوي إلى وضع هذا الكتاب الشهير والقيام بهذه المهمة التاريخية، ومن أهم تلك الدوافع:

أ) الطلب الصادق: ومن دوافع تأليف هذا الكتابِ الطلبُ الصادق من جهة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسيني، ولكن لم يوفق الندوي لتأليفه إلا بعد وفاة الأخ، - طلبه منه في أواخر الخمسينيات، وتوفي في سنة ١٩٦١ م، ولم يقدر على التأليف إلا في سنة ١٩٨٨ م- ولكن طلبه هذا كان الدافع الأكبر إلى القيام بهذه المهمة. وقال عن هذا الدافع: "ذات يوم (في الخمسينيات الأخيرة من القرن الميلادي الجاري) قال لي أخي الأكبر وصاحب الفضل في تثقيفي وتربيتي - وقد توفي والدي رحمه الله وأنا ابن تسع سنوات- الدكتور السيد عبد العلي الحسيني بصوت شجي: "عليك يا علي، بتأليف كتاب في سيرة سيدنا علي رضي الله عنه، وأنت جدير بذلك قدير عليه"، قال لي ذلك، وقد ألفت عدة كتب في سيرة الرجال العظماء، والدعاة إلى الله والمصلحين والمجاهدين..."^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ١٣٤

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م، ص: ٨، ٧.

وكذلك طلب منه الأديب المشهور عبد الماجد الدرايبادي أن يصنف مصنفًا في سيرة علي رضي الله عنه العطرة، ولكنه لم يتمكن منه إلا بعد سنين. وقال عنه الدكتور محمد أكرم الندوي: "... ولم يكن هناك بحث جاد ولا دراسة مركزية أمينة محايدة، فسأل الكاتب الكبير عبد الماجد الدرايبادي الشيخ الندوي أن يؤلف كتابا عنه، ولكن تأخر الأمر لأعمال ومشاريع متراكمة، إلى أن تم صدور الكتاب في ١٤ شوال عام ١٤٠٨ هـ على مستوى رفيع قيم، ودراسة علمية محايدة، وكان مرآة صافية واضحة جليلة لشخصية سيدنا علي المرتضى رضي الله عنه التي كانت خبيئة تحت سحب كثيفة، ..." (١).

(ب) فكرة تأدية واجب تاريخي: يجب على العالم الرباني أن يؤدي واجباته تجاه الدين والمجتمع وأفراده حق تأدية، وكانت في قلب الندوي فكرة أن سيرة علي رضي الله عنه لم تُصوّر عبر بعض الكتب أمام القراء أقوم تصوير، ولم تعرض أمامهم حق العرض، ولم ينصف لها الإنصاف الكامل اللائق، ولكنها عرضت أمامهم مع خلط المخالطين وغلط الغالطين وكذب الكاذبين، وكانت هذه الفكرة تنشأ في قلب المؤلف منذ سنين. فلها أيضا دور فعال في تأليف هذا الكتاب، وقال الندوي عن ذلك الشعور الملح: "ومن هذه الشخصيات المظلومة أو المهضومة حقها، شخصية سيدنا علي بن أبي طالب التي تراكمت عليها حجب كثيفة على مدى القرون والأجيال لأسباب مذهبية طائفية ونفسية، ولم ينصف لها حق الإنصاف، ولم تعرض للداريين والباحثين وحتى للمحبين المجلين في صورتها الحقيقية، وإطارها الواسع الشامل، ..." (٢).

^١ الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م، ص: ٤٩٣

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م، ص: ٦

ج) قلة كتب مستقلة في سيرته في المكاتب العربية: ومما أداه إلى هذا التأليف شعوره بأن المكتبات العربية تعاني قلة كتب مستقلة في سيرة علي رضي الله عنه الصحيحة السديدة، ليستفيد منها القراء ويمثلها، وقد أعجبت هذه القلة وأدهشته، حتى لم يجد مراجع مفردة في هذا الموضوع لتأليف هذا الكتاب إلا النزر اليسير، وهذا الشعور أيضا ألح عليه بالقيام بالتأليف في سيرته على وجه صحيح.

أغراض تأليف هذا الكتاب

أقبل العلامة الندوي على تأليف "المرتضى" بعدة أغراض، منها:

أ) تصوير السيرة الصادقة لعلي بن أبي طالب: تبيّن مما مضى أن من دواعي تأليف هذا الكتاب فكرة تأدية الواجب العلمي التاريخي، فكان الغرض الأهم والمقصد الأول من هذا العمل العلمي هو تصوير حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وجه صادق يلائم الروايات الصحيحة وما ورد في الكتب القديمة المعتمدة، منقحة مهذبة. ونجح في هذا المضمار التألّفي أي نجاح، وتلقى العالم العربي هذا الكتاب بقبول حسن حتى تمت ترجمته إلى عدة لغات مثل الإنجليزية والإندونيسية والتركية والأردية والفارسية.

ب) وضع سجل تاريخي صحيح: وضع الندوي خطوته في هذا التأليف قاصدا أن يكون تراثا علميا للأجيال القادمة، وسجلا معتمدا تستفيد منه الأجيال اللاحقة، واستعراضا تاريخيا طويلا، كما قال: "وبذلك جاء الكتاب استعراضا تاريخيا طويل المدى واسع الأرجاء، ومساهمة متواضعة في عرض سيرة رجل كبير من كبار الجيل الإنساني، وخريجي مدرسة النبوة المنجبة"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ١١

ج) نقد بعض المعتقدات الباطلة: ومن أغراضه بهذا العمل الكبير أن ينقد بعض الأباطيل المتعلقة بسيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأكاذيب الشائعة في العالم، والمعتقدات الفاسدة، ولكن قام المؤلف بهذه المهمات بأسلوب لين، وكلمات غير مؤلمة، وعبارات غير موجهة، وقال الندوي عن هذا النقد في مقدمة الكتاب: "وتعرض في آخر الكتاب - مضطرا محتسبا - لنقد بعض العقائد والنظريات التي استخدم فيها أصحابها انتصارهم لأهل البيت وذرية سيدنا علي، وهي دخيلة على الاسم منبثقة من الفلسفات العجمية والشعبية والإقليمية، ومن رواسب الحضارات والنظم الدينية القديمة، والإسلام بريء منها"^(١).

ولكن الشيعة لم يتقبلوا هذا الكتاب قبولا حسنا، ولم يرحبوا به، ولم يكونوا مستعدين لتبديل آرائهم وتصحيح معتقداتهم، بل أرسل بعض أنصارهم العديد من الرسائل إلى الندوي في لغة موجهة طاعنة، وقال عنها: "ولكن لم يكن رد الفعل في الطائفة الشيعية - في ما يختص بهذا الكتاب - رد فعل هادئ يشتمل على نقد موضوع بناء، وعلى شيء من الاعتراف والتقدير والترحيب بكتاب ينصف الإمام عليا كرم الله وجهه، ويوفيه حقه من العظمة والعبقرية والنزاهة وسمو النفس، وإيثار المصلحة الإسلامية على كل مصلحة، وقد تلقى المؤلف رسائل قاسية عنيفة كتبت في لغة لاذعة ساخرة طاعنة في الكتاب ومؤلفه، والجماعة [يعني جماعة التبليغ والدعوة التي كان الندوي من أنصارها] التي ينتهي إليها، تنم عن سخط وامتعاض كبيرين، وتدل على أن العصبية الطائفية تعمي وتصمم، وتمنع عن الإنصاف، وبضع الأشياء في محلها"^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ١١، ١٠.

^٢ الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج: ٢، ص: ٢٤١.

قصة تأليف الكتاب وتدشينه

رغم وجود الدوافع الكثيرة المذكورة وغيرها، والمطالبات المتواصلة من طرف محبيه لم يتهيأ في أول الأمر لتأليف هذا الكتاب، لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دقة العمل العظيمة، وإلى الصبر الجميل عند مواجهة الاستهزاء والاستذلال.

ولكن في نهاية المطاف عزم على التأليف وبدأ الكتابة متوكلاً على الله وهو في الرابع والسبعين من سنه عام ١٩٨٨م، كان يتفرغ لهذا العمل الشاق في هذه الفترة، وبدأ يقرأ عدداً من الكتب التاريخية، ويراجعها، ويقتطف منها مقتطفات، وبعد ما فرغ من هذه القراءة الواسعة بدأ إملاءه، وكانت هذه العملية في بيت الوجيه شاه نواز ملك، والشيخ أبي البركات الندوي في مدينة "إندور" الهندية، - وهي في ولاية "مدهيا برديش" - والذي وفر المرافق الأساسية للتصنيف وأعد التسهيلات اللازمة للتأليف والمنشآت الضرورية للكتابة هو صديقه الكريم الشيخ محمد معين الندوي.

ثم انتقل إلى قريته "رائي بريلي" و"لكهنؤ" راجعا من "إندور"، وأكب على إملاء الكتاب حتى استغرق ثلاثة أشهر كاملة (١ مارس ١٩٨٨م - ٣١ مايو ١٩٨٨م) وأخيراً أتم هذا التأليف في بيت الحاج غلام محمد في "مومباي" وفرغ منه نهائياً في ٣١ مايو ١٩٨٨م.

أما تدشين كتاب "المرتضى" فأقيم في حفلة عقدت في (Ganga Parshad Memorial Hall) بلكهنؤ، بعد خمسة شهور من إكمال تأليفه في ٦ من نوفمبر ١٩٨٨م. وعقدت تلك الحفلة التدشينية وفق طلب الدكتور محمد يونس النجرامي الندوي واقتراحه، وأقيمت الحفلة تحت رئاسة السيد منة الله الرحماني الذي كان حينذاك الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند.

وقال عن هذه الحفلة: "وهو [الشيخ السيد منة الله الرحماني] الذي فتح غلاف هذا الكتاب وقدمه إلى المؤلف أمام الحاضرين كما جرت العادة في حفلات التدشين، وحضره صفوة ممتازة من العلماء والكتاب، وأساتذة الجامعات وممثلي المراكز والهيئات والجمعيات الإسلامية من جميع أنحاء البلاد، وغصت القاعة بالمستمعين على سعتها، يذكر من المحاضرين عن هذا الكتاب - كتابةً وخطابةً - معالي الشيخ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الحكومة المركزية للهند، والمؤرخ الكبير البروفسور خليق أحمد نظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكراه الإسلامية، ونائب رئيسها وسفير الهند في سوريا سابقاً، والباحث الكبير الأستاذ ضياء الحسن فاروقي رئيس مؤسسة ذاكر حسين للبحث والدراسة في الجامعة الإسلامية في دلهي، وفضيلة الشيخ ضياء الدين الإصلاحي مدير دار المصنفين في أعظم كره، والأديب الكبير خواجه أحمد فاروق الأستاذ [كذا] جامعة دلهي سابقاً"^(١).

معالم "المرتضى"

يتميز هذا الكتاب بمزاياه الكثيرة، ويختص بمعالمه العديدة، وهذه المزايا وتلك المعالم هي التي رفعتة إلى أوج شهرته وقمة رواجه، منها على سبيل المثال:

أ) ذكر العبر والعظات: لم ينس الندوي ذكر العبر العظيمة في بعض الحوادث المذكورة في الكتاب، وذكر العظات الجسيمة فيها، وهذا يدل على حرص الكاتب على القيام بنصح الأمة وتأدية الأمانة. وقال عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي: "فنجده يتحدث في كتابه (المرتضى) عن سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذلك بإسهاب

^١ نفس المرجع، ص: ٢٤١

يقف عند مراحل حياته كاملة، ويقتطف منها الدروس والعبر من خلال أسلوب أدبي رائع" (١).

ب) إيراد الآيات والأحاديث: ومما يجعل هذا الكتاب معتمداً عليه ما أورد فيه المؤلف من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تلائم الموضوع، وتوافق السياق، وتساند الأراء السديدة، وتقوي المعتقدات الصحيحة، وهذا يزيد قيمته العلمية ويرفع أمانته التأليفية.

ج) وضع العناوين الدالة على الموضوعات: وضع المؤلف لكل فصل من هذا الكتاب العناوين الدالة على نقاط مناقشاته ومسائل بحوثه، وبهذه العناوين يقدر القارئ على حصول صورة إجمالية لماهية تلك العناوين.

د) ذكر النقاط الهامة تحت العناوين: ومما يتميز به هذا الكتاب أن النقاط المهمة التي تتناول تلك العناوين مذكورة في بداية كل فصل بعد العنوان، وذلك بعد العنوان وقبل الخوض في النقاش، وبمجرد قراءة هذه النقاط فقط تتبين للقارئ خلاصة الكتاب ومجال البحث في كل فصل من فصوله.

هـ) سرد السيرة المختصرة للخلفاء الثلاثة: هذا الكتاب يشتمل على أحداث الحياة الهامة للخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم مع اشتماله على سيرة علي رضي الله عنه.

و) تصوير حياة نجليه: لم يقتصر الندوي سرد هذه السيرة على بيان سيرة علي رضي الله عنه، بل تجاوز إلى تصوير ابنه الحسن والحسين رضي الله عنهما، وإلى بعض أخلافهما.

^١ الوشحي، عبد الله بن صالح بن سليمان، جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي (قراءة تصحيحية) مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص: ٤٨٠

ز) نقد عقيدة الإمامية عند الشيعة: إن بعض الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب تعالج عقيدة الإمامية عند الشيعة، وتردُّ على عقائدهم الباطلة، وتدحض أكاذيبهم الفاشية.

ح) بيان الحكمة الإلهية في ترتيب الخلفاء الراشدين: خلال عرض سيرة علي رضي الله عنه يعرب المؤلف عما رآه من الحكم الربانية في ترتيب الخلفاء الراشدين المهديين.

ط) الاعتماد على الكتب الموثوق بها: اعتمد الندوي في تأليف هذا الكتاب على الكتب الموثوق بها، وما رآه صحيحا من الروايات، وتجنب ما رآه من الروايات الضعيفة والقصاص الموضوعية، ليكون تصوير حياة علي رضي الله عنه مصونة من الافتراءات والاختلاقات.

ي) ذكر المصادر والمراجع: اقتبس المؤلف كثيرا من المقتبسات من عدة مصادر تاريخية، واقتطف كثيرا من المقتطفات من كتب كثيرة، ولم يقتبس من تلك المصادر والمراجع إلا وذكر أسماءها وأجزائها وصفحاتها ومطابعها، إذ لا يذكرها كثير من الكُتاب.

وهاتان الميزتان تزداد بهما درجة الكتاب العلمية ومكانته الأصلية، وقال هو نفسه عن هاتين النقطتين في مقدمته: "ولا بأس بالإشارة إلى أنني التزمت في تأليف هذا الكتاب مبدئين كل الالتزام، أولا أن أعتمد على الكتب القديمة الموثوق بها المتلقاة بالقبول فقط، ثانيا التزمت الإحالة في النقل إلى اسم الكتاب بقيد الجزء ورقم الصفحة واسم المطبعة، وخلافا لكثير من المؤلفين المعاصرين الذين لا يرون حاجة إلى الإحالة إلى الكتاب المنقول عنه، فضلا عن رقم الصفحة والإشارة إلى الطبعة والمطبعة"^(١).

^١ الندوي، أبو الحسن علي، مقدمة كتاب المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص: ١١

ك) ذكر بعض الحكم المشهورة المنسوبة إليه: كان علي رضي الله عنه خطيباً مصقعا اشتهر بفصاحة لسانه ونصاعة بيانه، وصاحب حكم بليغة وأمثال طنانة، - ولا ينسى الباحث أن هناك كثيرا من الحكم الشهيرة تنسب إليه وليست بينها وبينه علاقة ما - فجاء الندوي بعدة حكم عظيمة في هذا الكتاب خلال تصوير حياته.

ل) قبولية الكتاب: حاز كتاب "المرتضى" مكانا مرموقا عند المشغوفين بالسيرة الصحيحة لعلي رضي الله عنه، وتلقوه بالأيدي المفتوحة والقلوب الرحبة، ومما يدل على تلك القبولية ما تعرّض للنقل إلى عدة لغات، كما قال الدكتور محمد اجتباء الندوي: "وقد حظي الكتاب بقبول حسن، ونُقل إلى اللغات الدولية والمحلية الكثيرة مثل: الأردية، والفارسية، والتركية، والإنكليزية، والأندونيسية"^(١).

^١ الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ١٣٥

الفصل الثاني

ملخص الكتاب

يتكون هذا الكتاب من عشرة فصول كما مضى، الفصل الأول هو "علي بن أبي طالب في مكة - من الأسرة والولادة إلى الهجرة"، ومن أهم الموضوعات المعالجة فيه:

- أهمية الأسرة وتأثيرها الإيجابي على الأجيال التالية، وموقف الإسلام من هذا التأثير، ومنزلة قبيلة قريش، وأحوالهم الاجتماعية والدينية، وتعظيمهم لبعض الشعائر، وابتعادهم عن بعض الفواحش.
- مكانة بني هاشم في المجتمع العربي، وتعظيمهم للكعبة وبعدهم عن الجور والظلم، وقرهيم من الرحمة والعطف.
- المكانة المرموقة التي حازها عبد المطلب جد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المجتمع، وما قام به من أعمال الخير مثل السقاية والرفادة وإدارة بئر زمزم، وما كان يتصف به من الصفات الحميدة.
- بعض أحداث حياة أبي طالب من كفالة الرسول ﷺ، وحبه الشديد له، وحفظه وصونه له من قريش، وما كانت تهتم به فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب من أمور الرسول ﷺ، وما كان الرسول ﷺ يحترمها ويوقرها.
- بيانات إخوة علي رضي الله عنه، وهم ثلاثة إخوان وأختان: طالب، وعقيل، وجعفر، وأم هانئ وجمانة.
- ميلاد علي رضي الله عنه قبل بعثة النبي ﷺ بعشرة أعوام على القول الراجح، وكفالة النبي ﷺ له، وإسلامه في عمره التاسع، وبعض الأحداث الهامة المتعلقة بإسلامه.

- هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ومساعدات علي رضي الله عنه التاريخية عليها بتهيئة بيئة الخروج، ثم هجرته إليها متبعا الرسول ﷺ، مبتغيا وجه الله.

الفصل الثاني هو "علي في المدينة - من الهجرة إلى وفاة رسول الله ﷺ"، وأهم محاور هذا الفصل هي:

- ما آخى الرسول ﷺ بين علي وسهيل بن حنيف رضي الله عنهما، وما تزوج من فاطمة رضي الله عنها، وقصة خطبته، وما عانى هو وزوجته وولداه من ضيق العيش ومرارة الفقر، وما حاول محاولة بالغة لإيجاد الراحة في قلب الرسول ﷺ لما أصابه الفقر، وما لقبه ب"أبي التراب"، وسبب هذا التلقب.
- دور علي بن أبي طالب في غزوة بدر، وما بارز الوليد بن عتبة، ودوره في غزوة أُحُد، وما قدم فيها من الخدمات الجسيمة للنبي ﷺ عندما جُرح، ودوره في غزوة الأحزاب، وقتله عمر بن عبد ودّ، وصلاح الحديدية وما قام به فيه من كتابة الصلح حسب توجيهات الرسول ﷺ، ودوره في غزوة خيبر، وما ولاه الرسول ﷺ الراية.
- إيمان علي رضي الله عنه الثابت، وما خلفه الرسول ﷺ على أهله عند غزوة تبوك، وقوله له: "أفلا ترضى أن تكون مني منزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي"^(١).
- تاريخ وفاة النبي ﷺ المختصر.

الفصل الثالث هو "سيدنا علي في خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما"، يتضمن هذا كثيرا من مجالات البحث، منها على سبيل المثال:

^١ الندوي، أبو الحسن علي، المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص: ٥١

- أحوال الديانات السائدة قبل بعثة النبي ﷺ ومصيرها، مثل أديان اليهود والنصارى والبرهمية والزارادشية.
- الشروط التي يجب توافرها فيمن يتولى خلافة رسول الله ﷺ، من الثقة بالرسول ﷺ والإيمان به، والتحمل عند الشدائد، والعلم الدقيق والتفقه العميق، والغيرة على الإسلام، والرغبة الشديدة في تنفيذ رغبات الرسول ﷺ، والتقوى والورع والزهد، وبيان أن أبا بكر رضي الله عنه كان متصفا بهذه الصفات كلها، ومستوفرا هذه الشروط كلها، مع ذكر الأمثلة من صفحات تاريخ حوادثه.
- اختيار أبي بكر رضي الله عنه كالخليفة الأول، ومبايعته وخطبته التاريخية عقب تولي الخلافة.
- الفتن العاشية والمحن العاشمة التي واجهها أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الراشد الأول فور توليه الخلافة، والإجراءات التي اتخذها لإخماد نارها وإطفاء شعلها.
- الحكمة الربانية في تأخير تولي علي رضي الله عنه للخلافة، وقال المؤلف في هذا الموضوع: "وكان من تقدير العزيز العليم أنه لم يخلف رسول الله ﷺ في ولاية أمر المسلمين ولم يتول خلافته على أثر وفاته أحد من أهل بيته وأبناء الأسرة الهاشمية مباشرة ومن غير تراخٍ، وخلفه - ﷺ - أبو بكر وهو من بني تيم، وخلف أبا بكر عمر بن الخطاب وهو من بني عدي، وخلفه عثمان بن عفان وهو بني أمية، ثم آل الأمر إلى علي بن أبي طالب حين لم يكن في المسلمين ولا في أصحاب رسول الله ﷺ أفضل منه، ولا أقدر على حمل أعباء الخلافة وأجدر بها، فزال الالتباس وانقطعت ألسنة الناس، فما بقيت القضية قضية أسرية وقضية محسوبة وعصبية، إنما كانت القضية قضية جدارة واستحقاق،

وكفاءة وقدرة، لا غبار عليها ولا مجال لطعن طاعن وقدح قادح، وكان أمر الله قدراً مقدوراً^(١).

- صفات فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وقصة مبايعة علي لأبي بكر رضي الله عنهما، وتعاونه معه بالإخلاص التام، وثناءه عليه بعد وفاته، وأعمال أبي بكر رضي الله عنه الممتازة كخليفة.

الفصل الرابع هو "سيدنا علي في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنهما"، عرض الندوي في هذا الفصل موضوعات هامة، منها:

- اختيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة ثانياً، واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه له، والصفات الحميدة التي كان يتصف بها، واستحقاقه للخلافة، وما كان في عهده من التقدمات والأعمال الخيرية، وما قام به من النشاطات الجليلة كخليفة.
- ما أشاد بعض المشهورين من المتأخرين كُتاباً وأدباء وعلماء بمميزات خلافته.
- عرض إجمالي لما قام به عمر بن الخطاب رضي الله عنه من توسيع الدولة الإسلامية وفتوح البلدان.
- تعاون علي رضي الله عنه مع عمر رضي الله عنه، وكونه كناصح أمين له وقاض حكيم في القضايا الصعبة، حتى قال عمر رضي الله عنه: "لولا علي لهلك عمر".
- رحلات عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الأقصى وإلى الشام وقد استخلف علياً في أمور الحكم.
- تعظيم عمر رضي الله عنه لآل الرسول ﷺ.

^١ نفس المرجع، ص: ٨١

- قصة مقتل عمر رضي الله عنه وشهادته بيَدِ أبي لؤلؤة المجوسي في سنة ٢٣ هـ، وقصة دفنه مع صاحبيه، وثناء علي بن أبي طالب عليه، والبكاء الشديد عليه حتى قال مجيبا عن سائل: "أبكي على موت عمر، إن موت عمر ثلثة في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة".

الفصل الخامس هو "سيدنا علي في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنهما"، والنقاط الهامة التي يتناولها المؤلف في هذا الفصل هي:

- القصة الطويلة لاختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفة ثالثا، والدور الكبير لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في عمليات هذا الاختيار.
- اهتمام عثمان بن عفان رضي الله عنه بالأمر الديني والاجتماعية، وذكر ما قام بالصدقات الغالية والتبرعات الطائلة عند حلول الشدة بجيش المسلمين بثلاث مائة بعير، حتى قال الرسول ﷺ: "ما على عثمان ما عمل بعد هذه شيء"، واشتراؤه بئر معونة بعشرين ألف درهم، ووقفها على أهل الإسلام.
- تزوجه من رقية بنت الرسول ﷺ، ثم من أم كلثوم بعد وفاة الأولى، ولقبه ب"ذي النورين" إشارة إلى هذين الزوجين.
- دور عثمان بن عفان في صلح الحديبية، وقصة بيعة الرضوان.
- توسيع الدولة في عهد عثمان والفتوحات الإسلامية التي بلغت مبلغا عجيبا، وما قام به من الأعمال الخيرية مثل إنشاء الشوارع، وغرس العديد من الأشجار المثمرة، وتأمين الطرق والتجارة وغيرها.
- ما قام عثمان بن عفان رضي الله عنه بجمع الناس على مصحف واحد وقراءة واحدة.

● الفتن والمحن التي واجهها هذا الخليفة الثالث، ودواعيها وأسبابها ووصولها إلى شدتها.

- دور علي بن أبي طالب رضي الله عنه في منع الظالمين وصون أمير المؤمنين.
- بيان الظلم الغاشم الذي تعرض له عثمان بن عفان رضي الله عنه من الأعداء، والمحاصرة المريعة، حتى استشهد سنة ٣٥هـ، وما قام علي رضي الله عنه بالنشاطات المرموقة ليحفظ بها الخليفة ويصونه من المحاصرين.

الفصل السادس هو "سيدنا علي في خلافته"، مباحثه:

- تاريخ مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وما قام به من الخطبة المشهورة عقب المبايعة.
- الفتن والمحن التي واجهها علي رضي الله عنه في عهد خلافته، ومحاولته لإخمادها.
- حرب الجمل، وما كان بها من الخسارة العظيمة للأمة المسلمة، ومعاملته مع عائشة رضي الله عنها في التعظيم البالغ والتوقير الوافر.
- حرب صفين، والأحداث المحزنة التي وقعت فيها.
- كلام موسع عن الخوارج، ودواعي خروجهم، وأصول معتقداتهم، وخصوصياتهم، وما سمو أنفسهم بـ"الشرارة".
- كلام مفصل عن السبئية - هم أتباع عبد الله بن سبأ - وبطلان عقائدهم، وغلوهم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفصل السابع هو "سيدنا علي إزاء الخوارج وأهل الشام إلى شهادته"، يصور هذا الفصل بعض الحوادث الهامة التالية:

- المحن التي واجهها علي بن أبي طالب من جهة الخوارج، وإخماد بعضها سنة ٣٨ هـ بالنهروان.
- ذكر بعض خطبه رضي الله عنه تحثُ أتباعه على قتال من قاتلهم.
- القصة الطويلة لاستشهاد علي بن أبي طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ، وقال المؤلف عنه: "واستشهد سيدنا علي يوم الجمعة سحرا لسبع عشرة خلت من رمضان من سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة على الصحيح، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وصلى عليه ابنه الحسن ودفن بدار الإمارة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته"^(١).
- بيان واضح عن أولاد علي بن أبي طالب.
- أقوال بعض العلماء والأدباء تمدح فصاحة علي رضي الله عنه في الكلام وبلاغته في التعبير وطلاقته في اللسان.
- ذكر عشرين حكمة من حكمه الكثيرة المشهورة، ومقتبسات من كلامه الرائع في التأنيب والعتاب.
- وقال المؤلف عن شعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ولسيدنا علي - كرم الله وجهه - ديوان شعر مشهور، يتمثل بأبياته كثير من الناس، ولم يزل النقاد يشكون في صحة كثير مما احتوى عليه، وبعضه نازل عن مستواه"^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ١٦٨

^٢ نفس المرجع، ص: ١٧١

الفصل الثامن هو "سيدنا علي بعد الخلافة"، يتناول المؤلف في هذا الفصل عدة موضوعات أهمها:

- بيان مفصل لأخلاق علي رضي الله عنه الحميدة وسجيته الطيبة من العدل والعلم والجود والتواضع والعفو والورع والتقوى وغيرها.
- بيان زهده وحياته البسيطة مستدلاً عليها بذكر بعض أحداث حياته، منها ما اقتبس من كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير: "وعن مجّع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسيفه إلى السوق، فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم اشتري بها إزاراً ما بعته"^(١).
- معاملته الكريمة مع الناس على اختلاف درجاتهم، خاصة مع عامة الناس، وما كان يأمر جباة الخراج والزكاة بأخذ المال من الناس مع احترامهم وتوقيرهم.
- ما قام به من التربية مع كونه أمير المؤمنين، وكان يأمر التجار بإيفاء الكيل، والعمال بالعدل والإنصاف وتجنب التبذير.
- ما كان يتصف به حكم علي بن أبي طالب من مراعاة المبادئ الإسلامية والقيم الدينية، كما فعله سابقوه من الخلفاء الراشدين.
- كلمات إجمالية حول معاوية رضي الله عنه، والمجتمع الإسلامي.

الفصل التاسع هو "سيّد شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما"، يحتوي على مباحث كثيرة مهمة منها:

- ذكر مناقب ومحاسن الحسن بن علي رضي الله عنهما، ومكانته في قلب رسول الله ﷺ، وفي قلب علي رضي الله عنه، وبعض معاملات النبي ﷺ معه التي تظهر حبه له وعطفه عليه.

^١ نفس المرجع، ص: ١٨٠.

- مبايعة الحسن رضي الله عنه بالخلافة، وخروجه إلى الشام ليقاتل أهلها بعد إجحاح قيس بن سعد بن عبادة الشديد عليه فيه، وبيان الاضطرابات الشديدة التي وقعت هناك، وما وقع في نهاية المطاف من الصلح مع معاوية رضي الله عنه، والتنازل له عن الخلافة في وقت لائق، وما سمعه الحسن من أصحابه من كلمات شنيعة، وما واجهه منهم من معاملات عنيفة بسبب هذا الصلح وذلك التنازل، -عُرف العام الذي تم فيه هذا الصلح وذلك التنازل ب"عام الجماعة" وكان ذلك في عام ٤١هـ-.
- شهادة الحسن رضي الله عنه بعد أن سُقي سمًا في سنة ٥٠هـ.
- تقديم الحجج العقلية الشافية لصواب موقف الحسن في الصلح مع معاوية رضي الله عنهما تجنبًا لإراقة دماء المسلمين.
- ذكر بعض مناقب ومحاسن الحسين بن علي رضي الله عنهما، وصورة ملخصة لأخلاقه الحميدة ومعاملاته المحمودة، وسرد تاريخ حياته المختصر.
- تاريخ مبايعة يزيد بن معاوية بالولاية.
- صورة مصغرة لأعمال يزيد الخاطئة وأخلاقه السيئة، حتى ذكر شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش، مع ذكر ما كان فيه من بعض المحاسن مثل الجود والكرم والشجاعة والحلم وغيرها مقتبسًا من بعض الكتب القديمة.
- بيان مطول لتاريخ "كارثة كربلاء" المحزنة، ومقتل الحسين رضي الله عنه واستشهاده في سنة ٦١هـ في عمره الرابع والخمسين.
- تاريخ واقعة الحرة في سنة ٦٣هـ..
- موت يزيد بن معاوية في سنة ٦٤هـ.
- ذكر آراء بعض علماء أهل السنة عن واقعة كربلاء واستشهاد الحسين، حيث ذكر فيه آراء كل من الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ

أحمد بن عبد الأحد السرهندي، والشيخ عبد الحق الدهلوي، والشيخ ولي الله الدهلوي، والشيخ عبد العلي بن نظام الدين الأنصاري.

الفصل العاشر "سادة آل البيت وأولاد علي"، ومن مباحث هذا الفصل:

- عرض سيرة أولاد علي والحسن والحسين رضي الله عنهم بعد حادثة كربلاء، ومحامدهم ومناقبهم، وأخلاقهم من العفة والكرم الورع وغيرها من السجيات الحسنة، وكراهيتهم للغلو في مدحهم وحبهم.
- ذكر موقفهم الصحيح العادل من الخلفاء الراشدين الثلاثة، وذكر اعترافهم بفضلهم ومكانتهم واستحقاقهم للخلافة.
- ذكر المساهمات الجليلة التي قام بها المنتمون إلى أسرة علي رضي الله عنه في مجال الدعوة الإسلامية في أنحاء شتى.
- إظهار بطلان "عقيدة الإمامية" عند الشيعة، وغلوهم في حب علي بن أبي طالب وأبنائه، وقال واصفا هذه العقيدة الباطلة: "إن حجة الله لا تقوم على خلقه بدون الإمام، وإن هذا لا يتم ما لم يُعلم به، إن الدنيا لا تقوم بدون الإمام، إن معرفة الأئمة شرط للإيمان، وإن طاعة الأئمة واجبة كطاعة الرسل، وإن الأئمة لهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها، وإنهم معصومون مثل الأنبياء، إن المؤمن بالأئمة المعصومين من أهل الجنة وإن كان ظالما وفاسقا وفاجرا"^(١).
- تطور هذه العقيدة الفاسدة عبر العصور، حتى عصر المؤلف، وتأثيرها السيئ في إيران.

^١ نفس المرجع، ص: ٢٤٥

الفصل الثالث

تقييم الكتاب

إن قيمة أي كتاب تتوقف على موضوع معالجته، وأسلوب عرض مضمونه، وتنظيم محتواه، وقوة تأثيره على القراء، ومدى جذب عواطفهم وعقولهم، ولا يتم تحليل أي عمل تألّيفي إلا بمناقشة عناصره التي ساهمت في إيصاله إلى علو القيمة ورفعِهِ إلى سمو الجودة، ففي هذا الصدد يعالج هذا الفصل ما لـ "المرتضى" من القيمة العلمية والأدبية، ويحلل درجتها في الشكل والتنظيم والأسلوب والتأثير على النحو التالي:

أولاً: مناقشة في تنظيم الكتاب

ألف العلامة الندوي هذا الكتاب في تنظيم موضوعي لا موسوعي، ورتبه ترتيباً زمنياً، حيث بدأ بسرد تاريخ أسرة علي بن أبي طالب العريقة وتراجم أجداده الأصيلة، وفصل أحوال حياته في مكة قبل الهجرة، ثم تدرج شيئاً فشيئاً إلى حياته في المدينة المنورة بعد الهجرة، ثم حياته حتى وفاة الرسول ﷺ، ثم إلى حياته في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة - أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم - فانتقل إلى أحداث حياته في خلافته نفسه حتى استشهاده، فهذا الترتيب المبدع يساعد القارئ على متابعة الكتاب وما فيه من الموضوعات.

ومما يُرى في كثير من كتب السير والتراجم أنها تختتم بذكر موت أو مقتل أو شهادة الرجل المترجم، لكن الندوي تكلم عن شهادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الفصل السابع من هذه الفصول العشرة من هذا الكتاب، ولم يختتم عرض حياة ذلك الخليفة ولم يكتف به، ولكنه دخل إلى مزيد من العرض والبيان حيث جعل الفصل التالي

بعنوان "سيدنا علي بعد الخلافة" موضع نقاش للبيانات الكافية حول سماته الشخصية ومساهماته التربوية والإصلاحية.

ومما يجدر بالذكر في هذا المضمار ما صور المؤلف التاريخ الموجز للفترة التي عاش فيها علي بن أبي طالب خلال عرض سيرته، لأن مجرد سرد أحداث حياة أي شخص بدون ذكر بيئة حياته وأحوال عيشه سرد ناقص لا يقدر القارئ على الاستفادة منه أكثر، أما إذا تم عرض بيئته مع بيان وقائع حياته فهو أيسر الطرق وأسهل الوسائل للتعرف على هذه الشخصية، فإن الندوي بين بيئة علي بن أبي طالب التي نشأ وترعرع فيها أجمل بيان مع ذكر أحداث حياته. وهذا الجانب أيضا يشيل مكانة الكتاب ويجل قيمته، ومن أمثلة هذا النوع من التصويرات ما ذكر في الفصل الثالث من هذا الكتاب المعنون بـ "سيدنا علي في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما" من العرض الطويل للأحداث الكثيرة الواقعة في عهد خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ولم يكتب المؤلف بسرد أحداث متعلقة بعلي بن أبي طالب في خلافة الصديق، ولكن عالج التاريخ المختصر للبيئة الدينية التي تولى فيها الصديق الخلافة، وتفصيل الشروط التي يجب توافرها في خليفة رسول الله ﷺ، واستحقاق الصديق الخلافة بتوافر هذه الشروط، وتاريخ مبايعته بعد التشاور الشهير الطويل، وسرد خطبته بعد الخلافة، والمحن الشديدة التي واجهها الخليفة في أول أمر خلافته. وبعد هذا الكلام الطويل دخل المؤلف إلى معاملات علي رضي الله عنه مع الخليفة، وما إلى ذلك من أحداث حياته في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. - إلا أنه يتكلم خلال هذا التاريخ الطويل جانبا صغيرا من أحداث حياة علي رضي الله عنه. -

ومثال آخر لهذا السرد التاريخي خلال عرض سيرة علي بن أبي طالب ما يتكلم عن حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الفصل الرابع المعنون بـ "سيدنا علي في خلافة

سيدنا عمر رضي الله عنهما" حيث يناقش فيه مبايعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة، والتقدمات والتوسعات في مجال الخلافة والإدارة وما شابهها. وبعد هذا الكلام المفصل يعرض حياة علي بن أبي طالب. ومن هذين المثاليين وأمثالهما يتبين أن الندوي اهتم بعرض التاريخ الذي يوضح البيئة التي عاش فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما تتبين كيفية تنظيم الكتاب لموضوعاته.

ثانيا: مناقشة في أسلوب الكتاب

كما يلوح لكل من يتصفح كتب العلامة الندوي أنها في أسلوب سهل لا يمل القارئ ولا يجهد المستفيد منها، هذا الكتاب أيضا لا يخلو من الأسلوب الرائع والتصوير البديع، والتأثير الواقع في القلوب. أُلّف "المرتضى" في أسلوب يتمتع به القراء، ويحسون كأنهم يعايشون تلك العصور المعالجة فيه، لأن المفردات المستعملة فيه والكلمات الواردة كلها في أسلوب فائق، كيف لا، وكان الندوي أدبيا عرف أن للألفاظ درجة الحرارة كما لها درجة البرودة، وعالما اشترط هذه المعرفة على من يؤلف في تصوير حياة شخص وكتابة ترجمة إنسان؟ وتبرز مهارته في اختيار الكلمات اللائقة وموهبته في وضعها في المواضع الجديرة في هذا الكتاب.

ومما يدل على هذه الجماليات اللغوية في الألفاظ والعبارات ما قاله واصفا غروب بعض الديانات السابقة عندما تكلم عن حياة علي بن أبي طالب في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما: "وقد كانت ديانات، أخضعت مساحات كبيرة من المعمورة ومجموعات كثيفة من العمران في عهدها الباكر، فريسة الانحراف والتحريف، والمؤامرات الداخلية، أو المحاربات الخارجية، لضعف خلفاء مؤسسي هذه الديانات، والمضطلعين بأعبائها وعرضها وتفسيرها، والقائدين لأتباع هذه الديانات، لعدم تعمقهم في فهم غايات هذه الديانات وأسسها، أو لعدم إخلاصهم لها، أو لقلّة غيرتهم

على أصالتها ونقائها، أو لقلّة زهدهم في حطام الدنيا، أو لتنافسهم على الجاه والمنصب، فذابت هذه الديانات الجبارة في النظم والفلسفات التي جاءت للقضاء عليها أو صالحتها وتلقحت بها في صالح الملوك الذين دانوا بها، أو الحكومات التي تبنتها واستفادت بها أكثر مما أفادتها...^(١).

ومنه ما قال واصفا الخطبة الأولى التي قام بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه عقب تولي الخلافة بالألفاظ الجميلة الدالة والعبارات المؤثرة الشاملة والجمل الفريدة المبيّنة: "وجاءت هذه الخطبة في أوانها ومكانها، وضرب أمير المؤمنين على الوتر الحساس، ووضع الأصبع على موضع الداء، فكان أكبر ما ابتلي به المسلمون في هذه الفترة التاريخية هي الاستهانة بحرمة المسلم، والاجترار على سفك دمه وإهدار كرامته، وقد كان خليفة المسلمين سيدنا عثمان رضي الله عنه هدف هذه الفتنة العمياء، وقد وقع ذلك على مرأى ومسمع من الناس في مدينة الرسول وبجوار مسجده ومرقدّه، وكان من واجب الخليفة الذي يلي أمر المسلمين أن يركز على رعاية حرمة المسلم، ومخافة الله عز وجل في ذلك، والحث على تقوى الله في عباده وبلاده، حتى في البقاع والبهائم"^(٢).

وتظهر قدرة المؤلف على تبليغ ما في قلبه من المشاعر إلى القراء بالكلمات المؤثرة والعبارات البليغة والجمل الفصيحة خلال أقواله الممزوجة بالألم والحزن عندما صور خسارة كارثة كربلاء: "لو كانت مندوحة من ذكر هذه الكارثة التي ينحني لها رأس كل مسلم حيّاء ويندى جبينه، لطوينا عنه كشحا وضربنا عنه صفحا، ولكن التاريخ الذي يساير الأحداث على اختلاف أنواعها ووقعها في النفوس، مرغم على ذكر هذه الكارثة، تسجيلا للواقع وإتماما للحديث، ومعدرة إلى القلب والضمير، ومعدرة إلى

^١ نفس المرجع، ص: ٥٩

^٢ نفس المرجع، ص: ١٤٠

القرء الغيارى على الإسلام، العارفين لفضل آل بيت الرسول وعترته الكرام"^(١). وأمثلة هذه الأقوال الدالة على أسلوبه الممتاز كثيرة متناثرة في هذا الكتاب.

ثالثا: مناقشة في معالجة الموضوع

عالج السيد الندوي رسم حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بطريقة شاملة، ووضع فصول هذا الكتاب في غاية الإمعان وبالغ الإتقان، ومما يعظم مستواه ويجل درجته كيفية معالجة حياة علي بن أبي طالب، ولم يكن تأليف هذا الكتاب لديه أمرا هينا، ولم يكن هذا العمل كسائر أعماله التأليفية، لأن سيرة هذه الشخصية تعرضت للتحريف الشرس والتشويه الشكس، وكان وضع الإصبع في موضع الألم صعبا متعبا وثقلا ثقيلًا، وقال هو نفسه عن هذا الثقل في مقدمة هذا الكتاب: "ولكني تهيبت هذا الموضوع تهيبا ما تهيبت لموضوع آخر، لأن فيه مواقف وبحوثا هي أحد من الشفرة وأدق من الشعرة، لا يمر بها المؤلف سليما إلا إذا اتسع صدره وقوي صبره وأتزن فكره، وبالأصح إذا حاله التوفيق الإلهي، فأثرت السلامة على التعرض للملامة، والوقوف على الساحل على اقتحام البحر الخضم"^(٢).

لقد اعتنى المؤلف بكون عرض سيرة هذا الخليفة صحيحا موثوقا به، وكونه خاليا من الأكاذيب وبعيدا عن العيوب، ولهذا الغرض بذل أقصى جهوده في جمع المعلومات الكثيرة بالقراءة الواسعة والمراجعة الطويلة المتكررة، وقضى أوقاته الثمينة لإيجاد نتيجة مثمرة بهذا الجهد الشاق، وأكب على ما اشتهر من أمهات الكتب، وعاش بين رفاف المكاتب.

^١ نفس المرجع، ص: ٢٠٧.

^٢ نفس المرجع، ص: ٨.

هناك كثير من الكتب القديمة التي اعتمد عليها الندوي لإعداد هذه المأدبة العلمية والضيافة الأدبية والمدونة التاريخية، منها على سبيل المثال وشكل الاختصار: أسد الغابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وأنساب الأشراف للبلاذري، والبداية والنهاية لابن كثير، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتاريخ ابن عساکر، وتاريخ يعقوبي، والجامع الصحيح للبخاري، وحلية الأولياء للأصبهاني، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية، وسيرة ابن هشام، والطبقات الكبرى لابن سعد، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وفتوح البلدان للبلاذري، والكامل لابن الأثير، والكامل للمبرد، ومجموع فتاوى ابن تيمية، ومروج الذهب للمسعودي، ونزهة الخواطر لأبي المؤلف السيد عبد الحي الحسني، ووفاء الوفاء للسهمودي، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من الكتب القديمة الكثيرة.

واعتمد الكاتب على كثير من الكتب الحديثة حتى بعض الكتب الإنجليزية، وقال الدكتور محمد أكرم الندوي: "راجع في تأليفه المصادر القديمة والحديثة، ودرس المذاهب والطوائف والحركات دراسة نقدية تحليلية، وخرج بالأثر وجواهر تمتُّ بصله لحياة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه النقية الصافية، الغنية الثرية النافعة المفيدة"^(١).

وحاول الندوي أي محاولة أن يكون سرد هذه السيرة صحيحا، وقضى وقتا غير قصير للتمييز بين الصحيح والسقيم، والجيد والرديء - ولا يدعي الباحث أن كل الروايات الواردة في هذا الكتاب صحيحة - كما ذكره في مقدمة الكتاب. ومما يلاحظ أن هذا الكتاب تكثر فيه الاقتباسات من المراجع والمقتطفات، حيث تدل هذه الكثرة على

^١ الندوي، د.محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المرني والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص: ٤٩٤

اهتمام المؤلف بأن يكون هذا الكتاب كتاباً أصلياً وموثوقاً به، كما تدل على اعتناؤه بكونه مرجعاً للجيل القادم.

ولم يعرض الندوي هذه السيرة كسرد قصة أو رواية، كما عالج سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في كتابه "إذا هبت ريح الإيمان"، ولكنه تناول هذا الموضوع تناولاً موضوعياً تاريخياً محضاً، حادثة بعد حادثة، بدأ بنقاش أحوال أسرة علي رضي الله عنه وولادته وحياته في مكة المكرمة والهجرة، واختتم بنقد عقيدة الإمامية عند الشيعة، حتى يشعر القارئ كأنه يرحل رحلة حقيقية عبر عصور علي رضي الله عنه، ويحس الناظر فيه كأنه يشاهد تلك الحوادث والوقائع المذكورة فيه مشاهدة العين، حتى ينزل مع نزول الكتاب ويصعد مع صعوده.

وقال الدكتور محمد اجتباء الندوي عن معالجة المؤلف لهذا الموضوع: "ودرس تلك الشخصية دراسة وافية وبموضوعية، استوعب كل ناحية من نواحي حياته، من طفولته في الجاهلية إلى شبابه وكهولته في الإسلام، وإلى خدماته الجليلة في صحبته الطيبة للنبي الكريم ﷺ، ورفقته الوفية الأمين الصادقة المخلصة مع إخوانه الثلاثة من الخلفاء الراشدين الذين سبقوه"^(١).

رابعاً: مناقشة في فعالية الكتاب

ومما يدل على فعالية كتاب "المرتضى" ما تلقاه الناس بالقبول، لأنه كان يسد الفراغ الواقع في المكاتب العربية والإسلامية بقيام دوره الفعال في نشر الجانب الحقيقي لحياة علي بن أبي طالب التي كانت مغمورة بالأقاويل الكاذبة وممسوخة بالافتراءات الباطلة، ولكن الطائفة الشيعية التي نقد الندوي في هذا الكتاب اعتقاداتها الإمامية بأسلوب

^١ الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م، ص: ١٣٤

غير لاذع وكلمات غير موجعة استجابت له في أسلوب عنيف وكلام غير عفيف كما مضى ذكره.

وحاول بعض أنصار تلك الطائفة الرد عليه بمحاولات تأليفية وأعمال كتابية، منها مقالة نشرت في مجلة "تراثنا" الشيعية الصادرة من بيروت، كتبها العالم الشيعي السيد علي الحسيني الميلاني بعنوان "هوامش على كتاب المرتضى للندوي"، وهذه المحاولة أيضا لا تخلو من أسلوب الاستهزاء واستعمالات السخرية، كما يبدو في قوله: "فالكتاب كله يقع في ٢٥٠ صفحة!

والمتعلق منه بالموضوع - وهو سيرة المرتضى أمير المؤمنين - ١٩٠ صفحة فقط!!

تناولت هذا الكتاب ... وأنا مستغرب كيف تمكن المؤلف من أن يودع "سيرة المرتضى أمير المؤمنين" في ١٩٠ صفحة فقط؟! (١).

والرد على هذا القول سهل جدا، لأن الاختصار له اهتمام كبير، وليس الشأن في عدد الصفحات وزيادة السطور، ولكنه في المضمون الذي احتوى عليه الكتاب. وقال الكاتب عن قصده من كتابة هذه المقالة: "فقد كان الغرض التنبيه على دسائس المؤلف ووساوسه، والكشف عن مقاصده وهواجسه..." (٢). ولكن يظهر لكل من يقرأ هذه المقالة أنها نتيجة محاولة حزبية طائفية شيعية، وحاول الكاتب فيها معارضة بعض المواقف التي أثبتتها الندوي بالحجج والاقتراسات من كتب السابقين.

ومما يزيد مكانة هذا الكتاب وتأثيره في المجتمع أن المؤلف ينتمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، ومع ذلك كان يهتم بفن التاريخ والسيرة أي اهتمام، هذا ما قاله

^١ الميلاني، السيد علي الحسيني، مقالة "هوامش على كتاب المرتضى للندوي"، مجلة "تراثنا"، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، العدد الأول (٣٤)

السنة التاسعة، المحرم ١٤١٤هـ، ص: ١٩

^٢ نفس المرجع، ص: ٥٩

الدكتور حسن الأمراني في مقالة وصفية لهذا الكتاب منشورة في مجلة "البعث الإسلامي": "لعل الشيخ أبا الحسن الندوي خير من يؤلف في هذا الموضوع، لأسباب ذاتية وموضوعية، فأما الأسباب الذاتية فلأنه من الشجرة الزكية نسبا، إذ ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ثم هو من المتعلقين بحب صحابة رسول الله ﷺ جميعا حبا أكده وجلاه كتابه "المرتضى" ووسمه بالإنصاف، وأما الأسباب الموضوعية فمرجعها إلى أن الشيخ الندوي يعتبر نفسه تلميذا للتاريخ، والحق أنه تلميذ نجيب للتاريخ... ولا بد للمؤرخ من أن يتسلح بالحذر فيما يأخذ ويدع..."^(١).

خامسا: مناقشة في جذب العقول والعواطف

ومن العناصر التي ساهمت في جذب القلوب والعواطف إلى هذا الكتاب أن المؤلف لم يكتف فيه بسيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فحسب، بل سلط الضوء على سيرة مختصرة للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وعلى سيرة معاوية والحسن والحسين رضي الله عنهم أيضا، ففتح للقارئ الفرصة لتفهم سيرهم أجمعين الوجيزة، ولكن المؤلف يعرضها على القراء لتمكين بيئة عرض حياة علي رضي الله عنه.

ومنها اختصار الموضوعات، ومن المعلوم لدى كل من يطلع على تاريخ الخلفاء الراشدين أن تصوير حياة واحد منهم يتطلب إلى صفحات عديدة، بل مجلدات عدة، ولكن المؤلف عرض هذه السيرة في اختصار تام مع مراعاة ضم النقاط الهامة ونقاش الأوجه الجسيمة. وهذا العرض المختصر يجذب عقول معظم القراء وعواطفهم، لأنهم يقدرون على إدراك الموضوعات في أسهل الطرق إذ تُتعبهم الإطالة في بعض الأحيان،

^١ الأمراني، د. حسن، مقالة وصفية لـ "المرتضى"، مجلة "البعث الإسلامي"، ندوة العلماء لكهنؤ - الهند، العدد التاسع، المجلد السادس والثلاثون، نوفمبر وديسمبر ١٩٩١م، ص: ٧٤

لأن التقاط اللآئى من واسع اليم وعميق الخِصَمّ شيء شاق، أما في بعض الأحيان فيحتاج المؤلف إلى الإطالة والإطناب لعرض الموضوعات كما اتخذ الندوي نفسه هذا الأسلوب في بعض كتبه، ولكنه تمسك في عرض هذه السيرة بأسلوب الاختصار.

ومنها اعتماد المؤلف في تأليف الكتاب على كثير من المراجع المسلّمة لدى الطائفتين - أهل السنة والشيعة - إذ يجذب هذا الاعتماد أيضا انتباه القراء إليه، ويلفت أنظارهم بغض النظر عن طوائفهم. ونجد أنه يعتمد في بعض الأحيان على الكتب المصنفة بأيدي علماء الشيعة، وبهذا الاعتماد يلفت الكتاب أنظار أنصار الشيعة، ويجذب قلوبهم إليه، ويظهر به اهتمام المؤلف بالإنصاف والعدل في عملية تصوير حياة هذه الشخصية.

وقال الدكتور حسن الأمrani: "ولما كان موضوع الكتاب شديد الحساسية، محفوفًا بالمخاطر ولا سيما في بعض العقائد الخلافية بين أهل السنة وإخوتهم من الشيعة، اعتمد المؤلف كتب الطائفتين معا، درءًا لأن يرمى بالتعصب، ولا سيما حين يتعلق الأمر برد بعض الشبهات، فعن مولد سيدنا علي رضي الله عنه، يورد المؤلف نصا من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الشيعي المعتزلي..."^(١).

ويذكر الكاتب بعضا من أسماء علماء الشيعة الذين اعتمد الندوي على كتبهم لتأليف "المرتضى" قائلا: "ومن علماء الشيعة الذين يرجع إليهم المؤلف أيضا القاضي نور الله الشوستري، وأبو القاسم القهي، وكلاهما معتمد لدى الشيعة، ومن علماء الشيعة المعاصرين الذين يرجع إليهم ويثني عليهم: السيد أمير علي..."^(٢).

^١ نفس المرجع، ص: ٧٦

^٢ نفس المرجع، ص: ٧٧

ومما سبّب كَسْبَ حب القراء ل"المرتضى" موقفُ مؤلفه المتوسط بين الإنكار والغلو من وصف علي رضي الله عنه، وهذا الموقف هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة، وهو البعيد عن وضع الافتراءات والأقاويل الكاذبة عليه، وإنكار ما له من المكانة والفضل، قال الدكتور حسن الأمراني: "فهذا دال على استقلالية في الرأي وعلى أن المؤلف يشهد بولاية علي كرم الله وجهه، ولكن هذا لا يمنعه من إبطال عقائد الغالين، بل هو نفسه الذي يدفعه إلى إبطال تلك العقائد، ومنها عقيدة الإمامة والعصمة، ..." ^(١).

ومما يجلب قلوب القراء إليه وضع العناوين الجميلة المعربة عن المضمون، كما أشير إليه هذا الكتاب يشتمل على عشرة فصول، وكل واحد منها يدل على محتواه حتى يفهمه القارئ بمجرد التصفح السطحي للكتاب، فمثلا الفصل الأول هو "علي بن أبي طالب في مكة من الأسرة والولادة إلى الهجرة"، فالناظر إلى هذا العنوان لا يشك في الموضوع المعالج تحته. أما الفصل الثاني فهو "علي في المدينة من الهجرة إلى وفاة الرسول ﷺ"، فكل من يراه يوقن بأن مجالات البحث فيه هي أحداث حياته بعد الهجرة إلى وقت وفاة الرسول ﷺ. هكذا جميع الفصول في الكتاب تخبر بموضوعات بحوثها، إذًا لهذه العناوين أيضا دور كبير في جعل هذا الكتاب يجذب عقول القراء.

وكذلك جعلَ المصنف هذا الكتاب جميلا جذابا بذكر النقاط الهامة تحت كل العناوين، وبهذه النقاط الهامة المشيرة إلى مناحي النقاش يدرك القارئ عمق الموضوع المعالج وسعته، ومجرد قراءتها يتيح للقارئ فرصة اختيار قراءة ما يحبه.

وإن في هذا الكتاب كثيرا من الحوادث تجذب عواطف القراء التي سردها المؤلف خلال عرضه لتاريخ حياة علي رضي الله عنه، وفيه بيانٌ لكثيرٍ من المواقف المعجبة والمناسبات المدهشة الذي يهيج عواطفهم ويؤثر فيها، وفيه عبارات وروايات وحكايات

^١ نفس المرجع، ص: ٧٨

كثيرة تجلب عواطفهم، مثل الحب والرحمة والحزن والألم والندم وغيرها، منها على سبيل المثال:

الحب: خلال عرض تاريخ هجرته ﷺ ناقش المؤلف مؤامرات قريش لمهاجمة النبي ﷺ، ولما أخبره الله به طلب من علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، وقال عن هذه الحادثة: "وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه متسجيا ببردته، وقال: "لن يخلص إليك بشيء تكرهه". ولم يكن ذلك بالأمر الهين السهل، ولا يقدر على ذلك، ولا يعرف جفنه الكرى، ولا يهدأ له نوم، إلا من قوي إيمانه بالله تعالى، وحبه للرسول وثقته بوعدده وإخباره، ومن هياً نفسه ليكون فداه..."^(١).

الرحمة: ومما يوجد في هذا الكتاب من حادثة تظهر عاطفة الرحمة ما وقع في المدينة بعد الهجرة، فهو لما وصل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إليها وقدماه متفطرتان بالمشي المستمر، قال النبي ﷺ: "ادعوا لي علياً"، فأجابوا بلا يقدر على الإتيان لشدة الألم وتعب الجسم، فأتاه ﷺ واعتنقه اعتناقاً حاراً وبكى بكاء شديداً رحمة عليه ورأفة به لتفطر قدميه وحبه.

التبجيل: خلال سرد أحداث واقعة الجمل المحزنة يحكي المؤلف قول علي رضي الله عنه الدال على تبجيله الخالص وتوقيره الصادق لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها واقتبسه من البداية والنهاية لابن كثير: "فقال علي: صدقت والله، ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وسار علي معها مودعاً ومشيعاً أميالاً، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم، ..." ^(٢)

^١ الندوي، أبو الحسن علي، المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م، ص: ٣٣، ٣٤

^٢ نفس المرجع، ص: ١٤٥

الحزن: وفي الكتاب كثير من الحوادث التي تهيج عاطفة الحزن والكآبة، منها ما اقتبس من صحيح البخاري: "دخل عليُّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد، فقال النبي ﷺ: "أين ابن عمك؟" قالت: في المسجد، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول: "اجلس يا أبا تراب"، مرتين" (١).

الألم: ومما يلفت أنظار القراء ويجذب عواطفهم ما بيّن خلال عرض صفة التماسك من الصفات المتوفرة في أبي بكر رضي الله عنه جعلته مستحق الخلافة لما أصاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الألم الشديد والغم القاسي عندما توفي رسول الله ﷺ، وقال مقتبسا من سيرة ابن كثير: "فأنكر على من قال مات رسول الله ﷺ، وخرج إلى المسجد وخطب الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين" (٢)، ولكنه عدل عن هذا القول بعد أن خطب الصديق مئبنا وفاته ﷺ.

الندم: يظهر هذا النوع من العواطف في كثير من المواضع من هذا الكتاب، منها ما قاله مقتبسا من كتاب "سيرة عائشة" للعلامة السيد سليمان الندوي، من الندم الشديد والحزن العميق على وقوع حرب الجمل: "وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول: "ليتني متُّ قبل يوم الجمل"، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلّ خمارها" (٣).

السرور: كسائر أنواع العواطف مظاهر هذا النوع أيضا منبثة متناثرة في "المرتضى"، منها ما قال مقتبسا من كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية ما فرح الرسول ﷺ وخر ساجدا لله لما أخبر بإسلام أهل همدان: "وبعث رسول الله ﷺ خالد

^١ نفس المرجع، ص: ٤٣

^٢ نفس المرجع، ص: ٦٥

^٣ نفس المرجع، ص: ١٤٥

بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام في نفر من المسلمين، فأقاموا ستة أشهر يدعوهم خالد إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه وقال: "السلام على همدان، السلام على همدان" (١).

الخوف: أورد المؤلف خلال عرض كارثة كربلاء قول عبد الله بن عباس للحسين رضي الله عنهم لما خرج إلى الكوفة عما أحس من الخوف أن يقتل كما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه أمام أهله: "وقال له عبد الله بن عباس: "إن أهل العراق قوم عُدْر فلا تغرنّ بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم، ثم أقدم عليهم"، فقال الحسين: "يا ابن عم، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير"، فقال: "فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه" (٢).

^١ نفس المرجع، ص: ٥١، ٥٢.

^٢ نفس المرجع، ص: ٢١٠.

الفصل الرابع

تقييم الوسائل التي حقق بها المؤلف غرضه

لا تتم عملية تحليل كتاب إلا بتقييم الوسائل التي حقق بها المصنف مقصده، ولا تنجح هذه العملية إلا بتقدير الآلات التي استخدمها المؤلف للوصول إلى غايته، وإن الندوي نجح في عمليته ككاتب سيرة علي بن أبي طالب نجاحا ملحوظا، ووصل إلى غايته وصولا مذكورا، وكان هذا النجاح وذلك الوصول باستعمال بعض الوسائل الأدبية واستخدام بعض الأساليب التعبيرية، وهي كثيرة مثل الإعلام والإقناع والترفيه والتصحيح والوصف وغيرها، ويناقش هذا الفصل بعضا من تلك الوسائل الهامة الظاهرة في كتاب "المرتضى".

الإعلام: ومما لا يشك فيه أحد ممن ذاقوا طعم هذا الكتاب أن المؤلف عالج هذا الموضوع في صورة ممتازة، وقدم هذه المأدبة العلمية التاريخية في أجمل شكل، واهتم بالعلم والإعلام في عرض هذه السيرة، لذا أكب على الكتب وقراءتها استعدادا لتأليفه، واستفاد منها كثيرا، واقتبس منها غزيرا، وأشار في كتابه إلى المراجع وأصولها حتى يقدر من يريد من القراء مزيدا من العلم في هذه المادة على مراجعة المراجع ومطالعة المصادر.

ومما يدل على اهتمامه بمجال الإعلام والتعليم أنه بيّن بعض المسائل الخلافية بذكر هذه الأوجه المختلف فيها مع تفضيل وترجيح الرأي الموثوق به لديه والمثبت عنده بالدلائل، بدون إهمال تلك الجوانب المختلف فيها، وأمثلة هذا النوع من الترجيح والتفضيل مع ذكر الآراء المخالفة كثيرة، منها تاريخ ولادة علي بن أبي طالب، فإن الشيعة ادعت أنه وُلِدَ في جوف الكعبة، أما المحدّثون وأهل السنة فلا يقرون به، وقال

المؤلف عن هذا مقتبسا من بعض الكتب القديمة: "قال الحاكم في ترجمة حكيم بن الحزام: "قد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليا في جوف الكعبة، ووُلد حكيم بن حزام في الكعبة"، [مروج الذهب للمسعودي] وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

اختلف في مولد علي عليه السلام أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي"^(١).

وفي بعض المواضع يعالج الندوي هذا النوع من الموضوعات بدون إشارة صريحة إلى الخلافات، ولكن بإيماء إلى أن هناك اختلافا في هذا الموضوع، فيورد الرأي الثابت بالدلائل والموقف المؤيد بالحجج، ومن أمثلة هذا النوع ما عالج الخلاف بين أهل السنة والشيعة في إسلام أبي طالب - يرى أهل السنة أنه لم يُسلم، أما الشيعة فيؤمنون بإسلامه - حيث قال: "مات أبو طالب في النصف من شوال في السنة العاشرة من النبوة، وهو ابن بضع ثمانين سنة، وهو العام الذي ماتت فيه خديجة زوج النبي ﷺ، ولم يسلم أبو طالب"^(٢)، ثم قال في الحاشية: "وهو المشهور الثابت من كتب الحديث والسيرة، المعروف عند المسلمين قديما وحديثا، وقد تأسف على ذلك رسول الله ﷺ وحزن له، وذلك يدل على أن هذا الدين دين مبدئي عقائدي، لا يحابي فردا ولا سلالة على أساس نسب وسلالة، أو رحم وقرابة، ولا على حب ودفاع، إذالم تقترن به عقيدة صحيحة وإيمان بما جاء به الرسول ﷺ"^(٣). أشار المؤلف هنا إلى الخلاف بالإيماء بكلام "وهو المشهور الثابت من كتب الحديث والسيرة، المعروف عند المسلمين قديما

^١ نفس المرجع، ص: ٢٨

^٢ نفس المرجع، ص: ٢٢

^٣ نفس المرجع، ص: ٢٢

وحديثاً"، ثم رجّح الرأي الثابت الصحيح والمسلّم لدى أهل السنة. وأمثال هذه المقولات الدالة على مراعاة أمانته العلمية والإعلامية كثيرة.

الإقناع: ومن الطبيعي أن يكون لأي كتاب قراء مختلفون، فمن مهارة المؤلف وبراعته أن يقنع كل نوع من أنواع القراء، وكتاب "المرتضى" يقنع قراءه على اختلاف درجاتهم، ويرضي من يريد الاستفادة منه على تنوع طبقاتهم، يكون من جملة القراء من يقرأه قاصدا المعرفة السريعة عن علي بن أبي طالب، فيقتنع بهذا الكتاب وما فيه من تصوير الأحداث الهامة في حياته بدون إسهاب ممل، حتى يقدر على أخذ النقاط بغاية السهولة وعلى التقاط العلوم بغير عناء كبير.

ومنهم من يتقدم للقراءة بقصد الحصول على المعرفة الصحيحة عن حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأنها قد بُدلت كثيرا وحُرُفت، فالذي يقف متحيرا أمام هذه التحريفات ومحتارا إزاء هذه التبديلات يقتنع بما جمع فيه من المعارف التي تزيل التحير وتزيح اللبس.

لكن الشيعة لم تقتنع بهذا التأليف، بل كان رد فعلها رد فعل قاس عنيف كما مضى، وحاولت تأليف الكتب وكتابة المقالة تنقد مضمون "المرتضى"، أما الذين قصدوا أخذ المعلومات كما وردت في الكتب الموثوق بها فرحبوا به ورضوا به.

ويكون فيهم من يريد أن يأخذ منه آراء العلماء القدامى في مختلف السياقات، لأن هذا الكتاب يجمع كثيرا من أقوال المؤرخين وآراء السابقين. ويقنع هذا الكتاب من القراء من يريد أن يعرف معرفة سريعة حول الخلفاء الراشدين الثلاثة قبل علي بن أبي طالب، لأنه يحتوي على أهم الأحداث وقعت زمن خلافتهم، رغم أن المؤلف أوردها لتوضيح مواقف علي بن أبي طالب الإيجابية منهم ومن خلافتهم.

الترفيه: رغم أنه لم يكن أسلوب هذا الكتاب أسلوباً قصصياً يتيح للقارئ فرصة التمتع بقراءة سيرة علي بن أبي طالب كأنه يقرأ رواية، فالذي يلعب الدور الكبير في ترفيه قراءته التنسيق المتسلسل لأحداثه، حيث يستطيع القارئ متابعة الأحداث والوقائع واحدة بعد واحدة، ويبعث في قلبه بعد مطالعة فصل حب استطلاع الفصل التالي.

التصحيح: وكان من أهم دوافع الندوي إلى تأليف هذا الكتاب فكرة تصوير حياة علي بن أبي طالب بدون تحريف ولا تبديل كما ذكر، فاهتم بتصحيح وتسييد بعض الفكر الخاطئة الشائعة، لذا أشار إلى كثير من المواضيع حسب السياق مصححاً بعض الآراء، وأثبت النظريات الصحيحة الموافقة لموقف أهل السنة، ومن أمثال تلك الموضوعات: مكان ميلاد علي بن أبي طالب، وإسلام أبي طالب، والمؤاخاة بين علي بن أبي طالب وسهل بن حنيف رضي الله عنهما، والحكمة في تأخير خلافة علي بن أبي طالب، وإخلاص علي بن أبي طالب التام للخلفاء الراشدين الثلاثة قبله، وما قدم من التعاون الصادق معهم، وما كان يعامل الخلفاء الثلاثة أهل البيت مع الحب والتعظيم، وما إلى ذلك من الموضوعات.

وقد حاول المؤلف إثبات المواقف الصحيحة التي دلت عليه الكتب القديمة الموثوق بها، كما حاول تصحيح الآراء الفاسدة والنظريات الباطلة المتعلقة بها.

الوصف: ومن الوسائل التي استخدمها الندوي لعرض مضمون هذا الكتاب الوصف، فقد وصف كثيراً من الأحداث وعديداً من الشخصيات خلال سرد هذه السيرة، وعالج فيه كثيراً من الوقائع بذكر ما فيها من الأوصاف، ومن تلك الأوصاف ما وصفه من بعض الغزوات الواقعة في عصر النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وبعدهم مثل غزوات بدر وأحد والأحزاب وخيبر وكارثة كربلاء وغيرها، ومنها ما ذكر

محاسن بعض الشخصيات مثل الخلفاء الراشدين وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم وغيرهم.

وهذا النوع كثير متناثر في الكتاب، منها على سبيل المثال ما قاله واصفا علي بن أبي طالب مقتبسا من كتاب "صفة الصفوة" لابن الجوزي: "عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لضرار بن ضمرة: صف لي عليا، فقال أو تعفيني؟ قال: بل صفه، قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك، قال:

"أما إذا، فإنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِب.

كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، وبيدئنا إذا أتينا، ويأتينا إذا وعدناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد بالله، لقد رأيتَه في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثّل في محرابه قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعُه وهو يقول:

يا دنيا، أبي تعرضت أم لي تشوفتِ [؟] هيّات هيّات، غري غري، قد بتتّك ثلاثا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق"^(١).

^١ نفس المرجع، ص: ١٧٨، ١٧٧.

ومنها ما قاله عن فاطمة رضي الله عنها: "وكانت رضي الله عنها شديدة الحرص على ما يرضي رسول الله ﷺ، شديدة الإيثار لما يسره ويرغب فيه على ما تقتضيه الأمومة الحنون، وحب الأبناء الطبيعي..."^(١).

ومنها ما قاله عن الحسن بن علي رضي الله عنهما مقتبسا من كتاب البداية والنهاية: "كان رسول الله ﷺ يحبه حبا شديدا حتى كان يقبل ذبيبتة وهو صغير، وربما مص لسانه، واعتنقه وداعبه، وربما جاء ورسول الله ﷺ ساجدا في الصلاة فيركب على ظهره، ويقره على ذلك ويطلب السجود من أجله..."^(٢).

وساق كلام أنس رضي الله عنه مقتبسا من مصنف عبد الرزاق: "كان الحسن بن علي أشبههم وجها لرسول الله ﷺ"^(٣).

وأورد قول علي بن أبي طالب الذي يدل على تشبه الحسن برسول الله ﷺ في النصف الأعلى من جسده، إذ كان الحسين رضي الله عنه يشبه به ﷺ في النصف الأسفل من جسده. وبأمثال هذه الأوصاف يؤدي الندوي أمانته التأليفية.

التحريض: وقد صور المؤلف حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى يقدر القارئ على اتباع خطواته رضي الله عنه ودخول مدخله، وذكر فيه بعض السجيات الحميدة والأخلاق الفاضلة محرضا للقراء على الاقتداء بها وامثالها، فتكلم مطولا عن تقواه وإخلاصه لله وزهده في الدنيا، وقال عن زهده: "وكان أوضح خلة يتصف بها وشعار يتميز به، هو الزهد البالغ مع توافر أسباب الرخاء والثراء، والسلطة المطلقة، وتوفير الناس وإجلالهم الذي يمنع من النقد والحسبة والمؤاخذة..."^(٤).

^١ نفس المرجع، ص: ٨٦

^٢ نفس المرجع، ص: ١٩٥

^٣ نفس المكان

^٤ نفس المرجع، ص: ١٧٨

وفيه كلام عن معاملة علي بن أبي طالب رضي الله عنه المتميزة مع الناس على مختلف درجاتهم، فكان يعامل الولاة والعمال وعامة الناس مع التكريم والتبجيل، وأورد المؤلف كلامه رضي الله عنه للولاة معتبرا عامة الناس وأمورهم: "أنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنهم خزان الرعية، ولا تحسموا أحدا عن حاجته، ولا تحسبوه عن طلبته، ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يحتملون عليها، ولا عبدا، ولا تضرين أحدا سوطا لمكان درهم"^(١).

وصور بعض جوانب حياته رضي الله عنه المتعلقة بأعماله الإصلاحية والتربوية، في أسلوب التحريض وقال: "ولم يكن علي حاكما إداريا وخليفة للمسلمين بالمعنى العام، كما جرى عليه خلفاء بني أمية وبني العباس، بل كان على نهج الخليفتين الأولين، فكان ولي أمر المسلمين ومعلما ومربيا ونموذجا عمليا، قائما بالحسبة الدينية والخلقية، مراقبا لميولهم واتجاهاتهم الموافقة لتعاليم الإسلام وأسوة الرسول ﷺ، والمنحرفة عنها المتأثرة بالأمم المغلوبة والبلاد المفتوحة، يقيم للناس صلاتهم ويعظمهم ويفقههم في دينهم، ويبصرهم بما يحب الله من المسلمين وبما يكره الله منهم، كان يجلس لهم في المسجد فيسألهم عن أمورهم، ويجيب من سأله منهم في أمور الدين والدنيا، وكان يمشي في الأسواق ويرقبهم حين كان يبيعون ويشترون، ويعظمهم ويقول: اتقوا الله وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم"^(٢).

ويحث الندوي القراء في هذه الأقوال على اتباع الحسنات وامتنال الخيرات، وأمثال هذه من الأمور الحائثة على القيام بالأعمال الصالحة والانشغال بالأنشطة الخيرية كثيرة بثيرة في هذا الكتاب، وإن لم ترد صيغ التحريض.

^١ نفس المرجع، ص: ١٨٢

^٢ نفس المرجع، ص: ١٨٣، ١٨٢

العتاب: ومن الوسائل التي عُرض محتوى هذا الكتاب بواسطتها العتاب، ففي بعض مواضعه يعاتب الندوي بعضا من الناس على موقفهم الخاطئ ويشتتهم، وهذا العتاب أيضا يلعب دوره الكبير في كون الكتاب مؤثرا في نفوس القراء، منها ما قاله معاتبا أهل الفتن في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه: "وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار..."^(١).

ومنما ما قاله خلال عرض تاريخ موقعة الجمل حاكيا عن كتاب "البداية والنهاية": وقد سأل بعض أصحاب علي عليا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليهم، فطعن فيه السبئية، وقالوا: كيف تحل لنا دماؤهم، ولا تحل لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك عليا، فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم"^(٢).

وأورد المؤلف في هذا الصدد كلام يزيد بن معاوية لما أوتي برأس الحسين حاكيا عن كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة": "قال هشام: لما جاء رأس الحسين دمعت عينا يزيد بن معاوية، وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه"^(٣). وأمثال هذه الأقوال المعربة عن العتاب كثيرة في هذا الكتاب.

التفجع: ومن وسائل الندوي لعرض هذه السيرة التفجع، هناك كثير من المناسبات التي يعبر فيها المؤلف عن حزنه وتألمه، وهذا النوع من الوسائل والآلات يلعب دوره الفعال في تأثير الكتاب في قلوب القراء، منها ما بين الحالة الحزينة للمجتمع الإسلامي عقب وفاة خير الأنام محمد ﷺ حيث قال: "ونزل نبأ وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة لشدة حبهم له، وماتعودوه من العيش في كنفه، عيش الأبناء في حجر الآباء،

^١ نفس المرجع، ص: ١٣٤

^٢ نفس المرجع، ص: ١٤٥

^٣ نفس المرجع، ص: ٢١٣

بل أكثر من ذلك، وكان حظ أهل البيت والأسرة الهاشمية - وعلى رأسها فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب - أوفر وأكثر بطبيعة الحال، وبحكم الفطرة السليمة والقرباة القريبة، وما يمتازون به من رقة الشعور وقوة العاطفة، وشدة الحب، ولكن احتملوه بقوة إيمانهم والرضا بقضاء الله والاستسلام لأمره^(١).

ومنها ما اقتبس المؤلف من كتاب "البداية والنهاية" من قول علي بن أبي طالب عقب موقعة الجمل لما رأى طلحة مقتولاً في ميدان الحرب: "رحمة الله عليك أبا محمد، يعز عليّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عُجْرِي وبُجْرِي، والله لوددت أنني كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة"^(٢).

ومنها ما أورده المؤلف في الكتاب من تفجع يزيد بن معاوية كما ورد في "البداية والنهاية" لما أوتي برأس الحسين كما قال: "وحدّث مولى لمعاوية بن أبي سفيان، قال: لما أوتي يزيد برأس الحسين ووضع بين يديه، رأيته يبكي، ويقول: "لو كان بين ابن زياد وبينه رحم ما فعل هذا"^(٣).

هذه هي بعض الوسائل الهامة والآلات المهمة التي حقق بها الندوي مهماته التأليفية من هذا الكتاب، كما أشير إليه سابقاً ذُكرت على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، لو لم يستخدم هذه الوسائل ما نجح في هذه العملية حق النجاح، وما بلغ مبلغه حق البلوغ.

^١ نفس المرجع، ص: ٥٤

^٢ نفس المرجع، ص: ١٤٦

^٣ نفس المرجع، ص: ٢١٣

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فبفضل الله المنان ورحمته وصل الباحث إلى نهاية مطافه من هذه الرحلة العلمية والبحثية، ويبدو مما مضى أن هذه الدراسة تركز على البحث عن مكانة السيرة والترجمة في الأدب العربي، وبيان تعاريفها المختلفة التي عرفها الكتاب والأدباء، وتوضيح الفرق بين مصطلحي "السيرة" و"الترجمة"، كما تركز على تاريخ نشأة هذا الفن، ومراحل تطوره، وعناية المسلمين به، وتقسيمه إلى قسمين الذاتي والغيري، وأقسامهما الأخرى المتفرعة، وما يقوم به من المهمات والوظائف، مثل كونه وسيلة للتعبير، وسجلا للتاريخ، ووسيلة للتوجيه والتوضيح وغيرها، وعلى معالجة الدوافع التي تدفع الكتاب إلى كتابتها من المدافعة عنهم، والرغبة في التمسك بموقف ذاتي وغيرهما.

وإن أهم معالجة هذا البحث هو النقاش في مؤلفات أبي الحسن علي الندوي في السيرة، وبيان أسلوبها، وأسباب اختيار الأعلام ليترجم لهم، فسلط الباحث فيه الضوء على نسب الندوي، وميلاده، وحياته، ونشأته، وبيئاته الأسرية، ومراحله التعليمية والتربوية، وشغفه بالقراءة، وأهم إسهاماته التأليفية في مختلف مجالات الأدب العربي والعلوم الإسلامية، وما حاول الندوي إنجازه بمداخلاته العلمية ومساهماته الدعوية وأعماله التأليفية وخطاباته التصحيحية من الرسائل مثل الإنسانية والتعايش مع الأديان وحب الوطن وغيرها.

وتتمحور هذه الرسالة حول محور الأعمال المؤلفة للندوي في سير الأعلام والشخصيات البارزة، ويتطلع الباحث خلال هذا البحث إلى اهتمام الندوي بفن السيرة والكتابة فيه، والدوافع التي أدته إلى هذه المهمة التأليفية العظيمة، وملامح كتاباته في هذا الفن.

والمؤلفات في سير الأعلام للندوي التي عالجهما هذا البحث مفصلا على وجه العموم كتاب "السيرة النبوية" المشتغل على سيرة الرسول ﷺ، و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام" الذي يحتوي على تاريخ حيوات عمر بن عبد العزيز، وحسن البصري، والإمام أحمد بن حنبل، وأبي الحسن الأشعري، وأبي حامد الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وجلال الدين الرومي، وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والإمام السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي رحمهم الله جميعا. ومن تلك المؤلفات "إذا هبت ريح الإيمان"، الذي كتبه الندوي في تصوير أحداث حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، و"الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله"، و"الإمام المحدّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، ومنها كتاب سيرته النفسية "في مسيرة الحياة" حيث يتحدث الباحث فيه عن دوافع تأليفه وملامحه ومضمونه.

وعلى وجه الخصوص، يدور هذا البحث حول كتاب "المرتضى" الذي ألفه الندوي في ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قدم الباحث فيه معلومات أساسية متعلقة بهذا الكتاب، مثل الحاجة الماسة إلى وجوده، ودوافع تأليفه، ومقاصد المؤلف عنده، وتاريخ تدشينه، وملامحه، كما قدم أهم مضامين الكتاب. وقام الباحث بتقييم هذا الكتاب من حيث تنظيمه وأسلوبه وموضوعاته ومدى قوة تأثيره وجذب عقول القراء، كما قام بتقييم الوسائل التي توصل بها المؤلف إلى مقصده من الإعلام والإقناع والترفيه والتصحيح والوصف والتحريض والعتاب وغيرها من الوسائل.

وكانت هذه الرحلة البحثية سهلة وممتعة بتوافر المصادر ووجود المراجع، إلا أن الدراسات حول كتاب "المرتضى" لم توجد إلا قليلا، لكن بعون الله تعالى وتوفيقه وصل الباحث إلى غايته من هذا البحث، ولا يزعم أن هذا البحث كامل وخالٍ من العيوب. وإن كان فيه من الخطأ فممنه، وأما ما فيه من الصواب فمن الله الرحيم الودود.

نتائج البحث

وقد توصل الباحث بهذا البحث إلى بعض النتائج المهمة، وهي:

- تطلق كلمة السيرة في اللغة العربية على الطريقة، والهيئة، والسنة، والمذهب، وفي الاصطلاح على دراسة يرسم فيها الكاتب أحداث حياته أو حياة غيره من الشخصيات البارزة. وتطلق كلمة الترجمة على السيرة ككلمة مترادفة مع فرق يسير بينهما، هو أن السيرة تطلق على التاريخ المطول لحياة شخص، والترجمة على التاريخ الموجز له.
- تولدت السيرة من التاريخ، وكتب التاريخ هي مراجع كُتاب السيرة والترجمة. وإن أقدم صور السيرة والترجمة ما دونه قدماء المصريين على جدران المعابد والأهرام من تراجم مشاهيرهم وأكابرهم. ولم تكن كتب السيرة موجودة عند الغرب إلا بعد أن مضت سنوات من وجودها عند العرب. واكتسب الأدب العربي اهتمامه بالسيرة من اهتمام المسلمين بها، لأنهم اهتموا اهتماما عظيما بسيرة الرسول ﷺ.
- السيرة تنقسم إلى قسمين أساسيين، هما الذاتية والغيرية، وهما أيضا تنقسمان إلى الشعرية والقصصية والروائية والنقدية. والأنواع الأدبية الشبيهة بالسيرة الذاتية هي المذكرات، واليوميات، والمفكرات اليومية، والاعترافات، وأدب الرحلات، والتاريخ، والرواية.

- من الوظائف الهامة التي تؤديها السيرة كونها سجلا تاريخيا، ووسيلة للتعبير والتوجيه والتفسير والتثقيف. ومن أهم الدوافع لكتابة السيرة المدافعة عن الكاتب، وتخفيف ثورة نفسية، وعرض الحياة المثالية والحياة الفكرية، والحب في الرحلة إلى الأحداث الماضية، وتسجيل الوقائع التاريخية.
- من المؤلفات التي أثرت في تكوين شخصية أبي الحسن علي الحسيني الندوي "فتوح الشام" للواقدي، و"مد الإسلام وجزره" لألطف حسين، و"سيرة رحمة للعالمين" للقاضي محمد سليمان المنصورفوري، و"إرشاد رحماني" - في اللغة الأردنية - للشيخ محمد علي المنكيري، و"سيرة الفاروق" لشبلي النعماني، و"تاريخ كجرات" لأبيه، و"زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية، و"قيام الليل" للشيخ محمد بن النصر المروزي البغدادي، و"تفسير سورة النور" لشيخ الإسلام ابن تيمية، و"تعليم المتعلم في طريق التعلم" لبرهان الدين الزرنوجي، و"مذكرات والدي"، والإسلام على مفترق الطرق" لمحمد أسد، و"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" لأبيه، و"الدين والعلوم العقلية" للأستاذ عبد الباري الندوي.
- ممن أثر في شخصيته من الأعلام الذين عاصروه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وحسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الرائيبوري، والشيخ حبيب الرحمن الشرواني، والعلامة السيد سليمان الندوي، وأخوه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسيني، والشيخ خليل بن محمد اليماني، والشهيد حسن البنا، والمفتي السيد أمين الحسيني، والأستاذ سيد قطب، والدكتور مصطفى السباعي، والدكتور العلامة محمد إقبال.
- للندوي إسهامات تأليفية في مختلف المجالات العربية مثل: الدراسات القرآنية، ودراسات الأحاديث النبوية، والعقيدة الإسلامية، والأحكام

الشرعية، والفرق الإسلامية، والمذاهب الفقهية، والدعوة الإسلامية، وتاريخ الإسلام، والدراسات الإسلامية العامة، كما له كتب في الأدب العربي، والتعليم والتربية، وأدب الأطفال، وأدب الرحلات، إلا أن الكتابة في سير الأعلام أحب إليه من سائر الفنون، والتي أدته إلى هذه الكتابة في سير الأعلام والشخصيات البارزة هي بيئته المنزلية وجوّه الأسري.

- يتميز أسلوب الندوي في كتاباته بأمور، مثل: سهولة الألفاظ والتراكيب، والتزام القرآن والحديث، ولفت الأنظار إلى التاريخ، والاهتمام بالدعوة الإسلامية وبأمور العرب، والغيرة على مشاكل أهل الإسلام وغيرهم.
- وقد قام الندوي بعدة رحلات إلى دول مختلفة لإلقاء المحاضرات العلمية أو المشاركة في الجلسات الدعوية والمؤتمرات الأدبية ولأغراض أخرى. ومن تلك الدول المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، ودولة الكويت، ودولة قطر، واليمن، ومصر، والسودان، وفلسطين، والشام، ولبنان، وتركيا، والعراق، والأردن، والمغرب، والجزائر، وبعض الدول الأوروبية والأمريكية، وبورما، وسيلان، وبنغلاديش، وماليزيا، وباكستان، وأفغانستان، وإيران، وأوزبكستان.
- حاول الندوي بكتاباته وخطاباته إنجاز كثير من الرسائل، مثل: الحفاظ على الإنسانية والقيم الأخلاقية والتحريض على التعايش مع أبناء الأديان الأخرى، وتعزيز حب الوطن، والدعوة إلى وحدة الأمة المسلمة، والمحافظة على الكلام العفيف عند الانتقادات، والتمسك بالزهد والتواضع والحياة البسيطة والجهود المتواصلة في الدعوة وكسب العلم ونشره.
- الشروط التي اشترطها الندوي على من يكتب في فن السيرة هي: أن يكون عالما بالشخص الذي يترجم له، وأن تتوافر فيه ملكة التعبير، وأن يكون صادقاً

وأميناً ومخلصاً في ذلك العمل التأليفي، وأن يَعْرِفَ حرارة الكلمات وبرودتها حتى ينجح في استعمالها.

● تتميز كتابة الندوي في السيرة باعتناء ذكر اسم الشخص المترجم له وقبيلته ونسبه وأساتذته وتلاميذه وما إلى ذلك من المعلومات، كما تتميز بعرض حياة الشخصيات البارزة كموضوع للعلم والبحث والتفكير لا مجرد تعريفهم، وباختيار الأعلام للترجمة حيث يمكن القراء من الاقتداء بهم واتباعهم حتى لو كان بينهم بعد زمني شاسع، وبتقديم البعد الموضوعي على البعد الزمني والمكاني، وبأسلوبه السهل اللين.

● الكتب العربية للندوي في سير الأعلام هي: "السيرة النبوية"، و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، و"إذا هبت ريح الإيمان"، و"الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهوي ودعوته إلى الله"، و"الإمام المحدّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية"، أما كتابه في السيرة الذاتية فهو "في مسيرة الحياة".

● من ملامح كتاب "السيرة النبوية" للندوي أنه ألفه بأسلوب جديد مع مراعاة المعلومات القديمة، واعتنى بالجانب التربوي مع اعتناء الجانب العلمي، واعتمد على القرآن الكريم وعلى أصح الروايات من كتب الحديث، وعلى أرجح الأقوال من كتب التاريخ.

● ومن أهداف الندوي من تأليف كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" إصلاح الأمة المسلمة، وإعادتها إلى ماضيها المشرق، وخلق سجل تاريخي لأعمال وأحداث حياة أولئك الأعلام الذين ترجم لهم، وإعلام الناس بأن الإسلام كشجرة مثمرة كل حين، حيث يكون فيه مصلحون ومجددون في كل عصر.

- يتميز كتاب "إذا هبت ريح الإيمان" للندوي بأسلوبه الأدبي القصصي، وعناوينه الجذابة، ونشر العقيدة الإسلامية، وعرض أحوال المسلمين في الهند في ذلك الوقت، وتقليد ومحاكاة أسلوب كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني.
- من مزايا كتاب "في مسيرة الحياة" الذي ألفه الندوي في سيرته الذاتية أنه يشتمل على كثير من المعلومات التاريخية، وعلى رسالات هامة ونصائح كثيرة تصفّي المجتمع وأفراده، وأنه يقوم مقام سجل تاريخي لأحداث فترة حياته، وأنه يعرف بكثير من المؤسسات والمعاهد في الهند وخارجها، وأنه اعتمد الكاتب في تأليفه على المنهج السردي التأملي، وأن جزءه الثالث يشكل ذكريات.
- قام الندوي بتأليف كتاب "المرتضى" لإزالة الأغبرة المتلاصقة على تاريخ وأحداث حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه معتمداً على أصح الروايات وأمّهات المؤلفات، مستجيباً لطلب أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسيني بأن يكتب كتاباً في سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أنه لم يظهر هذا الكتاب إلا بعد وفاة الأخ، ومؤدياً لواجب تاريخي متعلق بحياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولانتقاد بعض المعتقدات الباطلة التي بثها الشيعة. قام الندوي بتأليف "المرتضى" في سنة ١٩٨٨م، والذي قام بتدشينه الشيخ منة الله الرحماني أمام حشد كبير من العلماء والكتاب والأساتذة.
- من ملامح كتاب "المرتضى" للندوي أنه يذكر العبر والنصائح خلال عرض أحداث حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويورد فيه الكاتب بعض الآيات والأحاديث حسب الموضوعات المعالجة، ويضع العناوين الملائمة ويذكر تحتها بيانات موجزة حول مضامينها، وينتقد عقيدة الإمامية عند الشيعة، وأنه يعتمد على المؤلفات الموثوق بها، ويذكر بيانات المصادر والمراجع التي اقتبس منها المواد. وقد تم تنظيم موضوعات الكتاب تنظيماً موضوعياً زمنياً إبداعياً،

لا تنظيما موسوعيا. عالج الندوي فيه سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في غاية الإمعان، حيث بذل جهدا جبارا لاختيار الروايات الصحيحة من بين الروايات الضعيفة والموضوعة، وأكب على كثير من أمهات الكتب المشتهرة في هذا المجال.

● وقد أثر هذا الكتاب في المجتمع الإسلامي والعربي تأثيرا قويا، ولعب دوره الحيوي في إزاحة كثير من الشبهات حول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أن بعض علماء الشيعة انتقدوا هذا الكتاب. وقد نجح الندوي في تأليفه بجانب جذب عقول القراء وأذواقهم، ونقل سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى قلوبهم. كما نجح في الوصول إلى غايته من تأليفه باستعمال أدوات ووسائل أدبية مثل الإعلام والإقناع والترفيه والتصحيح والوصف والتحريض والعتاب والتفجع.

الاقتراحات والتوصيات

كان الندوي مشغولا بالكتابة، ومشغوبا بالرحلة طوال حياته، لذا، سنحت له الفرصة لتسجيل حياته الأدبية والعلمية في تاريخ العلماء الهنود، وألف كثيرا من الكتب، وألقى عديدا من الخطب. وتقدم بعض الباحثين للقيام بالبحث في شتى مجالات خدماته العلمية والأدبية كما ذكر، ولكن بعض المجالات العلمية المتعلقة بحياة وخدمات الندوي لا تزال تستحق النقاش العميق والبحث الدقيق.

ففي هذا الصدد يقدم الباحث بعض الاقتراحات والتوصيات إلى اللاحقين من القادمين إلى ميدان البحوث والدراسات الجامعية حول أبي الحسن علي الندوي وإسهاماته الأدبية والعلمية، وهي أن أبواب الأبعاد الجديدة مفتوحة أمامهم، فلهم أن يناقشوا في مؤلفاته في الدراسات القرآنية، ودراسات الأحاديث النبوية، وفي الفرق

الإسلامية والمثل الدينية، وفي أدب الأطفال، كما لهم أن يبحثوا في القيم الأخلاقية أو الاجتماعية في محاضرات الندوي التي ألقاها في البلاد المختلفة.

وأخيرا يدعو الباحث ربه أن يجعل هذا البحث مفيدا لمحبي فن السيرة في الأدب العربي، وأن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من ورثة جنات المأوى.

المصادر والمراجع

الكتب

١. القرآن الكريم.
٢. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ م.
٣. حسن، محمد عبد الغني، مقدمة كتاب التراجم والسير (من سلسلة فنون الأدب العربي - الفن القصصي) دار المعارف بالقاهرة، سنة الطبعة غير مذكورة.
٤. الخشرمي، خالد، الشرق والغرب في السيرة الذاتية العربية، نادي مكة الثقافي بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.
٥. الزير، د. محمد حسن، مقالة السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندوي، كتاب "الشيخ أبو الحسن الندوي" (بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م المنعقد في إستانبول)، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
٦. السباعي، د. مصطفى، السيرة النبوية دورس وعبر، المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثامنة ١٩٨٥ م.
٧. شرف، د. عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر بلونجمان، ١٩٩٢ م.
٨. ضيف، د. شوقي، الترجمة الشخصية (سلسلة فنون الأدب العربي، الفن القصصي ٣) دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٥٦ م.
٩. عباس، د. إحسان، فن السيرة، دار الشروق بالأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
١٠. عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٩٧٥ م.

١١. عبد الفتاح شاكِر، تَهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي - فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
١٢. الغوري، سيد عبد الماجد، "الشيخ أبو الحسن علي الندوي أديب عملاق"، يحدثونك عن أبي الحسن الندوي، بقلم علماء العصر وأدبائه، (كتاب قام بإعداده وجمعه د. محمد العثماني الندوي) دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
١٣. الغوري، سيد عبد الماجد، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
١٤. الغوري، سيد عبد الماجد، رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته، دار ابن كثير، بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٥. القرضاوي، د. يوسف، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٦. المجذوب، الأستاذ محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، بالرياض، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م.
١٧. محمد، د. شعبان عبد الحكيم، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع بعمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
١٨. موروا، أندريه، فن التراجم والسير الذاتية، الترجمة العربية للدكتور أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ١٩٩٩م.
١٩. النجار، د. حسين فوزي، التاريخ والسير، دار القلم بالقاهرة، ١٩٦٤م.

٢٠. الندوي الأزهرى، نذر الحفيظ، الأستاذ أبو الحسن الندوي كاتبا ومفكرا، دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦ م.
٢١. الندوي، أبو الحسن علي، إذا هبت ريح الإيمان، دار القلم بالكويت، ١٩٧٤ م.
٢٢. الندوي، أبو الحسن علي، أسبوعان في المغرب الأقصى، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.
٢٣. الندوي، أبو الحسن علي، الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م.
٢٤. الندوي، أبو الحسن علي، الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
٢٥. الندوي، أبو الحسن علي، السيرة النبوية، دار الشروق بجدة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩ م.
٢٦. الندوي، أبو الحسن علي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، دار الصحوة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.
٢٧. الندوي، أبو الحسن علي، المرتضى، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م.
٢٨. الندوي، أبو الحسن علي، إلى الإسلام من جديد، مطابع المختار الإسلامي بالقاهرة، سنة الطبعة غير مذكورة.
٢٩. الندوي، أبو الحسن علي، دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، المطبعة الندوية بندوة العلماء - لكهنؤ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م.
٣٠. الندوي، أبو الحسن علي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج: ١، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م.
٣١. الندوي، أبو الحسن علي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج: ٣، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ م.

٣٢. الندوي، أبو الحسن علي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج: ٤، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م،
٣٣. الندوي، أبو الحسن علي، رسالة ترجمة السيد أحمد بن عرفان الشهيد مجدد القرن الثالث عشر، مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية برائي بريلي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
٣٤. الندوي، أبو الحسن علي، شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٥. الندوي، أبو الحسن علي، صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، دار البشير بجدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٦. الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، ج: ١، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٣٧. الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، ج: ٢، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٨. الندوي، أبو الحسن علي، في مسيرة الحياة، ج: ٣، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٣٩. الندوي، أبو الحسن علي، قصص النبيين، الجزء الخامس (سيرة خاتم النبيين)، مجلس نشرات الإسلام، كراتشي، سنة الطبعة غير مذكورة.
٤٠. الندوي، أبو الحسن علي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان بالقاهرة، سنة الطبعة غير مذكورة.
٤١. الندوي، أبو الحسن علي، مذكرات سائح في الشرق العربي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.

٤٢. الندوي، أبو الحسن علي، مقال الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف، المجمع الإسلامي العلمي، مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ، الهند، ١٩٨٩م.
٤٣. الندوي، أبو الحسن علي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، قام بإعداده سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
٤٤. الندوي، أبو الحسن علي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك - جولة في غرب "آسيا"، دار الإيمان بدمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.
٤٥. الندوي، أبو الحسن علي، نظرات في الأدب، دار البشير بجدة، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.
٤٦. الندوي، السيد محمد واضح رشيد الحسني، (الجمع والترتيب) المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، مكتبة رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة بلكهنؤ - الهند، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٤٧. الندوي، د. محمد اجتباء، أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٤٨. الندوي، د. محمد أكرم، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٤٩. الوشحي، عبد الله بن صالح بن سليمان، جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي (قراءة تصحيحية)، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

المعاجم

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي بلبنان، الطبعة الجديدة المصححة والملونة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.

٢. أنيس، إبراهيم وغيره، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
٣. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، دار الريان بمصر، سنة الطبعة غير مذكورة.
٤. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٣م.
٥. عبد النور، جبّور، المعجم الأدبي، دار العلم ببيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
٦. عمر، أ. د. أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٧. الفيروزآبادي، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة السادسة، ١٩٩٨م.
٨. مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
٩. معلوف، لويس، المنجد في اللغة، دار المشرق ببيروت، الطبعة الثانية والأربعون، ٢٠٠٧م.
10. Cowan, J. Milton, ARABIC ENGLISH DICTIONARY, Third Edition, Spoken Language Services, Inc, Ithaca, New York, 1976.

الرسائل الجامعية والمذكرات

١. أبو شارب، حازم فارس علي، فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار أنموذجا، رسالة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، بعمان، ٢٠١١م.

٢. بركة، د. ناصر، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث، بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر - باتنة - بالجزائر، ٢٠١٣ م.
٣. بكيري، مباركة وبوترعة، عائشة، السيرة الغيرية في رواية "العلامة" لـ"بنسالم حميش"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد بوضياف - المسيلة بالجزائر، ٢٠١٧- ٢٠١٨ م.
٤. دنيا بن عيسى وطرباق، نفيسة، فن السيرة في الأدب العربي الحديث: عبر الزهور والأشواك - مسار امرأة لزهور ونيسي أنموذجا، مذكرة الماجستير في اللغة العربية والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية والأدب العربي، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي بالجزائر، ٢٠١٨ م.
٥. فايزة، ملكاوي، فن السيرة في الأدب العربي الحديث "حياتي" لأحمد أمين - أنموذجا - مذكرة مكتملة لنيل شهادة الماجستير في تخصص أدبي عربي حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، الجامعة المسيلة بالجزائر، ٢٠١٤ م.
٦. هند، قميني، قراءة نقدية في فن السيرة - كتاب "فن السيرة" لإحسان عباس أنموذجا-، مذكرة مكتملة لنيل شهادة الماجستير مسار: نقد أدبي حديث ومناهجه، قسم الأدب العربي واللغات الأجنبية بكلية الأدب العربي بالجزائر، العام الدراسي: ٢٠١٥- ٢٠١٦ م.

المجلات والدوريات

١. الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض، المجلد السابع، العددان السادس والسابع والعشرون ١٤٢١هـ، (عدد خاص عن الشيخ أبي الحسن الندوي).

٢. البعث الإسلامي، ندوة العلماء لكهنؤ - الهند، الأعداد الرابع والخامس والسادس، أبريل ومايو ويونيو سنة ٢٠٠٠م، (عدد ممتاز عن الندوي بعنوان كلمات التعزية).
٣. تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، العدد الأول (٣٤) السنة التاسعة/المحرم ١٤١٤هـ.
٤. ثقافة الهند، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو دلهي، المجلد الثاني والخمسون، العدد الرابع ٢٠٠١م، (عدد ممتاز عن الندوي).
٥. الصحوة الإسلامية، القسم العربي بالجامعة الإسلامية، دار العلوم حيدر آباد - الهند، العدد السادس والثلاثون، أبريل ٢٠٠٠م، (عدد ممتاز عن أبي الحسن الندوي).
٦. مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦م.
٧. مجلة دراسات عربية (سنوية محكمة)، مركز الدراسات العربية والإفريقية، كلية دراسة اللغات والآداب والثقافات، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند، العدد الثاني ٢٠١٥م.

المواقع الإلكترونية

1. <https://ouadie.ahlamontada.com/t3255-topic>
2. <https://mqaall.com/autobiography-arabic-literature/>
3. <http://www.m-a-arabia.com/site/18454.html>
4. bit.ly/3EIzLIz
5. bit.ly/3ky2cCk
6. bit.ly/3IUSHGr
7. bit.ly/3SsZevr

